في رحاب عاشوراء

سماحة آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي

المجلد الأول

١-٢



دار الكتاب الإسلامي

في رحاب عاشوراء

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

في رحاب عاشوراء

الجزء الأول

آية الله الشيخ
محمد مهدي الآصفي

مؤسسة
دار الكتاب الإسلامي

المولف : اصفي، محمد مهدى، ١٣١٧ -

العنوان و المولف : فى رحاب عاشوراء / محمدمهدى الأصفى.

الناشر : قم : دارالكتاب الاسلامى ، ١٤٣٠ ق = ٢٠٠٩ م = ١٣٨٨ .   الكتابة : العربية .

التسلسل الرقمي : BP٤١/٧٥/١٤أ٦ف٩ ١٣٨٨ تسلسل ديويى: ٢٩٧/٩٥٣٤ رقم الايداع بالمكتبة الوطنية: ٢٤٤٠٩٧١

الترقيم الدولي : 9789644652905   الترقيم الدولي للمجموعة : 9789644652950

الكتاب : .... في رحاب عاشوراء(١)

المؤلف : .... آية ا... الشيخ محمد مهدي الأصفي

الناشر: .... مؤسسة دار الكتاب الاسلامي

الطبعة : .... الاولى : ١٤٣٠هـ.ق / ٢٠٠٩م

المطبعة : .... ستارة

عدد المطبوع : .... (٣٠٠٠) نسخة

الترقيم الدولي للمجموعة : ٩٧٨-٩٦٤-٤٦٥-٢٩٥-٠

الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٦٤-٤٦٥-٢٩٠-٥

قم ميدان المعلم ـ شارع رقم ٢٢ ـ المبنى رقم ٢٦

تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ ـ ٧٧٣٠٩٩٤

فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله

السلام عليك يا وارث نوح نبي الله

السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله

السلام عليك يا وارث موسى كليم الله

السلام عليك يا وارث عيسى روح الله

السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله

السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين ولي الله

الإهداء

لأول مرّة سمعت زيارة (وارث) من أمي رحمها الله، عندما كنت صغيراً، ويومئذٍ لم اكن أعي معنى (الوارث)، ولكنني أحببت هذه الزيارة التي طالما كنت أسمعها منها، وهي تترنم بها في البيت.

وأحببت يومئذٍ الأنبياء والأوصياء عليهم السلام الذين ورد اسمهم في هذه الزيارة، وأحببت الحسين عليه السلام (وارث الأنبياء).

فإلى روحها الطاهرة أرفع ثواب هذا المجهود وأسأل الله تعالى أن يتقبله مني، وأن يتغمدها برحمته الواسعة.

المؤلف

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب مجموعة من المقالات والأبحاث، تحدثت فيها عن (ثقافة عاشوراء)، وهي ثقافة (الصراع) و(التحدّي) و(العمل).

ونحن اليوم في ساحة مواجهة وصراع وتحدّي.

وهذه الثقافة التي ورثناها من الحسين عليه السلام، والتي ورثها الحسين عليه السلام من الأنبياء عليهم السلام، هي من أهم ما يجب أن نُقدّمه لشبابنا في هذه الساحة.

فإنّ ثقافة الصراع والمواجهة من أهم أسباب مقاومة (الفئة القليلة، المستضعفة للفئة المستكبرة والظالمة، ومن دون هذه الثقافة لا نتمكن أن نحقّق أهداف رسالة الله في هذه المعركة الضارية بين التوحيد والشرك.

وهذه الثقافة نجدها في القرآن، وفي يوم عاشوراء.

ويوم عاشوراء حافل بثقافة المواجهة والتحدّي والمقاومة والصبر، وتجسيد لما في القرآن من وعي وثقافة في هذا الشأن.

وفي (رحاب عاشوراء) نجد نحن الكثير مما نحتاجه من وعي المعركة والمواجهة.

ويوم عاشوراء مرآة صافية للتاريخ، نرى من خلال هذه المرآة صراع الحقّ والباطل، ومقاومة الحقّ واندحار الباطل، وقيام الحقّ وسقوط الباطل، وسنن الله في هذا الصراع.

ولابدّ أن يتناول (المنبر الحسيني) المعاصر هذه الدروس التي نستوحيها من يوم عاشوراء، بصورة تحليلية دقيقة تتطابق مع حياتنا السياسية المعاصرة، وصراعنا السياسي والحضاري.

وهذه المقالات التي يجمعها هذا الكتاب، محاولة بهذا الصدد. أسأل الله تعالى أن ينفع به المنبر الحسيني الذي لا يزال سراجاً لجمهورنا، ونبراساً لهم في صراعهم مع الباطل، ورفضهم لسلطان الظلم.

محمّد مهدي الآصفي

وارث الأنبياء

خلفيات ثورة الإمام الحسين عليه السلام

فهرس إجمالي

الفَصلُ الأَوّلُ

وارث الأنبياء

الحسينعليه السلام وارث الأنبياء

تخصيص الحسينعليه السلام بصفة الوارث من دون سائر الأئمةعليهم السلام في زيارة «الوارث» وفي غيرها من النصوص الواردة في زيارة الحسينعليه السلام.. أمْر يستوقف الإنسان ويثير في النفس التساؤل عن الخصوصية التي تستوجب هذا التخصيص، مع أنّ كل الأنبياء وكل الأئمة وكل الصالحين من عباد الله من حملة الدعوة... هم ورثة الأنبياء... من دون فرق.

فما الذي ـ يا ترى ـ اقتضى تخصيص هذا اللقب بسيد الشهداءعليه السلام، والتأكيد على هذا الوصف في الكثير من النصوص الواردة في زيارة أبي عبد الله الحسين؟

إن في الأمر سراً، وإنّ إيضاح ذلك يقتضي أن نعيد النظر بإجمال وإمعان في تاريخ الصدر الأول من الإسلام حتى استشهاد الإمام سيد الشهداء الحسينعليه السلام وفي طبيعة الحركة والثورة التي نهض بها وحققها بشهادته.

انقلاب شامل في القيم والتصورات:

لقد قام رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم بانقلاب شامل في حياة الناس بأمر من الله تعالى في كل القيم والأفكار، والأعراف والأحكام والأخلاق والعلاقات، وقام بهدم كامل للحياة الجاهلية بتصوراتها وقيمها وأعرافها وأحكامها، وبناء كامل للإسلام بكل تصوراته وأعرافه وأحكامه الجديدة على المجتمع الجاهلي.

وأعاد إلى حياة البشر ما انقطع من رافد الرسالات الإلهية وحمل إلى الناس تراث الأنبياء وميراثهم بعد أن حجبته الجاهلية عن حياة الناس.

وقد خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع في مسجد نمرة من عرفات المسلمين، وقال: «إن الزمان والسماوات قد استدارا كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض»[١].

وكأنما يريد رسول الله ﷺ أنْ يخبر المسلمين بأن الزمان قد استدار دورة كاملة، وأن الإسلام قد أنهى كل ما تراكم على حياة الناس وتاريخهم من الجاهلية في هذه الفترة الطويلة، وأعاد الإسلام الفطرة الإنسانية الصافية والنقية إلى حياة الناس من جديد، وهدم الإسلام كل ما أقامته الجاهلية على وجه الأرض، وكأنما دار الزمان دورة كاملة، فعاد كل شيء في حياة الناس إلى موضعه حيث وضعه الله تعالى في الفطرة والتكوين.

وقال ﷺ في نفس الموقف: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميّ موضوع»[٢]. وهذا إعلان للإنهاء الكامل للجاهلية والتصفية الكاملة لها بكل أبعادها وأعماقها التاريخية والفكرية، وإحلال الإسلام محل الجاهلية في كل شيء، وهذا هو الانقلاب الكبير في حياة البشرية في كل شيء، من الأصول إلى الفروع ومن الفكر إلى السلوك، وهو الذي يحدّثنا عنه القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[٣].

---

١ ـ السيرة الحلبية ٣: ٢٥٦.

٢ ـ السيرة الحلبية ٣: ٢٦٥.

٣ ـ الآية الثالثة من سورة المائدة نزلت بعد تنصيب الإمام أمير المؤمنين علي ؑ إماماً بعد رسول الله ﷺ يوم غدير خم ١٨ من ذي الحجّة. راجع الغدير ١: ٢٣٠.

وانقلاب آخر في المواقع:

وإلى جانب هذا الانقلاب الشامل في القيم والأفكار جاء رسول الله ﷺ بانقلاب آخر من عند الله، في المواقع السياسية والاجتماعية والقيادية في حياة الناس، فرفع أناساً تأصلت وتكونت نفوسهم وتصوراتهم في الإسلام، وفي الغالب كانت هذه الفئة مستضعفة خاملة الذكر في الجاهلية، ووضع أناساً آخرين كانوا في قمة الهرم الاجتماعي من قبلُ وفي مراكز القيادة والسيادة في الحياة الجاهلية، وكانوا يتوارثون أمجاد الجاهلية ومواقعها السياسية والاجتماعية، فحجّم الإسلام دورهم وألغى امتيازاتهم ومواقعهم التي كانوا يتمتعون بها من قبل. وقد كان هذا الانقلاب الثاني في المواقع الاجتماعية والسياسية ضرورياً لحماية الانقلاب الأول في القيم والأفكار. فلابدّ في الانقلاب الفكري الشامل الذي جاء به رسول الله ﷺ من عند الله ممن يحميه ويدعمه وينفذه ويحوّله إلى واقع متحرّك ملموس في الحياة الاجتماعية.

وقد كان جلّ تفكير رسول الله ﷺ واهتمامه هو ترسيخ هذه الثورة الربانية في حياة الناس وتأصيلها وتثبيت قواعدها وأصولها في المجتمع، وتثبيت القيم والأعراف والأخلاق والأصول التي جاء بها من عند الله، ولا يتم شيء من ذلك ما لم يعهد أمر هذه الثورة في حياته ومن بعده إلى أيدٍ أمينة، تكوّنت في ظروف هذه الثورة الإلهية وآمنت بها وتجرّدت لها، وتفاعلت معها.. وهذه الفئة هي وحدها التي يمكن إناطة مسؤوليات قيادة الثورة وإدارتها وحمايتها بها، على الأقل في فترة الانتقال، ولا يمكن ائتمان الفئات التي تكوّنت في ظروف الحياة الجاهلية بأمر هذا الدين، أو أن يعهد

إليها بشـيء من شؤون الإسلام، إلاّ بمقدار ما يتم تأليفها به، وذلك أمر آخر لا يرتبط بهذه المهمة.

والمقاييس هنا في اختيار الأشخاص وإبرازهم والإشادة بهم وإناطة المسؤوليات الكبيرة بهم كانت تختلف اختلافاً كبيراً عن المقاييس الجاهلية في التقييم.

وكذلك كان الناس يتلقون الاختيارات النبوية بالاستغراب والإنكار في بعض الأحيان. وكان الأمر يبلغ حدود التمرد أحياناً مما كان يؤذي رسول الله ﷺ.

أمثلة عن الانقلاب في المواقع:

نعرض هنا بعض النماذج من هذا الانقلاب الاجتماعي في تقييم الأشخاص واختيارهم وإناطة المسؤوليات بهم:

١ـ يروي الطبرسي في إعلام الورى، أن أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس ـ وهما من الخزرج ـ أقبلا إلى مكة فالتقيا برسول الله ﷺ وآمنا به وطلبا منه أن يبعث إليهم من يعلّمهم القرآن.

(فقال رسول الله ﷺ لمصعب بن عمير، وكان فتىً حدثاً مترفاً بين أبويه يكرمانه ويفضلانه على أولادهما ولم يخرج من مكة، فلمّا أسلم جفاه أبوه، وكان مع رسول الله ﷺ في الشعب حتى تغيّر لونه وأصابه الجهد، فأمره رسول الله بالخروج مع أسعد، وقد كان تعلم القرآن، فخرج هو (ذكوان) مع أسعد إلى المدينة ومعهما مصعب بن عمير، وقدموا على قومهم وأخبروهم بأمر رسول الله وخبره، فأجاب من كل بطنٍ الرجل والرجلان)[١].

---

١ ـ إعلام الورى للطبرسي: ٦٧ـ٦٨، وبحار الأنوار ١٩: ١٠.

٢ـ وولّى رسول الله ﷺ على مكة ـ بعد ما فتحها الله تعالى له ـ عتاب بن أُسيد، وقد ثقل ذلك على ذوي المكانة والجاه من قريش من أهل مكة، وأسمعوا رسول الله ﷺ في ذلك عتاباً ونقداً.

يقول الحلبي في السيرة:

«وولى ﷺ عتاب بن أُسيد رضي الله عنه وعمره إحدى وعشرون سنة أمْر مكة وأمَره ﷺ أن يصلي بالناس، وهو أول أمير صلّى بمكة بعد الفتح جماعة، وترك ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه بمكة معه معلماً للناس السنن والفقه

وفي (الكشاف) عنه ﷺ أنه استعمل عتاب بن أُسيد على أهل مكة، وقال: انطلق فقد استعملتك على أهل الله... فكان رضي الله عنه شديداً على المريب ليّناً على المؤمن، وقال: والله لا أعلم متخلّفاً يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق.

فقال أهل مكة: يا رسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أُسيد أعرابياً جافياً، فقال ﷺ: إني رأيت في ما يرى النائم كأن عتاب بن أُسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالاً شديداً حتى فتح له، فدخلها فأعز الله به الإسلام»[1].

٣ـ وأمر رسول الله ﷺ عند فتح مكة: بلال الحبشي أن يؤذّن للظهر على ظهر الكعبة، وأبو سفيان وخالد بن أُسيد والحرث بن هاشم جلوس بفناء الكعبة، فقال خالد: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون يسمع هذا العبد فيسمع منه ما يغيظه. وقال الحرث ـ في رواية ـ: وما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذّناً... فخرج عليهم النبي ﷺ فقال: لقد علمتُ الذي قلتم[2].

---

١ ـ السيرة الحلبية ٣: ١٠٤ـ١٠٥. المكتبة الإسلامية ـ بيروت.

٢ ـ راجع تفصيل ذلك في السيرة الحلبية ٣: ١٠٤.

٤ـ واستعمل رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على الجيش الذي انتدبه لغزو الروم في آخر حياته، وكان في الجيش كبار الصحابة وشيوخهم ووجوههم. يقول المجلسي في البحار: «فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلاّ انتدب في تلك الغزاة، فيهم: أبو بكر، وعمر، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة، وقتادة بن النعمان، فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين. فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، فخرج وقد عصّب على رأسه عصابة، وعليه قطيفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال:

أمّا بعد، أيّها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأمير أسامة. ولئن طعنتم في تأميري أسامة فقد طعنتم في تأميري أباه قبله، وأيم الله إنه كان للإمارة خليقاً وإنّ ابنه من بعده لخليق للإمارة»[١].

٥ـ ومن بين وجوه قريش وصناديدها وزعمائها ووجوه المسلمين من العرب يفضل رسول الله ﷺ فارسياً جاء من فارس (سلمان)، ورومياً (صهيب) وعبداً حبشياً (بلال) اشتراه أبو بكر وأعتقه، وقبطياً أسلم وعذب في سبيل الله (خباب).

روى المفيد في الاختصاص قال: جرى ذكر سلمان وذكر جعفر الطيّار بين يدي جعفر بن محمد عليه السلام وهو متكئ، ففضّل بعضهم جعفراً عليه وهناك أبو بصير، فقال بعضهم: «إن سلمان كان مجوسياً فأسلم»، فاستوى أبو عبد الله عليه السلام جالساً مغضباً، وقال: يا أبا بصير جعله الله علوياً بعد أن كان مجوسياً، وقرشياً بعد أن كان فارسياً، فصلوات الله على سلمان، وإن

---

١ ـ بحار الأنوار ٢١: ٤١٠.

لجعفر شأناً عند الله يطير مع الملائكة في الجنة»[١].

روى مسلم عن عائذ بن عمر، أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر، فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، قال فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبيﷺ فأخبره، فقال: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك؟ فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ فقالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي[٢].

وروي عن رسول اللهﷺ في عمّار بن ياسر رضي الله عنه: إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه[٣].

عن عائشة قالت: ما أحد من أصحاب رسول الله إلا لو شئت لقلت فيه ما خلا عماراً، فإني سمعت رسول اللهﷺ يقول: مُلئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، وفي لفظ ابن عمر: ملئ عمار إيماناً إلى أخمص قدميه، وفي لفظ له: إن عمار بن ياسر حشّي ما بين أخمص قدميه إلى شحمة أذنيه إيماناً[٤].

وأخرج الترمذي من فضائل أبي ذر رضي الله عنه عن رسول اللهﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: ما أظلّت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر، شبه عيسى بن مريم، فقال عمر بن الخطاب

١ ـ الإختصاص للمفيد: ٣٤١. وبحار الأنوار ٢٢: ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

٢ ـ صحيح مسلم ٧: ١٧٣، دار الفكر ـ بيروت.

٣ ـ الغدير ٩: ٢٤، عن حلية الأولياء لأبي نعيم ١: ١٣٩، والكشاف ٢: ١٧٦، وتفسير الصافي ١: ٦٨٣. وغيرها من المصادر.

٤ ـ الغدير ٩: ٢٤ ـ ٢٥، عن الهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ٢٩٥ وقال رجاله رجال الصحيح.

كالحاسد: يا رسول الله أفتعرف ذلك لـه؟ قال: نعم فاعرفوه له[١].

وعن بريدة عن رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم: عليّ وأبو ذر والمقداد وسلمان[٢].

٦ـ روى الحويزي في تفسير نور الثقلين، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[٣]. عن ابن مسعود قال: قال سلمان وخباب: فينا نزلت هذه الآية. جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصين الفزاري وذووهم من المؤلّفة (من مستكبري قريش الذين كان يحاول رسول الله ﷺ أن يكسبهم بحطام الدنيا إلى الإسلام) فوجدوا النبي قاعداً مع بلال وصهيب وعثمان وخباب في ناس من ضعفاء المؤمنين، فحقّروهم فقالوا: يا رسول الله لو نحّيت هؤلاء عنك حتى نخلو بك، فأنزل الله عز وجل ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا ويدنو حتى كادت ركبتنا تمس ركبته، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم[٤].

وقال الطبرسي في مجمع البيان: نزلت الآية في سلمان وأبي ذر وصهيب وعمار وخباب وغيرهم من فقراء أصحاب النبي ﷺ. وذلك أن المؤلّفة قلوبهم جاءوا إلى رسول الله ﷺ (عيينة بن الحصين والأقرع بن حابس

---

١ ـ سنن الترمذي ٥: ٦٦٧ ـ ٦٦٩، ط. مصطفى البابي.

٢ ـ الغدير ٨: ٣١٤، عن الترمذي في الصحيح ٢: ٢١٣، وابن ماجه في السنن ١: ٦٦ والحاكم في المستدرك ٣:١٣٠، وصحّحه أبو نعيم في الحلية ١: ١٧٢، وأبو عمر في الاستيعاب ٢: ٥٥٧.

٣ ـ الكهف: ٢٨.

٤ ـ تفسير نور الثقلين للحويزي ٣: ٢٥٧.

وذووهم) فقالوا: يا رسول الله، إنْ جلست في صدر المجلس ونحّيت عنّا هؤلاء وروائح صنانهم[1]، وكانت عليهم جباب الصوف، جلسنا نحن إليك وأخذنا عنك، فلا يمنعنا من الدخول عليك إلاّ هؤلاء. فلما نزلت الآية قام النبي ﷺ يلتمسهم فأصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله عز وجل. فقال: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أمرني أن أُصبِّر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات[2].

وفي تفسير علي بن إبراهيم: وأمّا قوله عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ فهذه نزلت في سلمان الفارسي رضي الله عنه، وكان عليه كساء يكون فيه طعامه وهو دثاره ورداؤه، وكان كساء من صوف، فدخل عيينة بن حصين على النبي ﷺ وسلمان رضي الله عنه عنده، فتأذّى عيينة.. فقال: يا رسول الله إذا نحن دخلنا عليك فأخرج هذا، واصرفه من عندك، فإذا نحن خرجنا فأدخل من شئت، فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ وهو عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر الفرازي[3].

انقلاب شامل في الهرم الاجتماعي:

والذي يتتبّع سيرة رسول الله ﷺ.. يجد في حياته إلى جانب الانقلاب الشامل الذي جاء به من عند الله في الفكر والسلوك وفي حياة الناس انقلاباً آخر في الهرم الاجتماعي والتركيب السياسي للمجتمع، جعل الداني عالياً، والعالي دانياً، والحاكم محكوماً، والمحكوم حاكماً، ورفع إلى قمة الهرم

---

١ ـ أي نتن آباطهم.

٢ ـ مجمع البيان للطبرسي ٣: ٤٦٥.

٣ ـ تفسير علي بن إبراهيم القمي ٢: ٣٥ ط. مطبعة النجف ١٣٨٧هـ.

الاجتماعي من كان يقع في قاعدة الهرم من المستضعفين والمحرومين، ووضع من كان في قمة الهرم[١] من المستكبرين المترفين.

ولعل الآيات الأوائل من سورة القصص التي تشرح أبعاد الانقلاب الإلهي التي جاء بها موسى عليه السلام من عند الله إلى قومه من بني إسرائيل يعطينا تصوراً كافياً عن عمق وأبعاد الانقلاب الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله في بناء المجتمع الإسلامي الجديد، على أنقاض المجتمع الجاهلي.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[٢] وكان هذا الانقلاب الثاني ضرورياً لحماية وحراسة الانقلاب الأول ولعله ليس ببعيد عن ذلك قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام عندما طلب الإمامة لأبنائه وذريته: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٣]، فلا يمكن أن ينال عهد الله الظالمين الذي قضوا شطراً من حياتهم في الانحراف والظلم، وترسّبت الجاهلية في أعماق نفوسهم وتمكّنت منهم، وتفاعلوا معها.

وقد كان أبو سفيان ومعاوية ابنه وزوجته وطغاة بني أمية في الجاهلية من الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وآله وأعلنوا الحرب عليه وعلى دعوته وألّبوا عليه الناس صلى الله عليه وآله وقد حرص الإسلام أن يزيلهم عن مواقعهم التي كانوا عليها، ولا يعيد إليهم مكانتهم ونفوذهم الذي كانوا يتمتعون به في المجتمع الجاهلي

---

١ ـ التعبير بالهرم تعبير مستعار وغير دقيق عن طبيعة وتركيبة المجتمع الإسلامي، التجأنا إليه لضرورة بيان عمق وأبعاد الانقلاب الإسلامي في المجتمع.

٢ ـ القصص: ٥ ـ ٦.

٣ ـ البقرة: ١٢٤.

من قبل، وأن يلغي دورهم في الحياة الاجتماعية والسياسية في المجتمع الإسلامي الجديد القائم على أنقاض المجتمع الجاهلي.

فلا يمكن أن يأتمن هذا الدين أناساً عادوا هذه الدعوة ووقفوا في وجهها، وألبوا الناس في الأمس القريب على قيم الدعوة وأفكارها وقواعدها وإمكاناتها.

فإن الإسلام قد رفع أُناساً كانوا من قبل موضع احتقار المجتمع الجاهلي ووضع أناساً كانوا من قبل على قمة الهرم الاجتماعي.

قال المسعودي: بلغ أبا بكر عن أبي سفيان صخر بن حرب أمر فأحضره، وأقبل يصيح عليه وأبو سفيان يتملّقه ويتذلّل له، وأقبل أبو قحافة فسمع صياح أبي بكر، فقال لقائده: على من يصيح ابني؟ فقال له: على أبي سفيان، فدنا من أبي بكر، وقال: أعلى أبي سفيان ترفع صوتك يا عتيق الله؟ وقد كان بالأمس سيد قريش في الجاهلية، لقد تعدّيت طورك، وجزت قدرك. فتبسّم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار. وقال له: يا أبت إن الله قد رفع بالإسلام قوماً، وأذل آخرين[١].

وفي رواية أخرى:

قال أبو بكر: يا أبا قحافة إن الله بنى بالإسلام بيوتاً كانت غير مبنية وهدم به بيوتاً كانت في الجاهلية مبنية، وبيت أبي سفيان مما هدم[٢].

---

١ ـ مروج الذهب للمسعودي ٢: ٢٩٩، دار الأندلس بفهارس يوسف أسعد داغر.

٢ ـ الغدير ٢: ٢٥٣ الطبعة الثانية.

الفصل الثاني

الانتكاسة

انتكاسة الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ

فماذا جرى في حياة المسلمين بعد رسول الله ﷺ.

لقد حدثت انتكاسة مريرة في تاريخ هذه الدعوة بعد وفاة رسول الله ﷺ واستطاعت هذه الفئة المستكبرة والمترفة من بني أمية وغيرهم من الذين عادوا الإسلام طويلاً وحاربوا رسول الله ﷺ وألّبوا الناس عليه أن يستعيدوا مواقعهم ونفوذهم ومركزهم في المجتمع الإسلامي الجديد، بعد أن عزلتهم الدعوة عن مواقعهم وجرّدتهم عن نفوذهم وسلطانهم وألغت دورهم السياسي والاجتماعي إلغاءً كاملاً، ومنهم من أهدر رسول الله ﷺ دمه. وإذا علمنا أن هذه الانتكاسة كانت في الأدوار الأولى من حياة الدعوة.. نعرف مدى خطر عودة هذه الطبقة إلى قمة الهرم الاجتماعي في المجتمع الإسلامي والأثر السلبي الذي يتركه في أفكار الدعوة وقيمها وتصوراتها وأحكامها.

وإذا علمنا أن هذه الفئة عادت إلى مراكزها الأولى من موقع الخلافة الإسلامية وما لها من قدسية وشرعية في نظر المسلمين، وأنها حاولت وعملت لتغيير مفاهيم وتصورات وأحكام الدعوة من خلال موقع الخلافة الإسلامية وما لها من الشرعية والقوة والنفوذ في المجتمع الإسلامي.. عرفنا الخطر الذي كان يهدّد الرسالة من جرّاء عودة هذه الطبقة إلى مواقع النفوذ والتأثير في المجتمع.

لقد قامت هذه الفئة، بعزل الطبقة التي تكونت في فترة نشأة هذه الدعوة ومعاناتها وعملت على تصفية هذه الطبقة والقضاء عليها، وإحلال ناس آخرين كانوا يحاربون هذا الدين ويكيدون لرسول الله ﷺ محلها، وقامت بتغيير وتحريف الكثير من الأعراف والتصورات والمفاهيم والأحكام التي جاءت بها الدعوة في حياة الناس، ومارست كل هذه العملية التحريضية الواسعة من خلال الموضع الشرعي والرسمي للمجتمع الإسلامي الجديد (الخلافة الإسلامية) وبلغ هذا الخطر الذي كان يهدّد الدعوة الإسلامية أقصاه في عهد يزيد بن معاوية الحاكم الأموي المعروف.

وقد كان يزيد يباشر المنكرات بصورة علنية من السكر واللهو المحرم والاستهانة بحرمات الله وقتل النفوس البريئة وتحريف الإسلام، وكان يفعل كل ذلك من خلال الموقع الرسمي والشرعي الذي أحلّه أبوه معاوية فيه... وكان ذلك يشكّل الخطر الحقيقي على أصل الدعوة وميراث الأنبياء والمرسلين.

فلم يكن يزيد بأفعاله وأفكاره يشكّل خطراً على الرسالة لو كان يقدم على كل ما أقدم عليه من غير هذا المنطلق ومن غير هذا الموقع. وما أكثر الذين حاربوا الإسلام أو حاولوا تحريفه وتعكيره دون أن يتمكّنوا من أن يفعلوا شيئاً ولكن يزيد بن معاوية كان يرتكب هذه المنكرات ويشيع الفساد في البر والبحر، ويعبث في دين الله من موقع خلافة رسول الله.

وهذا الخطر هو الذي كان الحسين عليه السلام يشعر به، وينذر به، وقد قال للوليد بن عتبة بن أبي سفيان عامل بني أمية على المدينة لما دعاه إلى مبايعة يزيد:

(أيهـا الأمـير، إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فـتح الله وبـنا خـتم. ويـزيد رجـل فاسـق، شـارب الخمر، قاتل النفس المحترمة، معلن للفسق، ومثلي لا يبايع مثله)[١].

وكـان الحسـين عليه السلام يشـعر أنـه الوارث لهذه المسيرة الربانية الكبرى على وجه الأرض، وأن يـزيد بـن معاويـة، ومـن خـلال موقع الخلافة يعمل على تحـريف هـذه المسيرة ومصادرة مواريث الأنبياء والمرسلين وتغيير أفكارها وتصـوراتها وأصـولها وأعـرافها بمـا يأتي وما يشيع وما يدعو إليه من الفساد والمنكرات.

ولابد أن يعمل الحسين عليه السلام لإنقاذ هذه المسيرة الإلهية على وجه الأرض مـن يزيد.. والحسين عليه السلام أكثر من غيره يشعر بثقل المسؤولية... فهو ابن هذه المسيرة الطويلـة المباركة في التاريخ، وهو يرى نفسه أنه جزء لا يتجزأ من هـذه الأسـرة ومـن هـذه المسـيرة، وأنـه يـتحمّل كـل ثقـل المسـؤولية فـي المحافظـة علـى هـذا المـيراث مـن الضياع والانحراف، وفي المحافظة على الأمـة التـي جعلهـا الله تعـالى أمـة وسطاً شاهدة على سائر الأمم من السقوط والضـياع.. فـي ممـر ضـيق مـن ممـرات الـتاريخ، وفي وسط عاصفة سياسية كادت أن تذهب بكل شيء... لولا حادث الطف العظيم.

وهـذا إجمـال لابدّ لـه مـن تفصـيل وإيجـاز لابـدّ لـه من شرح وتبسيط وشواهد وإليك ذلك:

---

١ ـ الوثـائق الرسـمية لـثورة الإمـام الحسـين للسـيد عـبد الكـريم القزويـني: ٤٣، نقـلاً عـن مقـتل الحسين للسيد محسن الأمين: ٢٣.

بنو أميّة يستغلون ضعف الخليفة الثالث

استغل بنو أمية ضعف الخليفة الثالث في استعادة كل مواقعهم الاجتماعية والمالية والسياسية التي كانوا يتمتعون بها في الجاهلية والتي جرّدهم الإسلام عنها... فوجدوا في ميل الخليفة إلى أهله وذويه وحبه وإيثاره لهم، وفي ضعفه وكبر سنه فرصة ليستعيدوا ما فقدوا من مكانة وعزة وسلطان ومال في الإسلام، ووجدوا فيما منحهم الخليفة من ثقته المطلقة ومن السلطان والمال ما يكفي في استعادة عزّهم ونفوذهم وسلطانهم في المجتمع الجديد.

روى ابن عبد البر في الاستيعاب:

أن أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت الخلافة إليه، فقال: قد صارت إليك بعد تيم وعدي، فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية، فإنما هو الملك، ولا أدري ما جنة ولا نار.

فصاح به عثمان: قم عني فعل الله بك وفعل[1].

وقد مكّن الخليفة أهله وذويه من بني أمية وآل أبي معيط من بيت مال المسلمين، ومن أعمالهم وولاياتهم، واستطاع بنو أمية أن يتسلّقوا سلّم المال والسلطان إلى كل ما تشتهيه أنفسهم وتطمح إليه أهواؤهم.

يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين في كتابه القيّم «ثورة الحسين»:

«إن عثمان أسند إلى آله وذويه الولايات الكبرى في دولة الخلافة وهي البصرة والكوفة والشام ومصر. وهذه الولايات الأربع هي الولايات ذات

---

١ ـ الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، ط.١، ١٣٢٨ هـ المجلد ٤: ٨٧، ثم قال ابن عبد البر: وله أخبار من نحو هذا رديئة، ذكرها أهل الأخبار لم أذكرها، وفي بعضها ما يدل على أنه لم يكن إسلامه إسلاماً.

المنزلة العظيمة في الحرب والاقتصاد والاجتماع، فهي مركز الثروة المالية والزراعية لدولة الخلافة، منها تحمل الأموال والأقوات وهي مركز تجمع الجيوش الإسلامية الوافدة من شتى بقاع الدولة...

لقد ولّى عثمان على البصرة ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز، وعمره خمس وعشرون سنة، وولّى على الكوفة أخاه الوليد بن عقبة بن أبي معيط، ثم عزله تحت ضغط الرأي العام بعد أن ثبت عليه شرب الخمر والتهتّك وولّى مكانه سعيد بن العاص.

وكان معاوية عاملاً لعمر على دمشق والأردن، فضمّ إليه عثمان ولاية حمص وفلسطين والجزيرة، وبذلك مدّ له من أسباب سلطانه إلى أبعد مدى مستطاع، وولّى مصر أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح»[1].

(ولم يكن ولاة عثمان هؤلاء من ذوي السابقة في الدين والجهاد في الإسلام، وإنما كانوا متّهمين في دينهم، بل كان فيهم من أمره في الفسق ورقّة الدين معروف مشهور. كان فيهم عبد الله بن سعد الذي بالغ في إيذاء النبي والسخر منه وبالغ في الهزء بالقرآن حتى نزل القرآن بكفره، والوليد بن عقبة ممن أمرهم في الفسق معروف ومشهور، وقد نزل فيه قرآن يعلن فسقه)[2].

ولم يكن عثمان يؤثر فقط بني أمية وآل أبي معيط والطبقة المترفة من قريش بالسلطان والولاية، وإنما كان يؤثرهم بما أؤتمن من أموال بيت المال بكميات كبيرة خارجة عن مألوف الهبات والعطايا في تلك الأيام، مما أثار

---

١ ـ ثورة الحسين عليه السلام للشيخ محمد مهدي شمس الدين: ٤٠.

٢ ـ ثورة الحسين عليه السلام: ٤١ ـ ٤٢.

الكثير من سخط المسلمين واستنكارهم وغضبهم ومما أدى إلى ظهور طبقة مترفة في الوسط الإسلامي.

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة في خلافة عثمان بن عفان:

«بايعه الناس بعد انقضاء الشورى واستقر الأمر له وصحت فيه فراسة عمر، فإنه أوطأ لبني أمية رقاب الناس وولاّهم الولايات وأقطعهم القطائع، وافتتحت إفريقية في أيّامه، فأخذ الخمس كله فوهبه لمروان، وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صلة فأعطاه أربعمائة ألف درهم. وأعاد الحكم بن أبي العاص بعد أن كان رسول الله ﷺ قد سيّره ولم يرده أبو بكر ولا عمر وأعطاه مائة ألف درهم. وتصدّق رسول الله ﷺ بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهزور على المسلمين، فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم. وأقطع مروان (فدكاً) وقد كانت فاطمة ﷺ طلبتها بعد وفاة أبيها ﷺ عليه تارة بالميراث وتارة بالنحلة، فدُفِعَتْ عنها. وحمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم إلاّ عن بني أمية. وأعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقية بالمغرب، وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال، وقد كان زوّجه ابنته أُم أبان، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى، فقال عثمان: أتبكي أن وصلت رحمي؟ قال: لا، ولكن أبكي لأنّي أظنك إنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله ﷺ. والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً.

فقال: الق المفاتيح يا ابن أرقم فإنّا سنجد غيرك.

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة فقسّمها كلها في بني أمية وأنكح الحارث بن الحكم ابنته عائشة فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صرفه زيد بن أرقم عن خزنه»[١].

ومروان بن الحكم الذي استوزره الخليفة والذي كان يغدق له من العطاء قد صح عن رسول الله ﷺ لعنه[٢].

وأما أبوه الحكم فقد روى البلاذري: (أن الحكم بن أبي العاص كان جاراً لرسول الله ﷺ في الجاهلية، وكان أشد جيرانه أذىً له في الإسلام. فكان يمر خلف رسول الله فيغمز به ويحكيه ويخلج بأنفه وفمه، وإذا صلّى قام خلفه فأشار بأصابعه... واطّلع على رسول الله ذات يوم وهو في بعض حجر نسائه فعرضه، وخرج إليه بعنزه، وقال: من هذا الوزغ اللعين؟ ثم قال: لا يساكنني ولا ولده، فغربهم إلى الطائف.

فلما قبض رسول الله كلّم عثمان أبا بكر فيه وسأله ردّهم فأبى ذلك، وقال: ما كنت لآوي طُرداء رسول الله، ثم لما استخلف عمر كلّمه فيهم، فقال مثل قول أبي بكر، فلما استخلف عثمان أدخلهم المدينة، وقال: قد كنت كلمت رسول الله فيهم وسألته ردهم فوعدني أن يأذن لهم فقبض قبل ذلك، فأنكر المسلمون عليه إدخاله إياهم المدينة[٣].

وأما عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخو الخليفة بالرضاعة، والذي أعطاه

١ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٩٨ ـ ١٩٩. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

٢ ـ عن الحاكم في المستدرك ٤: ٤٩٧.

٣ ـ الغدير ٨: ٢٤٣ وعليّ ومناوئوه للدكتور نوري جعفر: ٩٥ نقلاً عن أنساب الأشراف للبلاذري ٥: ٢٧.

الخليفة خمس غنائم إفريقية، فقد أسلم قبل الفتح وهاجر ثم ارتدّ مشركاً، فلما كان يوم الفتح أهدر رسول الله ﷺ دمه فيمن أهدر من مجرمي قريش حتى لو وجد تحت أستار الكعبة، فتوسّط عثمان في أمره عند رسول الله ﷺ فقبل رسول الله ﷺ شفاعته بعد لأي وصمت[١].

وأعطى الخليفة لسعيد بن العاص بن أمية مائة ألف درهم. وقد كان أبوه العاص من أكثر الناس إيذاءً لرسول الله في مكة[٢].

وأعطى أخاه من أمّه الوليد بن عقبة بن أبي معيط ما استقرضه من عبد الله بن مسعود من بيت مال المسلمين في الكوفة.

وهذا غيض من فيض من عطايا الخليفة من بيت المال لذويه وأهل بيته من بني أمية وآل أبي معيط، ولا سبيل لإنكار ذلك أو التشكيك ـ فيما ذكره المؤرخون ـ من تبذير الخليفة في بيت المال وإيثاره أهله وذويه بأموال المسلمين.

يقول الدكتور طه حسين:

(ولسنا بحاجة إلى أن نناقش صحة ما جاءت به الرواية من أن عثمان أعطى مروان بن الحكم خمس الغنيمة التي غنمها المسلمون في إفريقية... ومن أنه أعطى الحكم عمّه وأعطى ابنه الحارث ثلاث مائة ألف وأعطى عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي ثلاث مائة ألف.

وأعطى كل واحد من الذين وفدوا مع عبد الله بن خالد مائة ألف.

وأعطى الزبير بن العوام ستمائة ألف.

---

١ ـ راجع الغدير ٨: ٢٨٠، نقلاً عن سنن أبي داود ٢: ٢٢٠، وأنساب الأشراف ٥: ٤٩، والمستدرك للحاكم ٣: ١٠٠، والاستيعاب ١: ٣٨١.

٢ ـ راجع الغدير ٨: ٢٦٩ـ٢٧٠.

وأعطى سعيد بن العاص مائة ألف وزوّج ثلاثاً أو أربعاً من بناته لنفر من قريش فأعطى كل واحد منهم مائة ألف دينار)[١].

ويطول الحديث بنا إذا أردنا أن نستقصي عطايا الخليفة وهباته لأهله وذويه من بني أمية وتمكينه لهم في البلاد.

فقد أتاح الخليفة لبني أمية فرصة العودة إلى الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمع الإسلامي من جديد، وجمع لهم بين المال والسلطان والنفوذ. وفي أيامه عادت هذه الطبقة إلى مواقعها الاجتماعية قبل الإسلام، وعادت إلى المجتمع الإسلامي الحياة الطبقية والترف والبذخ والإسراف الذي كان قد قضى عليه الإسلام، وما يستتبع الترف والبذخ في حياة الطبقة المترفة من بطر ورثاء وغرور وطيش وانشطار المجتمع إلى أقلية مترفة، وأكثرية محرومة ومستضعفة.

يقول المسعودي:

وفي أيام عثمان، اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور منهم: الزبير بن العوام، بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت - وهو سنة ٣٣٢ هـ -... وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلّف الزبير ألف فرس وألف عبد وأمة وخططاً بحيث ذكرنا من الأمصار.

وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت، والمعروفة بالكُناسة بدار الطلحيين وكان غلته من العراق كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك وبناحية الشراة أكثر

١ ـ الفتنة الكبرى: عثمان بن عفان، للدكتور طه حسين: ١٩٣.

مما ذكرنا، وشيّد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجس والساج.

وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري ابتنى داره ووسعها وكان على مربطه مائة فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً.

وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلّف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلّف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار، ومات يعلى بن منبه وخلّف خمسمائة ألف دينار وديوناً على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته ثلاثمائة ألف دينار.

وهذا باب يتّسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملّك من الأموال في أيامه (أي أيام عثمان)[1].

وجاءت هذه الطبقة المترفة من قريش إلى الحياة الإسلامية بالكثير من التصرفات والتصورات المجافية لروح الإسلام وأحكامه ونصوصه... والتي واجهتها الأمة أول الأمر بالإنكار والغضب وحتى الثورة، ثم لمّا امتدّ سلطان بني أمية تطبّع الناس عليها وفقدوا المناعة الإسلامية التي كانت تحميهم عنها من قبل.

ولقد كان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب يتنبأ بما سوف يحدثه بنو أمية من فساد في الدين إذا تولّوا أمور المسلمين.

يقول المغيرة بن شعبة: (قال لي عمر يوماً: يا مغيرة هل أبصرت بعينك العوراء منذ أصيبت؟ قلت: لا.

قال: أما والله ليعورنّ بنو أمية (هذا الدين) كما اعورّت عينك، ثم ليعمينّه

---

١ ـ مروج الذهب ٢: ٣٣٢ و٣٣٤، الطبعة التي وضع فهارسها يوسف أسعد داغر.

حتى لا يدري أين يذهب ولا أين يجيء)[١].

ويقول ابن أبي الحديد في شرح النهج فيما صنع الخليفة وما كان يقول وهو على فراش الموت:

(ثم أقبل على عثمان، فقال: هيًا إليك كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر، فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء)[٢].

يقول (ولهاوزن):

(والمأخذ الدائم الذي يؤخذ على الأمويين هو أنهم كانوا أصولاً وفروعاً أخطر أعداء للنبي ﷺ وأنهم اعتنقوا الإسلام في آخر ساعة مرغمين. ثم أفلحوا في أن يحوّلوا إلى أنفسهم ثمرة حكم الدين أولاً بضعف عثمان، ثم بحسن استخدام نتائج قتله)[٣].

ولسيد قطب في كتاب العدالة الاجتماعية كلام في تقييم خلافة عثمان بن عفان والآثار التي ترتّبت عليها في تاريخ الإسلام أود أن أنقله بطوله وتفصيله لما له من الأهمية في رسم معالم هذه الفترة من تاريخ الإسلام، وآثار ذلك لما بعد هذه الفترة من تاريخ الإسلام.

يقول سيد قطب في كتاب العدالة الاجتماعية في الإسلام:

لقد أدركت الخلافة عثمان وهو شيخ كبير، ومن ورائه مروان بن الحكم يصرّف الأمر بكثير من الانحراف عن الإسلام. كما أن طبيعة عثمان الرخيّة،

---

١ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ط. دار الكتب العربية بمصر، عن الموفقيات للزبير بن بكار.

٢ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ط. دار الكتب الكبرى بمصر ٣: ١٧٠.

٣ ـ ثورة الحسين للشيخ محمد مهدي شمس الدين نقلاً عن الدولة العربية لولهاوزن: ٥٣.

وحدبه الشديد على أهله قد ساهما كلاهما في صدور تصرفات أنكرها الكثيرون من الصحابة من حوله وكانت لها معقّبات كثيرة وآثار في الفتنة التي عانى الإسلام منها كثيراً.

منح عثمان من بيت المال زوج ابنته الحارث بن الحكم يوم عرسه مائتي ألف درهم، فلمّا أصبح الصباح جاءه زيد بن الأرقم خازن مال المسلمين، وقد بدا في وجهه الحزن وترقرقت في عينه الدموع، فسأله أن يعفيه من عمله، ولمّا علم منه السبب وعرف أنه عطيته لصهره من مال المسلمين، قال مستغرباً:

(أتبكي يا ابن أرقم أنْ وصلت رحمي؟) فرد الرجل الذي يستشعر روح الإسلام المرهف: (لا يا أمير المؤمنين. ولكن أبكي لأني أظنك أخذت هذا المال عوضاً عمّا كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله، والله لو أعطيته منه درهما لكان كثيراً) فغضب عثمان على الرجل الذي لا يطيق ضميره هذه التوسعة من مال المسلمين على أقارب خليفة المسلمين، وقال له: (ألق بالمفاتيح يا ابن أرقم، فإنّا سنجد غيرك)!!

والأمثلة كثيرة في سيرة عثمان على هذه التوسعات، فقد منح الزبير ذات يوم ستمائة ألف، ومنح طلحة مائتي ألف، ونفّل مروان بن الحكم خُمس خراج إفريقية ولقد عاتبه في ذلك ناس من الصحابة على رأسهم عليّ بن أبي طالب، فأجاب: (إنّ لي قرابة ورحماً) فأنكروا عليه وسألوه: (فما كان لأبي بكر وعمر قرابة ورحم؟) فقال: (إنّ أبا بكر وعمر كانا يحتسبان في منع قرابتهما، وأنا أحتسب في إعطاء قرابتي) فقاموا عنه غاضبين يقولون: (فهديهما والله أحب إلينا من هديك).. وغير المال كانت الولايات تغدق

على الولاة من قرابة عثمان وفيهم معاوية الذي وسّع عليه في الملك، فضمّ إليه فلسطين وحمص، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة، ومهّد له بعد ذلك أن يطلب الملك في خلافة عليّ، وقد جمع المال والأجناد. وفيهم الحكم بن العاص طريد رسول الله الذي آواه عثمان وجعل ابنه مروان بن الحكم وزيره المتصرّف، وفيهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخوه من الرضاعة... الخ.

(ولقد كان الصحابة يرون هذه التصرفات الخطيرة العواقب، فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ تقاليد الإسلام، وإنقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبرته لا يملك أمره من مروان)[1].

ثورة أبي ذر الغفاري

عندئذ ثار الروح الإسلامي في نفوس بعض المسلمين، يمثلهم أشدّهم حرارة وثورة أبو ذر ذلك الصحابي الجليل، الذي لم تجد هيئة الفتوى المصرية في الزمن الأخير إلا أن تخطّئه في اتّجاهه، وإلاّ أن تزعم لنفسها بصراً بالدين أكثر من بصره بدينه! ثم عادت ـ في مناسبة أخرى ـ فأصدرت فتوى بصواب اتجاهه، عندما تغيّرت الظروف الأولى كأن دين الله سلعة تتّجر بها الهيئة في سوق الرغبات.

قام أبو ذر ينكر على المترفين ترفهم الذي لا يعرفه الإسلام، وينكر على معاوية وأمية خاصة سياستهم التي تقر هذا الترف وتستزيد منه، وتتمرّغ فيه، وينكر على عثمان نفسه أن يهب من بيت المال المئات والألوف فيزيد في ثراء المثرين وترف المترفين.

علم أن عثمان أعطى مروان بن الحكم خمس خراج إفريقية والحارث

١ ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام لسيد قطب: ٢١٠ و ٢١١.

بن الحكم مائتي ألف درهم، وزيد بن ثابت مائة ألف درهم.. وما كان ضمير أبي ذر ليطيق شيئاً من هذا كله فانطلق يخطب في الناس:

(لقد حدثت أعمال ما أعرفها والله ما هي في كتاب الله ولا في سنّة نبيه، والله إني لأرى حقاً يُطفأ وباطلاً يُحيا، وصادقاً مكذّباً، وأثرة بغير تقى... يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، وبشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا يُنفقونها في سبيل الله بمكاوي من النار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم... يا كانز المال اعلم أن في المال ثلاثة شركاء: القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم، وأنت الثالث، إن استطعت أن تكون أعجز الثلاثة فلا تكن.. إن الله عز وجل يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1] اتخذتم ستور الحرير ونضائد الديباج، وتأملتم الاضطجاع على الصوف الأذربي وكان رسول الله ينام على الحصير، واختلف عليكم بألوان الطعام، وكان رسول الله لا يشبع من خبز الشعير).

وروى مالك بن عبد الله الزيادي عن أبي ذر: «أنه جاء يستأذن على عثمان بن عفان فأذن له وبيده عصاه. فقال عثمان: يا كعب، إن عبد الرحمن توفي وترك مالاً، فما ترى فيه؟ فقال: إن كان يصل فيه حق الله فلا بأس عليه. فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب لو أن لي هذا الجبل ذهباً أنفقه ويتقبّل مني، أذر خلفي منه ست أواق» أنشدك الله يا عثمان أسمعته (ثلاث مرات)، قال: نعم»، وما كانت مثل هذه الدعوة ليطيقها معاوية، ولا ليطيقها مروان بن الحكم، فما زالا به عند

---

١ ـ آل عمران: ٩٢.

عثمان يحرضانه عليه حتى كان مصيره إلى الربذة منفياً من الأرض في غير حرب لله ولرسوله وفي غير سعي في الأرض بالفساد. كما تقول شريعة الإسلام.

لقد كانت هذه الصيحة يقظة ضمير مسلم لم تخدّره الأطماع أمام تضخّم فاحش من الثروات، يفرّق الجماعة الإسلامية، ويحطّم الأسس التي جاء هذا الدين ليقيمها بين الناس وبحسبنا أن نعرض هنا نموذجاً للثروات الضخام[1].

(مضى عثمان إلى رحمة ربه، وقد خلّف الدولة الأموية قائمة بالفعل بفضل ما مكّن لها في الأرض وبخاصة في الشام وبفضل ما أمكن للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام، من إقامة الملك الوراثي والاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع، مما أحدث خلخلة في الروح الإسلامي العام. وليس بالقليل ما يشيع في نفس الرعية ـ إن حقاً وإن باطلاً ـ أن الخليفة يؤثر أهله ويمنحهم مئات الألوف، ويعزل أصحاب رسول الله، ليولّي أعداء رسول الله، ويبعد مثل أبي ذر لأنه أنكر كنز الأموال، وأنكر الترف الذي يخبّ فيه الأثرياء، ودعا إلى مثل ما كان يدعو إليه الرسولﷺ من الإنفاق والبر والتعفّف.. فإن النتيجة الطبيعية لشيوع مثل هذه الأفكار ـ إن حقاً وإن باطلاً ـ أن تثور نفوس، وأن تنحلّ نفوس. تثور نفوس الذين أُشربت نفوسهم روح الدين إنكاراً وتأثّماً، وتنحلّ نفوس الذين لبسوا الإسلام رداءً، ولم تخالط بشاشته قلوبهم، والذين تجرفهم مطامع الدنيا، ويرون الانحدار مع التيار. وهذا كله قد كان في أواخر عهد عثمان فلما أن جاء عليٌّ عليه السلام لم يكن من اليسير أن يردّ الأمر إلى نصابه في هوادة. وقد علم المنتفعون على عهد

١ ـ العدالة الاجتماعية لسيد قطب: ٢٣١ و ٢٣٣.

عثمان وبخاصة من أمية، أن علياً لن يسكت عليهم، فانحازوا بطبيعتهم وبمصالحهم إلى معاوية.

جاء علي ليرد التصوّر الإسلامي للحكم إلى نفوس الحكّام ونفوس الناس. جاء ليأكل الشعير تطحنه امرأته بيدها، ويختم هو على جراب الشعير، ويقول: (لا أحبّ أن يدخل بطني إلا ما أعلم). وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام، وكره أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة مؤثراً عليه الخصاص التي يسكنها الفقراء. جاء ليعيش كما روى عنه البصير بن منصور، عن عقبة بن علقمة، قال: دخلت على عليّ عليه السلام، فإذا بين يديه لبن حامض، آذتني حموضته، وكسر يابس فقلت: (يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا؟ فقال لي: يا أبا الجنوب كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا ـ وأشار إلى ثيابه ـ فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به).

أو كما روى عنه هارون بن عنترة عن أبيه قال: دخلت على عليّ بالخورنق، وهو في فصل شتاء، وعليه خلق قطيفة، وهو يرعد فيه فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً، وأنت تفعل هذا بنفسك؟ فقال: (والله ما أرزؤكم شيئاً، وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة)[1].

وسار علي عليه السلام في طريقه يردّ للحكم صورته كما صاغها النبي صلى الله عليه وآله وجد درعه عند رجل نصراني، فأقبل به إلى شريح قاضيه، يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه، وقال: إنّها درعي ولم أبع، ولم أهب. فسأل شريح

---

١ ـ العدالة الاجتماعية:٢١٣ ـ ٢١٤.

النصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين قال النصراني: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب! فالتفت شريح إلى عليّ يسأله يا أمير المؤمنين هل من بيّنة؟ فضحك عليّ وقال: أصاب شريح. ما لي بينة! فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى، و(أمير المؤمنين) ينظر إليه.. إلا أن النصراني لم يخطُ خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أنّ هذه أحكام الأنبياء.. أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضي عليه! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين. أتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين، فخرجت من بعيرك الأورق.

فقال عليّ: (أما إذا أسلمت فهي لك).

ولقد كان منهاجه الذي شرّعه هو ما قاله في خطبته عقب البيعة له:

«أيّها الناس: إنما أنا رجل منكم، وعليَّ ما عليكم، وإني حاملكم على منهج نبيكم ومنفّذ فيكم ما أُمرت به، ألا إنّ كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود إلى بيت المال. فإن الحق لا يبطله شيء. ولو وجدته قد تزوج به النساء، وملّك به الإماء وفرّق في البلدان لرددته. فإنّ في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق.

أيها الناس: ألا لا يقولن رجال منكم غداً ـ قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيل، واتّخذوا الوصائف المرقّقة ـ إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، واصرتهم في حقوقهم حتى يعلمون: (حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا).

ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن

الفضل له على سواه بصحبته فإن الفضل غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله.

ألا وأيّما رجل استجاب لله ورسوله، فصدّق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء».

ولقد كان من الطبيعي ألا يرضى المستنفعون عن علي، وألاّ يقنع بشرعة المساواة من اعتاد التفضيل، ومن مردوا على الاستئثار، فانحاز هؤلاء في النهاية إلى المعسكر الآخر: معسكر أمية، حيث يجدون فيه تحقيقاً لأطماعهم على حساب العدل والحق اللذين يصر عليهما عليّ عليه السلام هذا الإصرار.

والذين يرون في معاوية دهاءً وبراعةً لا يرونها في عليّ، ويعزون إليها غَلَبَة معاوية في النهاية، إنما يُخطئون تقدير الظروف، كما يُخطئون فهم عليّ وواجبه. لقد كان واجب عليّ الأول والأخير، أن يردّ للتقاليد الإسلامية قوّتها، وأن يردّ إلى الدين روحه، وان يجلوا الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدي بني أمية على كبر عثمان. ولو جارى وسائل بني أمية في المعركة لبطلت مهمته الحقيقية، ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمه في حياة الدين.

إنّ عليّاً إما أن يكون عليّاً أو فلتذهب الخلافة عنه، بل فلتذهب حياته معها. وهذا هو المفهوم الصحيح الذي يعبّر عنه عليه السلام وهو يقول فيما روي عنه إنْ صحت الرواية: (والله ما معاوية بأدهى مني ولكنّه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس)[1].

---

١ ـ العدالة الاجتماعية: ٢١٥ ـ ٢١٨.

ومضى عليّ إلى رحمة ربه وجاء بنو أمية.

فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته، تقف حاجزاً أمام أمية، فإنّ هذا الحاجز قد انهار، وانفتح الطريق للانحراف.

لقد اتّسعت رقعة الإسلام فيما بعد، ولكنّ روحه انحسرت بلا جدال، ولولا القوة الكامنة في طبيعة هذا الدين، وفيض عارم في طاقته الروحية، لكانت أيام أمية كفيلة بتغيير مجراه الأصيل، ولكن روحه ظلّت تقاوم وتغالب، وما تزال فيها الطاقة الكامنة للغلب والانتصار. غير أنه منذ أمية انساحت حدود بيت مال المسلمين، فصار نهباً مباحاً للملوك والحاشية والمتملّقين، وتخلخلت قواعد العدل الإسلامي الصارم، فأصبح للطبقة الحاكمة امتيازات ولأذيالها منافع ولحاشيتها رسوم، وانقلبت الخلافة ملكاً عضوضاً، كما قال عنه رسول الله ﷺ.

وعندما نسمع عن الهبات للمتملقين والملهّين والمطربين، فيهب أحد ملوك أمية اثني عشر ألف دينار لمعبد، ويهب هارون الرشيد ـ من ملوك العباسيين مثلاً ـ إسماعيل بن جامع المغني في صوت واحد أربعة آلاف دينار، ومنزلاً نفيس الأثاث والرياش... وتنطلق الموجة في طريقها لا تقف إلا فترة بين الحين والحين.

الإمام علي في مواجهة صعبة مع بني أميّة

ومهما يكن من أمر فقد ترك عثمان بن عفان من ورائه تركة ثقيلة كان على الإمام أمير المؤمنين أن يصفّي هذه التركة عندما تولّى الأمر من بعده، وأن يعيد المياه إلى مجاريها، ويعيد إلى المسلمين ما وهبه الخليفة الثالث لذويه من مال وسلطان ونفوذ، وأن يأخذ الناس على النهج الذي وضعه لهم

رسول الله ﷺ، وكانت مهمّة الإمام هذه مهمة شاقة عسيرة... تصطدم أولاً بمصالح الطبقة التي انتفعت من هذه الفترة بالمال والسلطان، وتصطدم بولاية معاوية في الشام ثانياً.

ومهما كان من أمر فقد قرر الإمام أن يواجه هذه الطبقة بقوة، وينتزع منها كل ما أعطاهم الخليفة الثالث من نفوذ ومال وسلطان بغير حق، ويواجه كل ما استخدمته هذه الطبقة من بدعة في الإسلام بعنف.

اقرأوا كتابه عليه السلام إلى أهل مصر:

(ولكن آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجّارها، فيتّخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً فإن منهم الذي قد شَرِبَ فيكم الحرام، وجُلِدَ حدّاً في الإسلام، وأنّ منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ، فلولا ذلك ما أكثرت تأليبكم وتأنيبكم وجمعكم وتحريضكم)[1].

وقال عليه السلام عندما أقبل عليه الناس للبيعة: (دعوني والتمسوا غيري فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وأن الآفاق قد أغامت، والمحجة قد تنكّرت. واعلموا أنّي إنْ أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم)[2].

ويقول عليه السلام فيما استرجعه من قطائع عثمان: (والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته، فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل

١ ـ نهج البلاغة كتاب رقم ٦٢ ص ٤٥٢، فهارس د. صبحي الصالح.

٢ ـ نهج البلاغة بفهارس د. صبحي الصالح: ١٣٦.

فالجور عليه أضيق)[١].

وقرر الإمام أمير المؤمنين أن يسير في الخط الذي رسم معالمه للمسلمين في الأيام الأولى من قيامه بأمر الحكم وقبوله لبيعة المسلمين ولا يرضخ للضغوط التي كانت تمارسها على حكمه الطبقة المنتفعة من أيام عثمان بن عفان.

ومضى الإمام على طريقته التي يؤمن بها غير عابئ بما يقول عنه الناس، وما يفعله المتآمرون على سلطانه وحكمه، وقد دفع ضريبة سياسته هذه في ثلاثة حروب طاحنة ومتعاقبة استوعبت كل الفترة التي حكم فيها.

الإمام الحسن على خط المواجهة

وجاء من بعده ابنه الحسن الزكي سبط رسول الله ﷺ، وهو يريد أن يستمر على طريقة والده في تنفيذ خط الإسلام الأصيل وإسقاط معاوية والزمرة الطارئة على هذا الدين من بني أمية، ولكن تخاذل قادة جنده وإغراءات معاوية لهم، وأساليبه الملتوية الماكرة، واستعداد حكام الروم الشرقية للغارة على بلاد الشام والاستفادة من فرصة الحروب الداخلية لإرجاع الشام إلى سلطان الكنيسة الشرقية... كل ذلك كان من العوامل التي دعت الإمام الحسن عليه السلام إلى إعلان الهدنة مع معاوية ليحفظ البقية من شيعته بعد التخاذل الذي حدث في قادة جنده، وانفرد معاوية بالحكم وانزاح القناع مرةً واحدة عن وجهه وانكشف على حقيقته وأسفر عن وجهه.

يقول المدائني: خطب معاوية في الكوفة بعد الصلح فقال: (يا أهل الكوفة، أترونى قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج؟ وقد علمت أنكم

١ ـ نهج البلاغة بفهارس د. صبحي الصالح: ٥٧.

تصلّون وتزكّون وتحجّون، ولكني قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم. وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون. ألا إن كل دم أصيب في هذه الفتنة مطلول، وكل شرط شرطته تحت قدميّ هاتين)[١].

وقال: (وإن كل شيء أعطيت الحسن بن عليّ تحت قدميّ هاتين لا أفي به).

قال أبو إسحاق وكان والله غدّاراً[٢].

١ ـ صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين: ٢٨٥ نقلاً عن شرح نهج البلاغة ٤: ١٦.

٢ ـ المصدر السابق.

الفصل الثالث

صفحات من تاريخ بني أمية

(النزعة الإلحادية)

دولة بني أمية في التاريخ الإسلامي

وهكذا انفتحت صفحة جديدة في تاريخ الإسلام لدولة بني أمية، استعاد فيها بنو أمية أمجادهم الجاهلية أولاً، واستعادوا فيها الكثير من الأعراف والقيم والأساليب الجاهلية في الحكم والمال والمجتمع.

وقد كان لذلك كله انعكاس سلبي سيء على المجتمع الإسلامي.

وكان من شأن هذه الردّة الجاهلية أن تنعكس على الإسلام أكثر وأقوى من انعكاسها على المجتمع الإسلامي.. لولا ثورة الإمام الحسين عليه السلام فقد كان التأثير المباشر الأول للثورة ـ كما سنرى إن شاء الله ـ هو تجريد بني أمية من شرعية الولاية والحكم وبذلك لم يتمكن بنو أمية بصفتهم حكّاماً وخلفاء على المسلمين من تسريب الانحرافات التي كانوا يمارسونها أيّام سلطانهم ونفوذهم إلى الإسلام نفسه.

ولكن بقيت هذه الفترة من التاريخ الإسلامي مصدر كثير من المآسي في حياة المسلمين في النظام والحكم والحياة والأخلاق والأعراف، واتّصلت هذه الجاهلية بالعصر العباسي وما بعد ذلك من عصور التاريخ الإسلامي في الكثير من جوانب حياة المسلمين.

وفيما يلي نستعرض جوانب من هذه الردّة الجاهلية التي تمّت على يد الحكام من بني أمية وأطرافاً من السياسة الأموية وطريقتهم في الحكم

والأساليب التي اتخذها حكام بني أمية في تحريف الإسلام والمجتمع الإسلامي واستعادة الحياة الجاهلية من جديد إلى صلب المجتمع الإسلامي قبل وبعد ثورة الحسين عليه السلام.

النزعة الإلحادية عند بني أمية

النزعة الإلحادية نزعة قديمة وعريقة في بني أمية، لم يستأصلها الإسلام من نفوسهم، وهذه النزعة تختفي حيناً في حياة بني أمية وتبرز حيناً آخر، وتظهر بين حين وحين على فَلَتات ألسنتهم.

ومعاوية ليس هو الأول ولا الأخير من هذه الأسرة في هذه النزعة الخبيثة. ورغم أن أجهزة إعلام الخلافة كانت تُضفي على أعضاء هذه الأسرة الكثير من الهيبة والقدسية وتخفي الكثير من سقطاتهم وفلتات ألسنتهم... فإن التاريخ يحصي لنا الكثير من الشواهد على رسوخ وعمق هذه النزعة في نفوس بني أمية.

النزعة الإلحادية عند أبي سفيان:

ولنبدأ بقصة الإلحاد من أبي سفيان سلف هذه الأسرة بعد أن أعلن الإسلام وانخرط في صفوف المسلمين.

روى ابن عبد البر في الاستيعاب:

(أن أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت الخلافة إليه فقال: قد صارت إليك بعد تيم وعَدي فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية، فإنّما هو الملك، ولا أدري ما جنة ولا نار. فصاح به عثمان: قم عنّي فعل الله بك وفعل)[1].

---

١ ـ الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، ط.١ سنة ١٣٢٨ هـ

وروى أبـو الفـرج فـي الأغانـي قـال: لَمّـا ولـي عـثمان الخلافـة دخـل علـيه أبـو سـفيان فقـال: يـا معشـر بنـي أمـية إنّ الخلافـة صـارت فـي تـيم وعَـدي حـتى طمعـت فـيها، وقـد صـارت إلـيكم فـتلقّفوها بيـنكم تلقّـف الكـرة فـوالله مـا مـن جـنة ولا نـار ـ هـذا أو نحـوه ـ فصـاح بـه عـثمان: قـم عنّي فعل الله بك وفعل.

قال أبو الفرج: ولأبي سفيان أخبار من هذا الجنس يطول ذكرها.[١]

وروى أبـو الفـرج: دخل أبو سفيان على عثمان بعد أن كفّ بصره، فقال: هـل علينا من عين؟ قال: لا. فقال: يا عثمان إن الأمر أمر عالية، والملك ملك جاهلية، فاجعل أوتاد الأرض بني أمية[٢].

وفـي تهذيـب ابـن عساكر[٣] عن أنس (أن أبا سفيان دخل على عثمان بعد ما عمـي، فقـال: هـل هاهـنا أحـد؟ فقـالوا: لا. فقـال: اللهـم اجعـل الأمر أمر جاهلية والملك ملك غاصبية، واجعل أوتاد الأرض لبني أمية).

ومـرّ أبـو سـفيان بقـبر حمـزة (وضـربه بـرجله وقال: يا أبا عمارة إنّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس صار في يد غلماننا يتلعّبون به)[٤].

ويـروي أبـو الفرج الأصفهاني عن عبد الله بن الزبير أنه قال: لما كان يوم اليرموك خلّفني أبي، فأخذت فرساً لـه، وخرجت فرأيت جماعة من الخلفاء

المجلد ٤: ٨٧ ثـم قـال ابـن عبـد البـر: ولـه أخبـار مـن نحـو هـذا رديئة ذكرها أهل الأخبار، لم أذكرها، وفي بعضها ما يدل على أنه لم يكن إسلامه إسلاماً.

١ ـ الأغاني ٦: ٣٥٦ ط. دار الكتب.

٢ ـ الأغاني ٦: ٢٥٥، نقلاً عن أحاديث أم المؤمنين للسيد مرتضى العسكري ٣٠٧، ط. دار الزهراء.

٣ ـ تهذيب ابن عساكر ٦: ٤٠٧ نقلاً عن أحاديث أم المؤمنين.

٤ ـ شرح النهج ٤: ٥١، ط.١ بمصر نقلاً عن أحاديث أم المؤمنين.

فيهم أبو سفيان بن حرب. فوقفت معهم، فكانت الروم إذا هزمت المسلمين قال أبو سفيان: إيه بني الأصفر، فإذا كشفهم المسلمون قال أبو سفيان:

وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم ولم يبق منهم مذكور، فلما فتح الله على المسلمين حدّثت أبي، فقال: قاتله الله يأبى إلاّ نفاقاً. ثم كان يأخذ بيدي فيطوف على أصحاب رسول الله ﷺ يقول: حدّثهم فأحدّثهم، فيعجبون من نفاقه[1].

النزعة الإلحادية عند مروان بن الحكم:

وعن مروان بن الحكم، وهو رأس الجناح الآخر من بني أمية: (الأعياص)[2] يقول ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه على نهج البلاغة نقلاً عن شيخه أبي جعفر:

(كان مجاهراً بالإلحاد هو وأبوه الحكم بن أبي العاص، وهما الطريدان اللعينان.

كان أبوه عدو رسول الله ﷺ يحكيه في مشيه، ويغمز عليه، ويدلع[3] له لسانه يتهكّم به ويتهافت عليه. هذا وهو في قبضته وتحت يده وفي دار دعوته بالمدينة، وهو يعلم أنه قادر على قتله أيَ وقت شاء من ليل أو نهار.

فهل يكون هذا إلا من شانئ شديد البغضة ومستحكم العداوة حتى أفضى أمره إلى أن طرده رسول الله ﷺ من المدينة وسيّره إلى الطائف.

---

١ ـ الأغاني ٦: ٢٥٤ و ٢٥٥ دار الكتب.

٢ ـ ينشطر بنو أمية إلى شطرين: العنابس والأعياص، أما العنابس فرؤوسهم حرب وأبو سفيان ومعاوية ويزيد. وأما الأعياص فأبرز شخصياتهم الحكم وابنه مروان وعبد الملك وأبناء عبد الملك وأحفاده.

٣ ـ يدلع لسانه: يخرجه.

وأما مروان ابنه فأخبث عقيدة، وأعظم إلحاداً وكفراً...

كتب إليه عبيد الله بن زياد يبشّره بقتل الحسين عليه السلام فقرأ كتابه على المنبر، وأومأ إلى القبر قائلاً: يوم بيوم بدر. فأنكر عليه قوله قوم من الأنصار. ذكر ذلك أبو عبيدة في كتاب المثالب)[1].

النزعة الإلحادية عند معاوية:

ومعاوية بن أبي سفيان لا يختلف عن أبيه أبي سفيان وعن مروان كثيراً في رسوخ واستقرار هذه النزعة في نفسه وإن كان حريصاً على التكتّم بها ومغالبتها ما وسعه التغلّب عليها، إلا أنها كانت تغلبه أحياناً في مجالسه الخاصة وتظهر على فَلَتات لسانه، ينقل لنا التاريخ جزءاً يسيراً منها:

روى الزبير بن بكار في (الموفقيّات) عن المطرف بن المغيرة بن شعبة قال: دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه فيتحدث معه ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه... إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء ورأيته مغتماً فانتظرته ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فينا. فقلت: ما لي أراك مغتمّاً منذ الليلة؟.

فقال: يا بنيّ من أكفر الناس وأخبثهم؟

قلت: وما ذاك؟

قال: قلت له وقد خلوت به إنّك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً، فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإنّ ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه.

---

١ ـ شرح النهج ٤: ٧١ و ٧٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

فقال: هيهات هيهات. أيّ ذكر أرجو بقاءه ملك أخو تيم فعدل، وفعل ما فعل، فما عد أن هلك حتى هلك ذكره إلاّ أن يقول قائل: أبو بكر.

ثم ملك أخو عَدي فاجتهد وشمّر عشر سنين فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا أن يقول قائل: عمر.. وإن ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرات (أشهد أنّ محمداً رسول الله) فأي عمل يبقى؟ وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أباً لك، لا والله إلاّ دفناً دفناً)[١].

وأذّن المؤذن يوماً فشهد بالرسالة فقال معاوية: (لله أبوك يا ابن عبد الله، لقد كنت عالي الهمّة ما رضيت لنفسك إلا أن تقرن اسمك مع اسم رب العالمين)[٢].

وقال ابن أبي الحديد: ومعاوية مطعون في دينه، منسوب إلى الإلحاد قد طعن فيه صلى الله عليه وآله، وروى فيه شيخنا أبو عبد الله البصري في كتاب (نقض السفيانية) على الجاحظ وروى عنه أخباراً كثيرة تدل على ذلك وقد ذكرناها في كتابنا (مناقضة السفيانية)[٣].

النزعة الإلحادية عند يزيد بن معاوية:

وأمّا يزيد بن معاوية لعنه الله فأمره أوضح وأفضح من أن يذكر، وقد كانت هذه النزعة الخبيثة من السمات البارزة في شخصيته، وكانت تنفلت على لسانه أحياناً، وتطفح على مواقفه وأحاديثه، وبشكل خاص شعره الذي يكاد يفضحه بين حين وآخر، رغم الموقع الحساس الذي كان يحتله. ولعل

---

١ ـ مروج الذهب للمسعودي ٣: ٤٥٤ بفهارس يوسف أسعد داغر. وشرح النهج لابن أبي الحديد ٥: ١٢٩ و ١٣٠ الطبعة الثانية بمصر بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. والموفقيات للزبير بن بكار: ٥٧٥ و ٥٧٦. ومقدمة مرآة العقول للسيد مرتضى العسكري ٢: ١٣٢ ـ ١٣٣.

٢ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١٠١ تحقيق محمد أبو الفضل.

٣ ـ المصدر السابق.

بروز هذه النزعة على فلتات لسانه هي من آثار حالة النزق والطيش التي كانت لا تفارق شخصية يزيد.

وهذه الفَلتات مهما كانت طافحة على شعره وحديثه فلن تكون أصرح من مواقفه وأعماله، فإن الجرائم الكبيرة التي ارتكبها يزيد من غير تأثّم ولا تحرّج كقتال ابن بنت رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه وإباحة المدينة المنورة لجند الشام، تكشف عن عمق هذه النزعة في نفسه، وأنا أعجب من بعض العلماء كابن العربي والغزالي الذين يشكّون في جواز لعن يزيد!

ومن أفظع المواقف التي تكشف عن عمق ورسوخ هذه النزعة الإلحادية الخبيثة في نفس يزيد نكثه بالخيزران على الرأس الشريف، رأس ابن بنت رسول الله ﷺ عندما أُحضر مجلسه وهو على منظرة بجيرون، ومجلسه يومذاك حاشد بوجوه الشام الذين جاؤوا ليشهدوا انتصارات الخليفة!!

قال أخطب خوارزم (٥٦٨ هـ) في المقتل:

ثم كشف عن ثنايا رأس الحسين بقضيبه ونكثه فأنشد:

أبوا قومنا أن ينصفونا فأنصفت قواضب في إيماننا تقطر الدما
صبرنا وكان الصبر منا عزيمة وأسيافنا يقطعن كفّاً ومعصما
نفلّق هاماً من أناس أعزة علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما[١]

١ ـ الأبيات للحصين بن الحمام تمثل بها يزيد لعنه الله. نقل ذلك أخطب خوارزم في المقتل ٢: ٥٨، ط. النجف بتحقيق الشيخ محمد السماوي، والبلاذري في الأنساب في قسم تأريخ الحسين عليه السلام بتحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، ط. دار التعارف: ٢١٣، وابن صبّاغ المالكي (٨٥٥ هـ) منشورات دار الكتب التجارية في النجف: ٤: ١٩، وسبط ابن الجوزي (٦٥٤ هـ) في التذكرة، ط. مؤسسة أهل البيت، بيروت: ٢٣٤.وقال اليافعي (٧٦٨ هـ) في مرآة الجنان ١: ١٣٥، ط. دائرة

فقال له بعض جلسائه: ارفع قضيبك فو الله ما أحصي ما رأيت شفتي محمد ﷺ في مكان قضيبك يقبّله.

فأنشد يزيد:

يا غراب البين ما شئت فقُل ... إنما تندب أمراً قد فُعل
كل ملك ونعيم زائل ... وبنات الدهر يلعبن بكُل
ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ... ثم قالوا يا يزيد لا تُشل
لست من خندف إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل
لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل
قد أخذنا من عليّ ثارنا ... وقتلنا الفارس الليث البطل
وقتلنا القرم من ساداتهم ... وعدلناه ببدرٍ فاعتدل[1]

المعارف النظامية بحيدر آباد دكن سنة ١٣٣٧ هـ: ثم وضع الرأس المكرّم بين يدي يزيد فأمر أن يُجعل في طست من ذهب وجعل ينظر إليه ويقول مفتخراً:

صبرنا وكان الصبر منا عزيمةً ... وأسيافنا يقطعن كفّاً ومعصما
يفلّقن هاماً من رجال أعزةٍ ... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

١ ـ مقتل الحسين لأخطب خوارزم (٥٦٨ هـ): ط. النجف بتحقيق الشيخ محمد السماوي ٢: ٥٨ ـ ٥٩ ونقل أخطب خوارزم بعد نقل الأبيات كلام شيخ السنة احمد بن الحسين (فإن كان قاله ـ أي يزيد قال الشعر ـ فقد ضم إلى فعل الفجار في قتل الحسين وأهل بيته وأقوال الكفار والله يعصمنا من الزلل).

نقل ابن أعثم الكوفي (٣١٤ هـ) في الفتوح ٥: ٢٤١ ـ ٢٤٢، ط.١ دار المعارف العثمانية بحيدر آباد دكن، بعض هذه الأبيات باختلاف يسير.

وفي تذكرة سبط ابن الجوزي: ٢٣٥، ط. مؤسسة أهل البيت ـ بيروت: وجعل ينكث عليه بالخيزران ويقول أبيات ابن الزبعرى:

ليت أشياخي ببدر شهدوا وقعة الخزرج من وقع الأسل
قد قتلنا القرن من ساداتهم وعدلنا قتل بدر فاعتدل

ثم قال: قال الشعبي وزاد فيها يزيد فقال:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحيٌ نزل
لست من خندف إنْ لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل

وقال أخطب خوارزم (٥٦٨ هـ) في المقتل ٢: ٥٨ ـ ٥٩ (تحقيق الشيخ محمد السماوي) قال الحاكم: الأبيات التي أنشأها يزيد بن معاوية هي لعبد الله بن الزبعرى أنشأها يوم أحد لما استشهد حمزة عم النبي وجماعة من المسلمين وهي قصيدة طويلة منها:

يا غراب البين ما شئت فقل إنما تندب أمراً قد فُعل
إنّ للخير وللشر مدًى وكلا ذلك وجهٌ وقُبل

أقول: روى القصيدة ابن اسحق من السيرة وهي ستة عشر بيتاً. ثم روى الشعر الذي أنشده حسّان بن ثابت الأنصاري في الجواب عليه:(السيرة النبوية لابن هشام ٣: ١٤٣ ـ ١٤٤ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر).

وروى أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني من الشعر في هذا المجال (مقاتل الطالبيين: ٨٠ الطبعة الحيدرية النجف ١٣٨٥ هـ).

الفصل الرابع

الخلاعة والاستهتار والمجون في قصور بني أمية

الخلاعة والاستهتار والمجون

لعل الخلاعة والمجون يعتبر من أبرز سمات بني أمية وقد دخل الغناء والطرب والشرب والسكر والاستهتار على أيدي بني أمية إلى الإسلام من باب واسع وزاول الحكّام من بني أمية ألواناً مختلفة من اللهو والمجون والخلاعة على مرْأى من المسلمين ومسمع وبصورة مكشوفة وعارية، وأدخلوا الفساد إلى قصر الخلافة بأبشع صوره وأشكاله.

الشرب والسكر في قصور معاوية:

كان الشرب والسكر أمراً شائعاً في قصور الخلفاء من بني أمية، وكان معاوية يمارس هذا المنكر في خَفاء، فلمّا تولّى يزيد ابنه أمر الخلافة أعلن هذا المنكر إعلاناً، وجرى من بعده خلفاء بني أمية على طريقته إلاّ ما كان من أمر عمر بن عبد العزيز.

وكان معاوية أول خليفة يدخل الخمر في قصره.

أخرج ابن عساكر في تاريخه قال: مرّ على عبادة بن الصامت ـ وهو في الشام ـ قطار تحمل الخمر، فقال: ما هذه، أزيت؟ قيل: لا بل خمر تباع فلان!؟

فأخذ شفرة من السوق فقام إليها فلم يذر فيها راوية إلا بقرها. وأبو هريرة إذ ذاك بالشام فأرسل فلان إلى أبي هريرة يقول له: أما تمسك عنا

أخاك عبادة. أما بالغدوات فيغدو إلى السوق فيفسد على أهل الذمة متاجرهم، وأما بالعشيّ فيقعد في المسجد ليس له عمل إلا شتم أعراضنا أو عيبنا، فأمسك عنّا أخاك، فأقبل أبو هريرة يمشي حتى دخل على عبادة فقال له: يا عبادة مالك ولمعاوية[١] ذره وما حمل فإن الله يقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾[٢].

فقد كان الشرب والسكر والطرب واللهو سنّة جارية في قصور الخلفاء، يرثها الخلف عن السلف. وكان الناس يتحدّثون بما يجري في قصور الخلفاء.

يقول الجاحظ:

وكان يزيد لا يمسي إلا سكراناً ولا يصبح إلا مخموراً، وكان عبد الملك بن مروان يسكر في كل شهر مرة حتى لا يعقل في السماء هو أو في الماء، وكان الوليد بن عبد الملك يشرب يوماً ويدع يوماً، وكان سليمان بن عبد الملك يشرب في كل ثلاث ليال ليلة، وكان هشام يشرب في كل جمعة وكان يزيد بن الوليد والوليد بن يزيد يدمنان اللهو والشراب، فأما يزيد بن الوليد فكان دهره بين حالتي سكر وخمار، ولا يوجد أبداً إلا ومعه إحدى هاتين، وكان مروان بن محمد يشرب ليلة الثلاثاء وليلة السبت[٣].

---

١ ـ لا نعلم كيف انفلتت كلمة معاوية من قلم ابن عساكر أو خلف الذي حدثه. وقد كان من قبل يحاول أن يتكلّم عليه بكلمة (فلان).

٢ ـ إلى آخر الحديث نقله في الغدير ١٠: ١٧٩ ـ ١٨٠ عن تأريخ ابن عساكر ٧: ٢١١ وانظر أيضاً في علاقة معاوية بالخمر. الإصابة لابن حجر ٢: ٤٠١ وتهذيب التهذيب ٦: ١٩٢ نقلاً عن الغدير ١٠: ١٨١، والآية في سورة البقرة: ١٣٤ و ١٤١.

٣ ـ التاج في أخلاق الملوك: ١٥١.

الشرب والاستهتار في حياة يزيد بن معاوية:

وقد خرجت ظاهرة الشرب والسكر عند الخلفاء في عهد يزيد بن معاوية من طور الكتمان إلى طور الإعلان والإجهار، وكان يزيد بن معاوية أول خليفة يعلن اقتراف هذا المنكر إعلاناً، ويتحدى به مشاعر المسلمين.

النشأة النصرانية ليزيد بن معاوية:

وكانت نشأته النصرانية تدفعه إلى ذلك، فقد نشأ يزيد عند أخواله من بني كلاب في البادية. وكانت هذه القبيلة في الجاهلية مسيحية، ولم تتخلّص عن الأعراف المسيحية بشكل كامل، وقد أمضى يزيد فترة الصبا والمراهقة من حياته في البادية، وأرسل لنفسه العنان في فتيانها في مجونهم وسكرهم ولعبهم بالكلاب[١].

يقول العلائلي:

(إذا كان يقيناً أو يشبه اليقين أن تربية يزيد لم تكن إسلامية خالصة، أو بعبارة أخرى كانت مسيحية خالصة، فلم يبق ما يستغرب معه أن يكون مستهتراً مستخفاً، بما عليه الجماعة الإسلامية، لا يحسب لتقاليدها واعتقاداتها أيّ حساب، ولا يقيم لها وزناً، بل الذي نستغرب أنْ يكون على غير ذلك)[٢].

ولم تكن هذه الظروف المسيحية لترافق يزيد فقط في نشأته وإنما نلاحظ أنّ هذه الظروف بقيت تواكب حياة يزيد حتى بعد أن كَبُر وأصبح

---

١ ـ انظر حياة الإمام الحسين عليه السلام للقرشي ٢: ١٨٠. وثورة الحسين لشمس الدين: ١٦٦، وقد اعتمد الأخير مجموعة من المصادر في هذه الناحية منها: تأريخ العرب لفيليب حتّي ٢: ٢٥٨ وسموّ المعنى في سموّ الذات لعبد الله العلائلي: ٥٩ ـ ٦١ والدولة العربية لولهاوزن: ١٣٧.

٢ ـ سمو المعنى في سمو الذات لعبد الله العلائلي ص ٥٩ عن حياة الإمام الحسين عليه السلام للقرشي.

له حاشية وندماء وبعد أنْ مات أبوه وأصبح خليفةً للمسلمين مكان معاوية أبيه.

يقول أبو الفرج في الأغاني:

كان يزيد بن معاوية أول من سنّ الملاهي في الإسلام من الخلفاء وآوى المغنّين وأظهر الفتك وشرب الخمر، وكان ينادم عليها سرجون النصراني مولاه والأخطل[1].

وكان الأخطل ـ الشاعر المسيحي المعروف بالخلاعة ـ من ندماء يزيد الخاصّين والأثيرين عنده لا يكاد يفارقه في سفر أو حضر، فكانا يشربان ويسمعان الغناء وإذا أراد السفر صحبه معه. ولما هلك يزيد وآل أمر الخلافة إلى عبد الملك بن مروان قرّبه، فكان يدخل عليه بغير استئذان، وعليه جبّة خز وفي عنقه سلسلة من ذهب والخمر يقطر من لحيته[2].

وللأخطل ـ شاعر يزيد ونديمه ـ هذا قصة معروفة في هجاء الأنصار واحتمائه بيزيد نذكرها في موضعه إن شاء الله.

إعلان يزيد لشرب الخمر:

ومهما يكن من أمر فقد كان يزيد بن معاوية أول خليفة يمارس المنكرات ممارسة علنية، ولا يتكتّم في شربه وسكره ومجالس لهوه وطربه، وقد نصحه والده معاوية لما أراد أن يعهد إليه أمر خلافة المسلمين بأن يتكتم في شربه وخلاعته وأن يتستر بالليل ولا يجهر للناس بالمنكرات اجهاراً.

---

١ ـ الأغاني ١٧: ٣٠٠ ـ ٣٠١.

٢ ـ حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢: ١٨٤ ـ ١٨٥ نقلاً عن الأغاني ٧: ١٧٠ والبداية والنهاية لابن كثير ٨: ٢٢٨

يقول ابن كثير:

كان يزيد صاحب شراب فأحب معاوية أن يعظه في رفق، فقال: يا بنيّ ما أقدرك على أن تصل حاجتك من غير تهتّك يذهب بمروءتك وقدرك، ويشمت بك عدوك ويسيء بك صديقك، ثم قال يا بنيّ إني منشدك أبياتاً فتأدّب بها واحفظها فأنشده:

انصب نهارك في طلاب العلا | واصبر على هجر الحبيب القريب
حتى إذا الليل أتى بالدجى | واكتملت بالغمض عين الرقيب
فباشر الليل بما تشتهي | فإنما الليل نهار الأريب
كم فاسق تحسبه ناسكاً | قد باشر الليل بأمر عجيب
غطّى عليه الليل أستاره | فبات في أمن وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة | يسعى بها كل عدوّ مريب[1]

وأرسل معاوية ابنه يزيد إلى الحج ليمهّد الأمر لمبايعته بولاية العهد، فلمّا بلغ المدينة جلس على شراب له فدخل عليه الإمام الحسين عليه السلام فوجد رائحة الشراب فقال: ما هذا؟ قال: هو طيب يصنع في الشام. ثم دعا بقدح فشربه ثم دعا بآخر وقال لغلامه: اسق أبا عبد الله. فقال له الإمام الحسين عليه السلام: عليك شرابك أيّها المرء، فقال يزيد:

ألا يا صاح للعجب | دعوتك ثم لم تجب
إلى الفتيات والشهوات | والصهباء والطرب
وباطية مكللة | عليها سادة العرب

١ ـ مقدمة مرآة العقول للسيد مرتضى العسكري ٢: ١٤٦ نقلاً عن البداية والنهاية لابن كثير ٨: ٢٢٨.

وفيهن التي بتلت[١] فؤادك ثم لم تثب

فنهض الحسين عليه السلام وقال: بل فؤادك يا بن معاوية بتلت[٢].

وأرسل معاوية ابنه إلى الغزو في بلاد الروم في جيش كثيف في سنة تسع وأربعين[٣] فتثاقل واعتلّ فأمسك عنه أبوه فأصاب الناس في غزاتهم جوع ومرض وهو في دير مُرّان مع زوجته أم كلثوم ومع الغواني والقيان غارق في لذته وفي الطرب والشرب والسكر وأنشأ يقول:

ما أن أُبالي بما لاقت جموعهم بالفرقدونة من حمّى ومن موم
إذا اتّكأت على الأنماط مرتفقاً بدير مُرّان عندي أم كلثوم

يقول ابن الأثير:

فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليلحقنّ بسفيان (بن عوف أمير الجيش) ليصيبه ما أصاب الناس[٤].

يقول ابن أبي الحديد في استعراض أعمال معاوية وإساءاته إلى الإسلام، والتي منها: اختيار يزيد خليفة وإماماً للمسلمين:

«وعهده بالخلافة إلى ابنه يزيد مع ظهور فسقه وشربه المسكر جهاراً ولعبه بالنرد ونومه بين الفتيان والمغنيات واصطحابه معهن ولعبه بالطنبور بينهن»[٥].

---

١ ـ وردت (تبلت) بتقديم التاء بمعنى قطعت.

٢ ـ الكامل لابن الأثير ٤: ١٢٧. دار صادر ودار بيروت.

٣ ـ حوادث سنة تسع وأربعين من الكامل لابن الأثير ٣: ٤٥٨ ـ ٤٥٩.

٤ ـ الكامل ٣: ٤٥٨ ـ ٤٥٩، وأورد أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني ١٧: ٢١٠ الشعر على النحو التالي:

إذا ارتفقت على الأنماط مصطبحاً بدير مُرّان عندي أم كلثوم
فما أبالي بما لاقت جنودهم بالفرقدونة من حمّى ومن موم

٥ ـ شرح النهج ٥: ١٣١بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.

وفي موضع آخر:

وإيثاره لخلافة الله على عباده ابنه يزيد السكّير الخمّير، صاحب الديَكة والفهود والقرود، وأخذ البيعة له على خيار المسلمين، وهو يعلم سفهه ويطلع على رَهَقه وخبثه، ويعاني سكراته وفعلاته وفجوره وكفره[١].

ويقول المسعودي:

وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشرب، وجلس ذات يوم على شرابه وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد قتل الإمام الحسين عليه السلام فأقبل على ساقيه فقال:

اسقني شربةً تروي مشامي ثم مِل فاسقِ مثلها ابن زياد
احب السر والأمانة عندي لتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنّين فغنّوا به[٢]، وكان أبو حمزة يخطب في أهل المدينة ويقول: ثم ولّى بعده ابنه يزيد، يزيد الخمور ويزيد الصقور ويزيد الفهود ويزيد الصيود ويزيد القرود، فخالف القرآن واتّبع الكهّان ونادم النرد[٣].

يروي أبو الفرج الأصفهاني عن ابن أبي نبرة عن لقيط بن نصر المحاربي، قال: كان يزيد بن معاوية أول من سنّ الملاهي في الإسلام من الخلفاء، وآوى المغنّين، وأظهر الفتك وشرب الخمر، وكان ينادم عليها سرجون النصراني مولاه والأخْطل. وكان يأتيه من المغنين سائب خاثر

١ ـ شرح النهج ١٥: ١٧٨.

٢ ـ مروج الذهب للمسعودي ٣: ٦٧.

٣ ـ الأغاني ٢٣: ٢٤١ بتحقيق عليّ السباعي وإشراف محمد أبي الفضل إبراهيم.

فيقيم عنده فيخلع عليه ويصله فغناه يوماً:

يـا للـرجال لمظلـوم بضـاعته ببطـن مكـة نائـي الأهـل والـنفر

فاعترته أريحيّة فرقص حتى سقط، ثم قال: اخلعوا عليه خلعاً يغيب فيها حتى لا يرى منه شيء، فطرحت عليه الثياب والجباب والمطارف والخز حتى غاب فيها[١].

ومن شعره في الخمر:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم

وداعـي صـبابات الهـوى يـترنّم

خـذوا بنصـيب مـن نعـيم ولـذة

فكـلٌّ وإنْ طـال المـدى يتصـرّم[٢]

وإذا كنا قد كشفنا الغطاء عن طرف من ليالي يزيد الحمراء وشربه واستهتاره فليس علينا من بأس أن نذكر نماذج أخرى من مجونه وخلاعته واستهتاره.

فقد (كان يزيد بن معاوية ولعاً بالصيد لاهياً به، وكان يُلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه ويهب لكل كلب عبداً يخدمه)[٣] وكان مولعاً بتربية القرود وملاعبتها وكان يهيم في ذلك هياماً، وولعه وشغفه بالقرود معروف.

يقول المسعودي:

وكان له قرد يكنّى بأبي قيس، يُحضره مجلس منادمته ويطرح له متكئاً،

---

١ ـ الأغاني ١٧: ٣٠٠ ـ ٣٠١.

٢ ـ حياة الإمام الحسين للقرشي ٢: ١٨٣ عن تاريخ المظفّري (مخطوط).

٣ ـ مع الحسين في نهضته للشيخ أسد حيدر:٤٦، عن حياة الحيوان للدميري مادة (فهد) ٢: ١٥٧.

وكان قرداً خبيثاً، وكان يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذللّت لذلك بسرج ولجام ويسابق بها الخيل يوم الحلبة، فجاء في بعض الأيام سابقاً فتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل، وعلى أبي قيس قُباء من الحرير الأحمر والأصفر مشمّر، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق، وعلى الأتان سرج من الحرير منقوش، ملمّع بأنواع من الألوان. فقال بعض شعراء الشام في ذلك اليوم:

تمسّك أبا قيس بفضل عنانها
فليس عليها إن سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذي سبقت به
جياد أمير المؤمنين أتان[1]

وأرسل يزيد (أبا قيس) مرةً في حلبة السباق فطرحته الريح فمات، فحزن عليه حزناً شديداً وأمر بتكفينه ودفنه كما أمر أهل الشام أن يعزّوه بمصابه وأنشأ في رثائه:

كم من كرام وقوم ذي محافظة
جاؤوا لنا ليعزّوا في أبي قيس
شيخ العشيرة أمضاها وأجملها
على الرؤوس وفي الأعناق والريس
لا يبعد الله قبراً أنت ساكنه
فيه جمال وفيه لحية التيس[2]

١ ـ مروج الذهب للمسعودي ٣: ٦٧، فهارس أسعد داغر.

٢ ـ القرشي: حياة الإمام الحسين ٢: ١٨٢، عن جواهر المطالب مخطوط.

وكان أبو قيس قرداً خبيثاً أثيراً عند يزيد بن معاوية لا يكاد يفارقه وكان يُجلسه في مجلسه بين يديه ويقول: (هذا شيخ من بني إسرائيل أصاب خطيئةً فمسخ، وكان يسقيه النبيذ ويضحك مما يصنع)[١] واشتهر يزيد بمنادمة القرود حتى قال فيه رجل من التنوخ:

يزيد صديق القرد ملٍّ جوارنا فحن إلى أرض القرود يزيد
تبّاً لمن أمسى علينا خليفة صحابته الأدنون منه قرود[٢]

وخرج يزيد يتصيّد بجواري وهو سكران، فركب وبين يديه أتان وحشية قد حمل عليها قرد ويكنيه يزيد أبا خلف وجعل يركض الأتان، ويقول:

أبا خلف احتل لنفسك حيلةً فليس عليها إنْ هلكت ضمان

فسقط واندقت عنقه[٣].

الشرب والسكر في حياة الوليد بن يزيد:

يقول أحمد بن عبد ربه الأندلسي:

(عكف الوليد على البطالة وحب القيان والملاهي والشراب ومعاشقة النساء)[٤] ثم يروي أحمد بن عبد ربه عن علي بن عباس قال:

إني عند الوليد بن يزيد في خلافته إذ أتى بشراعة (من رجال الاختصاص في الشرب واللهو) فوالله ما سأله عن نفسه ولا عن مسيره، حتى قال له: يا شراعة أنا والله ما بعثت إليك لأسألك عن كتاب الله وسنة رسوله.

---

١ ـ مقدمة مرآة العقول للسيد العسكري ٢: ١٥١ عن أنساب الأشراف ٤: ١١ـ٢.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ المصدر السابق.

٤ ـ العقد الفريد ٥: ١٩٨.

قال: والله لو سألتني عنهما لوجدتني فيهما حماراً. قال: إنما أرسلت إليك لأسألك عن القهوة؟ الشراب، قال: دهقانها الخبير ولقمانها الحكيم.

قال: فأخبرني عن الشراب؟

قال: يسأل أمير المؤمنين عمّا بدا له.

قال: ما تقول في الماء؟

قال: لابدّ لي منه، والحمار شريكي فيه!

قال: ما تقول في اللبن؟

قال: ما رأيته قط إلا استحييت من أمي لطول ما أرضعتني به!

قال: ما تقول في السويق؟

قال: شراب الحزين والمستعجل المريض.

قال: فنبيذ الخمر؟

قال: تلهو به عن الشراب.

قال: ما تقول في الخمر؟

قال: أوّاه تلك صديقة روحي.

فقال: وأنت والله صديق روحي فأيَّ المجالس أحب؟

قال: ما شرب الكأس على وجه أحسن من السماء[1]، ترى أمير المؤمنين يستدعي شراعة من مكان بعيد ليسأله عن (القهوة).

ويصف له ألوان الشراب ثم لا يشربها؟

ويسهر الوليد ليله حتى الفجر ويكثر من الشرب والسماع حتى يُحصي

---

١ ـ العقد الفريد ٥: ٢٠٢ بتحقيق الدكتور عبد المجيد الترحيني. ومروج الذهب للمسعودي ٣: ٢١٤، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٧: ٤٨ ـ ٤٩، واللفظ للأول.

لـه ابن أبي الزناد سبعين قدحاً[١] ونحن وإن احتملنا المبالغة في هذا الإحصاء إلاّ أننا لا نشك فيما اشتهر عن الوليد من الإفراط في الشرب والسكر.

ويـنادم الولـيد ندماءه ليلة على الخمر والسكر، وقد وضعت أمامهم جفنه مـن الخمر انعكس عليها نور القمر فيحلف الوليد أنْ لا يفارق الخمر (هفت هفـته) أي سـبعة أسابيع (٤٩) يوماً فيحتجب عن الناس ليفرغ للخمر والسكر ويحـاول حاجـبه أن يصـرفه عـن ذلـك فـيأمر بـه أن يوضع في فمه قمع، ثم جعلوا يصبّون في فمه الخمر حتى عاد ما يعقل سكراً[٢].

ويمـلأ لــه جرن من الخمر فيشرب هو وندماؤه منه حتى يفرغ الجفنة من الخمر[٣].

ويحلـو لـه منظر غدير صغير من الماء فيسكر على الغدير ويطرب للمنظر الجميل في الليلة المقمرة فيحلف ـ وهو سكران ـ أن يشرب ماء الغدير كله، فيضـطر ندمـاؤه وأصـحابه أن يفـرّغوا الغديـر مـن المـاء ليفي أمير المؤمنين بيمينه[٤].

ولمّـا تولـى الولـيد الخلافـة: بعث إلى جماعة من أهله، فقال: أتدرون لِمَ دعوتكم؟

فقالوا: لا.

---

١ ـ العقد الفريد ٥: ٢٠٢ بتحقيق الدكتور عبد المجيد الترحيني.

٢ ـ مروج الذهب ٣: ٢١٧ بتحقيق وفهرسة يوسف أسعد داغر والأغاني لأبي الفرج ٧: ٦٠ـ٦١ ط. دار الكتب المصرية.

٣ ـ الأغاني ٧: ٢٤ ط. دار الكتب المصرية.

٤ ـ الأغاني ٧: ٤٧.

فقال: ليقل قائلكم.

فقال رجل منهم: أردت يا أمير المؤمنين أن ترينا ما جدّد الله لك من نعمته وإحسانه.

فقال: نعم ولكنّي:

أشهد الله والملائكة الأبـ ـرار والعابدين أهل الصلاح
أنني أشتهي السماع وشرب الكأس والعض للخدود الملاح
والنديم الكريم والخادم الفا ره يسعى عليَّ بالأقداح

ثم قال لهم: قوموا إذا شئتم[١].

أسمعتم البيان الأول الذي ألقاه أمير المؤمنين على أهله الأدنين منه في أول يوم من خلافته؟

ويسكر هو وندماؤه ويديمون الشرب حتى طلوع الفجر، فيضطرّ الفرّاشون أن يحملوهم على البسط ويلقوهم في دار الضيافة (عدا أمير المؤمنين طبعاً) ويقول أحدهم: فما أفقنا حتى طلعت الشمس[٢] وعسى ألاّ يكون قد فاتتهم صلاة الفجر!!

ويفرط الخليفة في الشرب حتى تعمى عيناه من فرْط السكر ويفقد وعيه[٣].

ويسهر مع جاريته الأثيرة لديه فيسكر وتسكر حتى إذا أذّن المؤذّن لصلاة الفجر أمرها أنْ تتلثّم حتى يحسبها الناس أنها أمير المؤمنين فتخرج

---

١ ـ الأغاني ٧: ٢٢.

٢ ـ الأغاني ٧: ٦٧ـ٦٨.

٣ ـ الأغاني ٧: ٨٩ ط. دار الكتب.

من باب مقصورة السهر إلى صلاة الفجر تؤم المسلمين لصلاة الفجر وهي مجنبة وسكرى[١] إلى غير ذلك من قصص شرب الخلفاء من بني أمية وسكرهم واستهتارهم بحدود الله تعالى وأحكامه، فكل ذلك يجري في قصر الخلافة وبمحضر من أمير المؤمنين بل معه وعليه...

١ ـ راجع العقد الفريد ٥: ٢٠٥ بتحقيق عبد المجيد الترحيني والأغاني ٧: ٤٧ ط. دار الكتب.

الغناء والطرب

وأما الغناء فقد ولع فيه حكام بني أمية وقد كان يحمل إلى قصر الخليفة المغنّون[1] من سائر البلاد فيستمع إليهم الخليفة فيجيزهم من أموال بيت مال المسلمين المبالغ الكبيرة ويستبقي عنده من ينتقي منهم ويصرف منهم من يشاء.

وكان بنو أمية يسمحون لأنفسهم أن يأخذ منهم الطرب مأخذه، وكان السابقون من خلفاء بني أمية يحتفظون للخليفة أمام ندمائه وجلسائه بعض حشمة الخلافة فيحتجبون عن ندمائهم لحظات الطرب العارية أما المتأخرون منهم فقد أباحوا لأنفسهم أن يلعب بهم الطرب كيفما يشاء بمحضر من جلسائهم وندمائهم، حتى أنّ الخليفة كان يرقص ويترنّح للأغنية إذا طابت له ويتجرّد من ملابسه. يقول الجاحظ في الفروق بين حكّام بني أمية السابقين واللاحقين في التظاهر بالطرب:

أما معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان وسليمان وهشام ومروان بن محمد فكان بينهم وبين الندماء ستارة، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب للمغنّي والتذّ، حتى يتقلب ويمشي ويحرّك كتفيه ويرقص ويتجرّد حتى لا يراه إلا خواص

---

١ ـ العقد الفريد ٥: ٢٠٠.

جواريه... وأمّا الباقون من خلفاء بني أمية فلم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا ويتجرّدوا ويحضروا عراةً بحضرة الندماء والمغنين[١].

ومن مشاهد الطرب القبيحة في حياة بني أمية نستمع إلى القصة التالية يرويها المسعودي عمن حدّثه عن سمير من سُمّار الوليد؛ قال: كنت سميراً للوليد بن يزيد فرأيت ابن عائشة القرشي عنده، وقد قال له غنّني فغنّاه:

إنــي رأيــت صــبيحة الــنحر حــوراً نفيــن عــزيمة الصــبر
مــثل الكواكــب فــي مطالعهــا عــند العشــاء أطفــن بالــبدر
وخرجــت أبغــي الأجــر محتســباً فرجعــت موقــوراً مــن الــوزر

فقال الوليد: أحسنت والله يا أميري أعد بحق عبد شمس، فأعاد.

فقال: أحسنت والله أعد بحق أمية فأعاد. فجعل يتخطى من أب إلى أب فيأمر بالإعادة حتى بلغ نفسه.

فقال: أعد بحياتي، فأعاد. فقام إلى ابن عائشة فأكبّ عليه ولم يبق عضواً من أعضائه إلاّ قبّله.. (ويقف القلم عن ذكر هذه الفقرة من القصة) وقال: واطرباه واطرباه ونزع ثيابه فألقاها على ابن عائشة وبقي مجرّداً إلى أن أتوه بثياب غيرها[٢].

---

١ ـ التاج في أخلاق الملوك للجاحظ بتحقيق احمد زكي باشا ط. القاهرة ١٩١٤.

٢ ـ مروج الذهب للمسعودي ٣: ٢١٥ بتحقيق وفهرسة يوسف أسعد داغر.

المجون والخلاعة

وأما عن مجون الخلفاء من بني أمية وخلاعتهم واستهتارهم فحدّث ولا حرج، وما نقرأه في التاريخ لا يكاد أن يصدقه الإنسان لولا أن المؤرخين من كل المذاهب يتفقون على مجمل ما كان يجري في قصر الخلافة الأموية من مجون وخلاعة.

حتى أن معاوية بن أبي سفيان يأخذ عبده إلى مضجع ابنته وهي عارية ويشير إلى عورتها بالعصا[1].

ويموت هشام وتنتقل الخلافة إلى الوليد فيسمع الوليد وهو في نشوة الخلافة الجديدة رنة بكاء ونعي في قصور هشام من بناته ونسائه فيقول:

إنـــي ســـمعت بلـــيل ... ورا المصـــلّى بـــرنّه

إذا بـــنات هشـــام ... يندبـــن والدهـــنَّ

يندبـــن قـــرماً جلـــيلاً ... قـــد كـــان يعضـــدهنّ

أنـــا المخنّـــث حقـــاً ... إن لـــم..............[2]

ومن أقبح ما ينقل بهذا الصدد أن الوليد كان يستمع إلى مغني يغنّي له فأزعجه بعض ندمائه بسؤال قطع عليه نشوته، فأمر بعض الجالسين أن يأتي

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير ٨: ١٤٠.

٢ ـ الأغاني للأصفهاني ٧: ١٧ دار الكتب.

معه بالعمل القبيح بنفس المجلس، فنفذت أوامر الخليفة حرفياً فيه بمحضر من الندماء والخليفة ينظر ويضحك. ومن لا يصدّق فعليه بمراجعة كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الأموي[١].

ويروي أبو الفرج الأصفهاني الكثير من هذه المخازي عن بني أمية تَعفَّف القلم عن ذكرها وكمثل على ذلك راجع الأغاني في قصة الأشعب مع الوليد[٢]، وفي قصة أقبح من ذلك كله بحيث يستدعي قبحها أبا الفرج في التشكيك بصحتها[٣] ننزّه هذه الصفحات عن ذكرها، وكثيرة هي مخازي بني أمية في هذا الباب نعرض عنها صفحاً، ونطوي كشحاً...

١ ـ الأغاني ٧: ٤٧ ط. دار الكتب.

٢ ـ الأغاني ٧: ٤٧ و٥٩ ط. دار الكتب.

٣ ـ الأغاني ٧: ٦٠ـ٦١ ط. دار الكتب.

الفصل الخامس

السياسة الأموية

سياسة بني أمية في إذلال المسلمين

سلك حكام بني أمية مسالك عجيبة في إذلال الأمة وتحطيم شخصيتها المعنوية لغرض السيطرة عليها وتمكين قبضتهم منها وتصفية كل حالات المعارضة والتمرّد ضد النظام.

يقول الوليد بن يزيد:

فدع عنك ادكارك آل سُعدى ... فنحن الأكثرون حصىً ومالا

ونحن المالكون الناس قسراً ... نسومهم المذلة والنكالا

ونوردهم حياض الخسف ذُلاً ... وما نألوهم إلا خبالا[1]

وهذه الأبيات تكشف بدقة عن توجّه بني أمية السياسي في قهر الأمة وإذلالها وفرض نفوذهم وسلطانهم عليها.

ولا تحسب أن هذا التصور المتطرف يخص الوليد بن يزيد من بين حكام بني أمية.. فقد كان جُلّ بني أمية وعمالهم يرون مثل هذا الرأي أو قريباً منه.

وكانوا يعلنون للناس رأيهم هذا من دون تحرّج أو حياء، وبلغ بهم الأمر أنهم كانوا يمارسون استرقاق المسلمين وسبي المسلمات المؤمنات واسترقاقهن وعرضهن في الأسواق.

---

١ ـ حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام للقرشي ١: ٣٨٧.

وبُسْر بن أرطأة هو أول من اقترف هذه الجريمة في تاريخ الإسلام. فسبى المؤمنات من همدان المعروفة بولائها لأهل البيت عليهم السلام وعرضهنّ في الأسواق للبيع، وكان الناس يكشفون عن سيقانهن ليشتروهنّ، كما يصنع تجار الرقيق في أسواق النخاسة والرقيق، كما فعل ذلك بُسْر بن أرطاة عندما أرسله معاوية إلى اليمن بالمسلمات المؤمنات اليمانيات، سباهنّ وأقامهن في الأسواق للبيع.

وقد ذكر إجمال هذا الحديث ابن عبد البر القرطبي في ترجمة بُسر بن أرطاة من كتابه (الاستيعاب)، قال ابن عبد البر عن سبي نساء همدان: فكنّ أول مسلمات سُبين في الإسلام[1].

وعندما تمرّد العراق على الحجّاج وتمكّن الحجاج من هزيمة الذين خرجوا عليه من أهل العراق رأى أن أكثر من خرج عليه من الفقهاء والمقاتلة (الجنود) والموالي، ففكّر في أن يفرّق شملهم بتفريقهم في البلاد. يقول ابن عبد ربه الأندلسي في العقد الفريد: فأقبل على الموالي وقال: أنتم علوج وعجم وقراكم أولى بكم، ففرّقهم وفضّ جمعهم كيف أحب، وصيّرهم كيف شاء، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجّهه إليها[2]، كما يصنع تجار الرقيق بالرقيق.

يقول ابن أبي الحديد في أحوال بني أمية:

(وكانوا يسبون ذراري الخوراج من العرب وغيرهم. ولما قتل قريب وزحّاف الخارجيان سبى زياد ذراريهما، فأعطى شقيق بن ثور السدوس

---

١ ـ الاستيعاب بهامش الإصابة ط.١ سنة ١٣٢٥ هـ ١: ١٥٧ـ١٥٨.

٢ ـ العقد الفريد ٣: ٣٦٤.

إحدى بناتهما وأعطى عبّاد بن حصين الأخرى، وسبيت بنت لعبيدة بن هلال الشكري وبنت لقطري بن الفجاءة المازني، فصارت هذه إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك واسمها أم سلمة فوطأها بملك اليمين على رأيهم، وسُبي واصل بن عمر القنا واستُرِقَ وسُبي سعيد الصعر الحروري)[١].

وهكذا كانت سيرة بني أمية في إذلال المسلمين واسترقاقهم واستعبادهم كالمشركين تماماً، وقد أسرفوا في ذلك أيّما إسراف حتى قالوا: إنّ بني أمية كانت تبيع الرجل في دين يلزمه وترى أنه يصير بذلك رقيقاً[٢]، وأفظع من ذلك كله وأبلغ في إذلال المسلمين ما كان من فعل مسلم بن عقبة (وكان يسمّى بمسرف) قائد جيش يزيد بن معاوية إلى المدينة المنورة في وقعة الحرّة المعروفة... عندما احتل المدينة المنورة وأباحها لجيشه، حيث دعا المسلمين إلى بيعة يزيد بن معاوية على دمائهم وأموالهم وأهليهم. وأنهم عبيد ليزيد بن معاوية يقضي في دمائهم وأموالهم وأنفسهم بما شاء[٣]، وعلى هذه الطريقة جرى بنو أمية في إذلال المسلمين وإخضاعهم لنزواتهم ورغباتهم وتصفية حالات المعارضة السياسية والعسكرية وتحكيم قبضتهم على مصائر الناس وأقدارهم.

---

١ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ١٥: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ راجع ما شئت من المراجع التاريخية المعروفة التي أرخت هذه الفترة كالكامل لابن الأثير ٤: ١١٨ ط. ١٣٥٨ هـ. الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ٢١٤ ط. ١٣٨٨ هـ. وتاريخ اليعقوبي ٢: ٢٣٧ ط. ١٣٩٤ هـ. ومروج الذهب للمسعودي ٣: ٧٠ ط. ١٤٠٤.

إحياء النزعات القومية الجاهلية:

كان معاوية وعمّاله يحسنون إثارة الفتن فيما بين المسلمين، ويعرفون جيداً مواقع الفتنة والاختلاف فيما بين العرب والقبائل، ويحسنون استثمار ذلك في مواضع الحاجة وكان من أبرع عمّال معاوية في ذلك زياد بن أبيه الذي استطاع أن يخضع قبائل العراق لسلطانه بما أثار بينهم من الخلافات.

وكان معاوية بارعاً ذكياً في هذا لمجال يعمل بذكاء وفطنة حاول مرةً أن يثير الخلاف بين الإمام الحسن عليه السلام وابن الزبير في مجلسه بالشام، ورغم أن الإمام عليه السلام حاول أن يتلافى ذلك إلا أن معاوية أفلح في إثارة أبي سعيد بن عقيل بن أبي طالب في نفس المجلس ضد ابن الزبير وبالعكس فحصل ما أراد الإمام الحسن عليه السلام أن يتجنَبه[1].

وكان بنو أمية ينزعون بشكل واضح إلى النزعة القومية التي قضى عليها الإسلام، ويحاولون إعادة الحواجز التي هدمها الإسلام بين العرب وغيرهم، ولم تكن تطمئن نفوسهم إلى ما أقرّه الإسلام من مساواة العرب بغير العرب واستبدال المقاييس الجاهلية في التفاضل بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2] وقد بدأت هذه النزعة الجاهلية القومية تدخل إلى المجتمع الإسلامي في أيام معاوية، وتتعمق وتتأصّل حتى عادت أصلاً من أصول الحكم في أيام بني أمية.

يقول زياد: دعا معاوية الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال: إني رأيت هذه الحمراء (يعني: الموالي من غير العرب) قد كثرت، وأراها قد

---

١ ـ اقرأ العقد الفريد ٤: ٩٩.

٢ ـ الحجرات: ١٣.

طعنت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق، فما ترون؟

فقال الأحنف: أرى إنّ نفسي لا تطيب، أخي لأمي وخالي ومولاي وقد شاركونا وشاركناهم في النسب فظننت أني قد قتلت عنهم وأطرق.

فقال سمرة بن جندب: اجعلها إليّ أيُّها الأمير فأنا أتولى ذلك منهم وأبلغ منه. فقال: قوموا حتى أنظر في هذا الأمر[١].

ومن عجيب أمر سمرة بن جندب أنه لا يكتفي بتشجيع معاوية على إبادة الموالي من المسلمين فقط، وإنما يتبرع لمعاوية ويتطوع له بهذه المهمة وقد فعل الحجاج بن يوسف الثقفي بالمسلمين من غير العرب أقبح ما يمكن أن يعمله حاكم بالمسلمين.

يقول ابن عبد ربه:

«إن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله بن الجارود، ولقي ما لقي من قرّاء أهل العراق، وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء، والمقاتلة والموالي ثم أهل البصرة، فلمّا علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم، أحبّ أن يسقط ديوانهم، ويفرّق جماعتهم حتى لا يتألفوا ولا يتعاقدوا، فأقبل على الموالي وقال: أنتم علوج وعجم، وقراكم أولى بكم ففرّقهم، وفضّ جمعهم، كيف أحبّ، وصيّرهم كيف شاء، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجّهه إليها، وكان الذي تولّى ذلك رجل من بني سعد بن عجل بن لجيم يقال له خرّاش بن جابر.

---

١ ـ العقد الفريد ٣: ٣٦١ تحقيق عبدالمجيد الترحيني ١٤٠٤هـ

وقال شاعرهم:

وفرَّ شيخك حتى عاذ بالحكم[١] وأنت من نقش العجلي راحته

وهكذا أسقط الحجاج أسماء هؤلاء المسلمين من ديوان عطاء المسلمين، وفرقهم في القرى البعيدة، ونقش على أيديهم بأسماء قراهم، كما ينقش بالكي أسماء الرقيق على أيديهم.

وقد أثّرت هذه النزعة الأموية تأثيراً قبيحاً في بعض أوساط المسلمين العرب وأعادت إليهم النزعة الجاهلية التي استأصلها الإسلام من نفوسهم، وأثارت في نفوسهم الحساسية تجاه المسلمين من غير العرب واحتقارهم، حتى أصبح بعضهم لا يكتم احتقاره لغير العرب من المسلمين (الموالي).

يقول ابن عبد ربه: كان نافع بن جبير إذا مرّت به جنازة قال: مَنْ هذا؟ فإذا قالوا: قرشيّ، قال: واقوماه، وإذا قالوا: عربي، قال: وابلدتاه، وإذا قالوا: مولى، قال: هو مال الله يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء[٢].

وكانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلى ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى[٣].

ومن طريف ما ينقله أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي عن العصبية القومية التي أثارها بنو أمية في نفوس المسلمين القصة التالية:

قال ابن أبي ليلى: قال لي عيسى بن موسى، وكان جائراً شديد العصبية: من كان فقيه البصرة؟

قلت: الحسن بن أبي الحسن. قال: ثم من؟ قلت: محمد بن سيرين. قال:

---

١ ـ العقد الفريد ٣: ٣٦٤ بتحقيق الترحيني.

٢ ـ العقد الفريد ٣: ٣٦٠ ـ ٣٦١.

٣ ـ المصدر السابق: ٣٦١.

فما هما؟ قلت: موليان، قال: فمن كان فقيه مكة؟ قلت: عطاء بن أبي رباح أو مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار. فقال: فما هؤلاء؟ قلت: موالي.

فتغيّر لونه، ثم قال: فمن أفقه أهل قباء؟ قلت: ربيعة الرأي، وابن أبي الزناد، قال: فما كانا؟ قلت: من الموالي، فأربد وجهه، ثم قال: فمن كان فقيه اليمن؟ قلت: طاووس وابنه وهمام بن منبه. قال: فما هؤلاء؟ قلت: من الموالي.

فانتفخت أوداجه فانتصب قاعداً، ثم قال: فمن كان فقيه خراسان؟ قلت: عطاء بن عبد الله الخراساني، قال: فما كان عطاء هذا؟ قلت: مولى، فازداد وجهه تربّداً واسودّ اسوداداً، حتى خفته ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول، قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى، فازداد تغيّظاً وحنقاً، ثم قال: فمن كان فقيه الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران: قال: فما كان؟ قلت: مولى. قال: فتنفس الصعداء، ثم قال: فمن كان فقيه الكوفة؟ قلت: فوالله لولا خوفي لقلت: الحكم بن عيينة، وعمار بن أبي سليمان، ولكن رأيت فيه الشر، فقلت: إبراهيم والشعبي. قال: فما كانا؟ قلت: عربيان، قال: الله أكبر وسكن جأشه[1].

وقد بلغ من احتقار بني أمية للموالي المسلمين من غير العرب أن كانوا يضعون عليهم الجزية كما يضعون الجزية على غير المسلمين من أهل الكتاب، وكانوا يستخدمونهم في الحروب من غير عطاء ورزق... حتى خلافة عمر بن عبد العزيز حيث كتب إلى الجرّاح عامله على خراسان أن

---

١ ـ العقد الفريد ٣: ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

يضع الجزية عن المسلمين.

يقول ابن الأثير في أحداث سنة مائة أيام عمر بن عبد العزيز:

قال رجل من الموالي يكنّى أبا الصيّد لعمر بن عبد العزيز: (يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ورزق ومثلهم قد أسلموا من الذمة يأخذون بالخراج)[١].

وعلى هذه الطريقة جرى بنو أمية في إعادة النزعة القومية الجاهلية إلى حياة المسلمين من جديد كأقوى ما يكون، وأثار الحساسية الشديدة بين العرب وغيرهم (في المجتمع الإسلامي الجديد الذي احتضن المسلمين جميعاً من كل بلد وقوم في جوٍّ عامر بالأخوّة والرحمة). وقد أضرّت هذه النزعة الأموية ضرراً بليغاً بالمجتمع الإسلامي، وتركت في حياة المسلمين آثاراً سيئةً يعاني منها المجتمع الإسلامي حتى اليوم الحاضر.

سياسة بني أمية في الأموال:

كان من رأي معاوية أنّ المال مال الله، وهو خليفة الله ومن حقه أنْ يصنع في مال الله ما يشاء دون حساب وكتاب، وهو موضوع الخلاف التاريخي المعروف بينه وبين الصحابي الجليل أبي ذر. فقد كان أبو ذر يرى في إسراف معاوية في بيت المال ما كان يخالف سنة رسول الله ﷺ فينكر ذلك على معاوية، وقد كان معاوية يعلن رأيه هذا إعلاناً ويُسمع الناس ما يراه في المال.

يقول المسعودي:

قال معاوية يوماً وعنده صعصعة (بن صوحان)، وكان قدم عليه بكتاب

---

١ ـ الكامل في التأريخ لابن الأثير ٥: ٥١ دار الصادر، ودار بيروت ١٣٨٥ هـ.

عليّ وعنده وجوه الناس: الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما أخذ من مال الله فهو لي، وما تركت منه كان جائزاً لي.

فقال صعصعة:

جهلاً معاوي لا تأثم[1] تُمنّيك نفسك ما لا يكون

وكان معاوية يمنح لنفسه حقاً أن يستصفي ما يشاء من أموال الناس.

يقول اليعقوبي:

واستصفى - أي معاوية - أموال الناس فأخذها لنفسه[2].

ويقول اليعقوبي في شرح خراج بلاد المسلمين في عهد معاوية: (أخرج معاوية من كل بلد ما كانت ملوك فارس تستصفيه لأنفسها من الضياع العامرة وجعله صافية لنفسه، فأقطعه جماعة من أهل بيته)[3]. وكان معاوية يهب خراج المسلمين وولاياتهم (طُعمةً) لمن يشاء من أقاربه وبطانته الذي أعانوه في الاستيلاء على الحكم.

وقد جاء إليه سعيد بن عثمان بن عفان بعد أن أعلن معاوية عن بيعة يزيد وليّاً للعهد يعاتبه في ذلك فأعطاه معاوية خراسان (طعمةً) لهز

يقول ابن قتيبة الدينوري (٢٧٦ هـ):

إنّ سعيداً قال لمعاوية: (فإذا أبيت فأعطني مما أعطاك الله، فقال معاوية: لك خراسان. قال: سعيد: وما خراسان؟ قال: إنّها لك طُعمة وصلة رحم)،

---

١ - مروج الذهب ٣: ٤٣ بفهارس يوسف أسعد داغر.

٢ - اليعقوبي ٢: ٢١٩ ط. النجف ١٣٩٤ هـ.

٣ - اليعقوبي ٢: ٢٢٠.

فخرج راضياً وهو يقول:

قلت جزاه الله خيراً بما وصل ذكرت أمير المؤمنين وفضله
فجوزي أمير المؤمنين بما فعل[١] وقال خراسان لك اليوم طُعمةً

وقد يستغرب أنْ يسمعوا أنّ خليفة رسول الله يهب ولاية من ولايات المسلمين طُعمة لبعض أقاربه ليرضيه ويكسبه لمبايعة ولي عهده (يزيد)، ولكنّه الأمر الواقع الذين حدث في تاريخ الخلافة في أيام معاوية، ثم استمرّ من بعد سُنّة الخلفاء من بني أمية وبني العباس.

وقد وهب معاوية خراج مصر والمغرب جميعاً طعمة لعمرو بن العاص، لا يراجعه في أمر شيء.

وقد اشترط عمرو ذلك على معاوية، يقول اليعقوبي: (وكانت مصر والمغرب لعمرو بن العاص، طعمة شرطها له يوم بايع، ونسخة الشرط: (هذا ما أعطى معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص مصر، أعطاه أهلها فهم له حياته، ولا تنقض طاعته شرطا)... فقال له وردان: وما عمرك أيّها الشيخ إلا كظم حمار، هلا شرطت لعقبك من بعدك؟ فاستقال معاوية فلم يقله. فكان عمرو لا يحمل إليه من مالها شيئاً يفرّق الأعطية في الناس فما فضل من شيء أخذه لنفسه)[٢]. وكان خراج مصر ثلاثة ملايين ديناراً فيما يقدّره اليعقوبي في التاريخ[٣].

---

١ ـ الإمامة ولاسياسة لابن قتيبة: ١٩١ ـ ١٩٢.

٢ ـ تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٠٩ ط. النجف ١٣٩٤ هـ.

٣ ـ المصدر السابق.

مقارنة بسياسة الإمام في الأموال:

إن معاوية وبني أمية كانوا يتصرفون في بيت مال المسلمين وخراج المسلمين على أنه مال الله، ولهم مطلق الحق في التصرّف فيه تبذيراً وإسرافاً، وعلى أن يعطوه لهذا ولذاك طُعمة وترضيةً وأيّة طُعمة؟ فإن ولاية مصر كلها طعمة لعمرو ما دام حياً بما في ذلك أهل مصر وخراج مصر. وكم يجد الإنسان الفارق كبيراً، بين السياسة الأموية هذه في المال وبين سياسة الإمام ورأي الإمام في المال ومحاسبة ولاته وعمّاله على البلاد.

ونحن نعرض هنا نموذجين من رسائل الإمام إلى عمّاله في محاسبتهم على تصرفاتهم المالية لنلمس هذا الفرق الكبير بين هاتين السياستين اللتين عايشتهما الأمة الإسلامية في فترة قصيرة من تاريخها.

١ـ كتاب الإمام إلى مصقلة بن هبيرة:

يقول اليعقوبي:

إنّ الإمام كتب إلى مصقلة بن هبيرة، وقد بلغه أنه يفرّق ويهب أموال (أردَشير خُرَّه)[1] وكان عليها: (أمّا بعد فقد بلغني عنك أمر أكبرت أنْ أصدّقه: أنّك تقسم فيء المسلمين في قومك، ومن اعتراك من السألة والأحزاب وأهل الكذب من الشعراء كما تقسّم الجوز، فو الذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لأفتشنّ عن ذلك تفتيشاً شافياً، فإنْ وجدته حقاً لتجدن بنفسك عليّ هواناً فلا تكونن من الخاسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في

١ ـ بضم الخاء وتشديد الراء، اسم مركب معناه بهاء اردشير، واردشير ملك من ملوك الفرس، وهي كورة من كور فارس، كان عضد الدولة ابن بويه يكثر الخروج إليها للتنزه، فسمّاها فيروز آباد ومعناه: أتم دولته.

الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً)[١].

فكتب مصقلة إليه: (أمّا بعد فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين، فليسأل فإنْ كان حقّاً ليعجّل عَزلي بعد نَكالي، فكل مملوك لي حر وَعليّ آثام ربيعة ومضر إنْ كنت رزئت من عملي ديناراً ولا درهماً ولا غيرهما منذ ولّيته).

٢ـ كتاب الإمام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري:

وكتب الإمام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري، وكان عامله على البصرة، وقد بلغه أنه دُعي إلى وليمة قومٍ من أهلها فمضى إليها، (أمّا بعد: يا بن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها: تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان وما ظننت أنك تُجيب إلى طعام قومٍ عائلهم مجفو وغنيّهم مدعو. فانظُر إلى ما تقْضمه منْ هذا المقضم فما اشتبه عليك فالفظه وما أيقنت بطيب وجوهه فَنَلْ منه، ألا وإنّ لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنوره. ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طُعْمه بقرصيه ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك، ولكنْ أعينوني بورعٍ واجتهاد وعفّةٍ وسداد)[٢].

استخدام المال للأغراض السياسية:

وكان بنو أمية يستخدمون بيت مال المسلمين لتحقيق أهدافهم السياسية بشكل واسع ومن دون حدود، وكان معاوية يبذل المال بذلاً لكسب ودّ الناس ولجذبهم واستقطابهم من حوله، ولئن كان معاوية يعلم أن المال لا يصنع الحبّ والولاء فقد كان يكفي معاوية أنه يستطيع بهذا البذل أن

---

١ ـ اليعقوبي ٢: ١٨٨.

٢ ـ المصدر السابق.

يسترضي جملة من وجوه الساخطين عليه ويسكت جملة من زعماء المعارضة ويشتري ضمائرهم، وهو في ذلك صاحب نظرية معروفة.

فقد روي أن يزيد بن معاوية يوم بويع له بالخلافة من بعد أبيه تسابق الشعراء والوجهاء لتقديم آيات الولاء له ولأبيه، وهو يعلم أن كلما أسمعه القوم يومذاك من الملق ليس فيه شيء من الصدق...

فقال لأبيه: (يا أمير المؤمنين، ما ندري أنخدع الناس أم يخدعوننا؟ فقال له معاوية: كل من أردت خديعته فتخادع لك، حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته)[١].

ويقول ابن الأثير:

وفد الأحنف بن قيس وجارية بن قدامة السعديّان والجون ابن قتادة العيشمي والحتات بن يزيد إلى معاوية بن أبي سفيان فأعطى كل رجل منهم مائة ألف، وأعطى الحتات سبعين ألفاً.

فلما كانوا في الطريق ذكر كل جائزته، فرجع الحتات إلى معاوية:

فقال: فضحتني في بني تميم، أما حَسَبي صحيح أولست ذا سن؟ ألست مطاعاً في عشيرتي؟

قال: بلى: قال: فما بالك خسست بي دون القوم؟ ـ وكان حضر الجمل مع عائشة، وكان الأحنف وجارية يريدان علياً ـ.

قال: إني اشتريت من القوم دينهم، ووكلتك إلى دينك ورأيك في عثمان، وكان عثمانياً.

فقال: وأنا فاشتري مني ديني! فأمر له بإتمام جائزته ثم مات الحتات

---

١ ـ الكامل للمبرد: ٣٠٥ مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٥ هـ.

فحبسها معاوية[١].

وكان معاوية قد عزم أن يعزل المغيرة من الكوفة، ويستعمل مكانه سعيد بن العاص، فعلم المغيرة بذلك فشخص إلى معاوية ورغّبه في البيعة ليزيد من بعده.

فقال له معاوية: ومن لي بهذا؟ فقال: أنا أكفيك الكوفة وزياد يكفيك أهل البصرة.

فقال له معاوية: ارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق به إلى ذلك.

يقول ابن الأثير: فرجع إلى أصحابه، فقالوا: مه؟ قال: لقد وضعت رِجْل معاوية في غرز بعيد الغاية على أمة محمد، وفتقت عليهم فتقاً لا يُرتق أبداً.

وسار المغيرة حتى قدم الكوفة وذاكر من يثق إليه ومن يعلم أنه شيعة لبني أمية، أمر يزيد فأجابوا إلى بيعته فأوفد منهم عشرة... وأعطاهم ثلاثين ألفاً. وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة وقدموا على معاوية، فزينوا له بيعة يزيد ودعوه إلى عقدها فقال معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا، وكونوا على رأيكم. ثم قال لموسى: بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألفاً. قال: لقد هان عليهم دينهم[٢].

وفي رواية أخرى أرسل معهم ابنه عروة، فقال معاوية لعروة سراً: بِكَم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بأربعمائة. قال: لقد وجد دينهم عندهم رخيصاً[٣].

١ـ الكامل لابن الأثير ٣: ٤٦٨ ط. بيروت ١٣٨٥ هـ.

٢ـ الكامل لابن الأثير ٣: ٥٠٤.

٣ـ الكامل لابن الأثير ٣: ٥٠٥.

الفصل السادس

انتحال الحديث على رسول الله ﷺ

وضع الحديث

من أخطر ما صنعه معاوية في أيام حكمه وجرى عليه من بعده حكام بني أمية انتحال الحديث على رسول الله ﷺ، فعلى لسان بعض السذج من الذين رأوا رسول الله ﷺ وسمعوا حديثه... من الذين استغلّهم معاوية استغلالاً سيئاً للوصول إلى غاياته السياسية.

وقد جرّأ معاوية الحكّام والعمّال وذوي النفوذ من بعده من الذين توالوا على الحكم على تزوير الحديث على رسول الله ﷺ، وقد شاع وضع الحديث على رسول الله ﷺ في العصر الأموي والعصر العباسي حتى أصبح من الصعب تمييز الصحيح من حديث رسول الله ﷺ من الحديث الموضوع.

يقول الشيخ أبو جعفر الإسكافي: إنّ معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في عليّ عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه منهم: أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ومن التابعين عروة بن الزبير[1].

وقال ابن عرفة المعروف بنفطويه: (إنّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتُعلت في أيام بني أمية تقرّباً إليهم بما يظنون أنهم

---

١ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ٦٣.

يرغمون به أنوف بني هاشم)[١].

وكتب معاوية تعميماً إلى عمّاله وولاته على البلدان:

(انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه، وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه، فادنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته).

ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصِلات والكساء والجباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي فكثر ذلك في كل مِصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمّال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقرّبه وشفّعه فلبثوا ذلك حيناً.

ثم كتب إلى عماله: أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل ناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحبّ إليّ وأقرّ لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشد إليهم من مناقب عثمان وفضله.

فقرئت كتبه على الناس فرُويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر)[٢].

١ ـ النصائح الكافية: ٧٤. شرح نهج البلاغة ١١: ٤٦.

٢ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ١١: ٤٤ـ٤٥.

أبو هريرة

وأبرز هؤلاء الصحابة الذين استطاع معاوية أن يستغلّهم لأهدافه السياسية الصحابي المكثر أبو هريرة. فقد استغلّ معاوية سذاجته، وضعف شخصيته، وأدخل على يده من الموضوعات على حديث رسول الله ﷺ ما شاءت له أهواؤه وأطماعه السياسية.

وأغدق عليه معاوية من المال والمناصب ما أشبع به حاجة أبي هريرة إلى المال والسلطان والدنيا. قال أبو جعفر الإسكافي: روى الأعمش، قال: لمّا قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة[1] جاء إلى مسجد الكوفة فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه، ثم ضرب صلعته مراراً. وقال:

يا أهل العراق أتزعمون إنّي أكذب على الله ورسوله، وأحرق نفسي بالنار. والله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل نبي حرماً وإن حرمي بالمدينة ما بين عَيْر إلى ثور فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وأشهد بالله أن علياً أحدث فيها، فلمّا بلغ معاوية قوله أجازه وأكرمه وولاّه إمارة المدينة»[2].

ولئن كان أبو هريرة قد باع دينه لمعاوية بثمن بخس من الدنيا، فيجلس في مسجد الكوفة ليحدّث الناس في ذمّ عليّ عليه السلام ليرضي بذلك معاوية، فلن تخلو الأرض من رجال أشداء من عامة الناس يصدعون بالحق يصكّون به جبهة أبي هريرة، ولا يعرف التاريخ لهم اسماً ولا رسماً.

---

١ ـ هو العام الذي نزل فيه الحسن عليه السلام عن الحكم إلى معاوية حقنا لدماء المسلمين سنة ٤١ هـ وسموه عام الجماعة.

٢ ـ شرح النهج ٤: ٦٧.

روى سفيان الثوري: أنّ أبا هريرة لمّا قدم الكوفة مع معاوية كان يجلس بالعشيات بباب كندة، ويجلس الناس إليه، فجاء شاب من الكوفة فجلس إليه فقال:

يا أبا هريرة أُنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول لعليّ بن أبي طالب: «اللهم وال من والاه وعادِ من عاداه»، فقال: اللهم نعم. قال: فأشهد بالله لقد واليت عدوّه وعاديت وليّه ثم قام عنه[1].

سمرة بن جندب:

ورُوي أن معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي أن هذه الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[2]، وأن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم وهي قوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾[3].

...فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف درهم فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف درهم فقبل وروى ذلك[4].

---

١ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ٤: ٦٨.

٢ ـ البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

٣ ـ البقرة: ٢٠٧.

٤ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ٤: ٧٣.

الغايات السياسية لوضع الحديث عند بني أمية

شجّع معاوية انتحال الحديث على رسول الله ﷺ لتمرير مجموعة من الأهداف والغايات السياسية أهمها:

١. محاربة أمير المؤمنين عليه السلام والتشهير به في الأوساط الإسلامية:

وقد مرّ عليك طرف من موضوعات أبي هريرة وسمرة بن جندب في ذلك، وكان عروة بن الزبير من أولئك الذين استغلّهم معاوية استغلالاً سيئاً للنيل من الإمام عليه السلام.

روى عبد الرزاق عن معمّر: قال: كان عند الزهري حديثان عن عروة عن عائشة في علي عليه السلام ـ أي في النيل منه ـ فسألته عنهما يوماً. فقال: ما تصنع بهما وبحديثهما؟ والله أعلم بهما. إنّي لأتّهمهما في بني هاشم[١] (أي في عداء بني هاشم).

وشاعت هذه الأحاديث حتى أن بعضها قد شقّ طريقه إلى كتاب صحيح البخاري.

روى البخاري عن عمرو بن العاص قال:

سمعت النبي ﷺ جهاراً غير سرّ يقول:

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ٤: ٦٤.

إن آل أبي... ليسوا بأوليائي، وإنما وليّي الله وصالح المؤمنين[١].

والرواية في الأصل: آل أبي طالب، إلاّ أن المحدثين أسقطوا كلمة طالب، وأوردوا الحديث بهذه الصورة. قال أبو بكر بن العرب: كان في أصل حديث عمرو بن العاص إنّ آل أبي طالب، فغيّر إلى (آل أبي فلان) وتعقّبه بعض الناس، وبالغ في التشنيع عليه ونسبه إلى التحامل على آل أبي طالب[٢] وكان من أولئك الذين استغلّهم معاوية في النيل من الإمام المغيرة بن شعبة.

يقول أبو جعفر الإسكافي: وكان المغيرة بن شعبة صاحب دنيا يبيع دينه بالقليل النزر منها، يرضي معاوية بذكر عليّ بن أبي طالب عليه السلام[٣].

وموضوعات معاوية خاصة وبني أمية عامة في الإمام كثيرة لا يمكن إحصاؤها واستعراضها في هذا الاستطراد.

٢. الإشادة بذكر معاوية:

وتسابق هواة الدنيا والطامعون في دنيا بني أمية إلى كسب ودّ معاوية بوضع الأحاديث في فضائل معاوية، وكثرت الأحاديث في فضائل معاوية، وقد نقل الشيخ عبد الحسين الأميني رحمه الله في المجلد العاشر من الغدير ٣٧٤ـ ٣٨٣ جملة من الأحاديث الموضوعة في فضل معاوية، ونقدها من حيث السند ومن حيث الدلالة.

وأكثر من روى هذه الأحاديث شاميون ضعفاء عند أهل الجرح والتعديل ولنذكر جملة من هذه الأحاديث لنلمس عن قرب الجهود الكبيرة

---

١ ـ صحيح البخاري بهامش فتح الباري ١٠: ٣٥١ ـ ٣٥٢.

٢ ـ فتح الباري ١٠: ٣٥٢.

٣ ـ شرح النهج ٤: ٧٠.

التي بذلها معاوية في تزوير الحديث ووضعه للأهداف السياسية، والأثر السلبي الذي تركه انتحال الحديث على الحديث النبوي، المصدر الثاني للتشريع في الإسلام، روى الترمذي في السنن عن عبد الرحمن بن أبي عمير عن النبي ﷺ أنه قال لمعاوية: اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به[١].

ورواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد[٢]، وقد ناقش العلّامة الأميني الحديث فقال: قال أبو عمرو في الاستيعاب: عبد الرحمن حديثه مضطرب لا يثبت في الصحابة وهو شاميّ لا تثبت أحاديثه ولا تصح صحبته[٣]. وقال: رجال الإسناد كلهم شاميون، وهم:

(١) أبو سهر الدمشقي.

(٢) سعيد بن عبد العزيز الدمشقي.

(٣) ربيعة بن يزيد الدمشقي.

(٤) ابن أبي عميرة الدمشقي[٤].

وقال الواقدي: إنّ معاوية كتب كتاباً، وجمع أهل الشام فقرأه عليهم وفيه: (هذا كتاب كتبه أمير المؤمنين معاوية صاحب وحي الله الذي بعث محمداً نبياً، وكان أمّياً لا يقرأ ولا يكتب، فاصطفى له من أهله وزيراً وكاتباً أميناً، فكان الوحي ينزل على محمد ﷺ، وأنا أكتبه وهو لا يعلم ما أكتب فلم يكن بيني وبين الله أحد من خلقه، فقال له الحاضرون كلهم: صدقت يا

---

١ ـ سنن الترمذي كتاب المناقب باب مناقب معاوية بن أبي سفيان ٥: ٦٧ مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

٢ ـ تاريخ بغداد ١: ٢٠٨.

٣ ـ نقلاً عن الاستيعاب ٢: ٣٩٥.

٤ ـ الغدير ١٠: ٣٧٦.

أمير المؤمنين)[١].

وعن أنس مرفوعاً: هبط عليّ جبرائيل ومعه قلم من ذهب إبريز، فقال: إن العليّ الأعلى يقرؤك السلام ويقول لك حبيبي قد أهديت هذا القلم من فوق عرشي إلى معاوية بن أبي سفيان.... الخ.

رواه ابن عساكر باختصار، ذكره السيوطي في الموضوعات.

وروي أن النبي ﷺ استشار جبرائيل في أن يستكتب معاوية. فقال: استكتبه فإنه أمين. ذكره السيوطي في الموضوعات[٢].

وعن أبي هريرة مرفوعاً: الأمناء عند الله ثلاثة: أنا وجبرائيل ومعاوية. ذكره السيوطي في الموضوعات[٣].

وروي أن جبرائيل جاء إلى رسول الله ﷺ وعنده معاوية يكتب، فقال: يا محمد إن كاتبك هذا لأمين. ذكره السيوطي في الموضوعات[٤].

ورُوي أن جبرائيل أتى النبي فقال: يا محمد اقرأ معاوية السلام استوصِ به خيراً، فإنّه أمين الله على كتابه ووحيه، ونعم الأمين هو.

ذكره السيوطي في الموضوعات[٥].

وعن أبي هريرة: أن النبي ناول معاوية سهماً، وقال: خذ هذا السهم حتى تلقاني به في الجنة. وورد هذا المضمون بطرق وصيغ مختلفة ذكرها

١ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ١: ٣٦١ ط.١ بمصر نقلاً عن الصراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام: ٦٥.

٢ ـ اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي ١: ٤١٤ ط.٢ سنة ١٣٩٥هـ.

٣ ـ اللآلئ المصنوعة للسيوطي ١: ٤١٥.

٤ ـ اللآلئ المصنوعة للسيوطي ١: ٤١٩.

٥ ـ اللآلئ المصنوعة للسيوطي ١: ٤١٩.

السيوطي كلها في الموضوعات[١].

وروى أيضاً: أن النبي ﷺ دفع إلى معاوية سفرجلة. وقال: القني بها في الجنة. وورد بطرق وصيغ مختلفة ذكرها السيوطي كلها في الموضوعات[٢].

وحدّث يعيش بن الجهم، قال: كنت عند مالك بن أنس، فجاءه رسول أمير المؤمنين أن لا يحدّث بحديث السفرجلة فقرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾[٣]، ثم قال: لأحدّثن به الساعة. ذكره السيوطي في الموضوعات. وعن حذيفة مرفوعاً: يُبعث معاوية يوم القيامة وعليه رداء من نور الإيمان.

ذكره السيوطي في الموضوعات[٤].

وعن أنس مرفوعاً: لا أفتقد أحداً من أصحابي غير معاوية بن أبي سفيان، لا أراه ثمانين سنة ثم يقبل على ناقة من المسك الأذفر حشوها من رحمة الله قوائمها من الزبرجد، فأقول: معاوية!! فيقول: لبيك، فأقول: أين كنت من ثمانين عاماً؟ فيقول: في روضة تحت عرش ربي يناجيني وأناجيه، فيقول: هذا عوض ما كنت تُشتم في الدنيا...[٥].

والحديث طويل ذو شجون فيما اقترفه معاوية من الجرائم على حديث رسول الله ﷺ عن عمد وقصد.

ولم يصح عند البخاري حديث واحد من هذه الأحاديث فقد خصّه في

١ ـ اللآلئ المصنوعة للسيوطي ١: ٤٢١ ـ ٤٢٢.

٢ ـ اللآلئ المصنوعة للسيوطي ١: ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

٣ ـ البقرة: ١٥٩.

٤ ـ اللآلئ المصنوعة للسيوطي ١: ٤٢٣.

٥ ـ اللآلئ المصنوعة للسيوطي ١: ٤٢٤.

كتابه (الصحيح) بعنوان باب ذكر معاوية ولم يعنونه بعنوان مناقب معاوية، ولم يذكر له منقبة[١].

وقال إسحاق بن راهويه: لا يصح في فضل معاوية بن أبي سفيان عن النبي ﷺ شيء[٢].

٣ ـ موضوعات في فضل الشام:

كان معاوية يعد ويخطط لإعطاء الشام مركز حكمه وسلطانه قدسيةً واحتراماً خاصّاً في الأوساط الإسلامية وكان يحاول أن ينقل القدسية والمركزية من الحرمين الشريفين إلى الشام.

وروى الواقدي: أن معاوية لمّا عاد من العراق إلى الشام بعد بيعة الحسن عليه السلام سنة ٤١ هـ خطب فقال: (أيّها الناس إن رسول الله قال: إنك ستلي الخلافة من بعدي، فاختر الأرض المقدسة فإن فيها الأبدال. وقد أخبرتكم، فالعنوا أبا تراب)[٣]. وبعد تصريح معاوية هذا كثر الوضع في الأبدال، وقد نقل جملة منها ملا علي القارئ في الموضوعات منها: (الأبدال من الأولياء).

وعن عبادة بن الصامت مرفوعاً: (الأبدال في هذه الأمة ثلاثون منهم إبراهيم خليل الرحمن كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً)[٤]، وقد عدّه ملا علي القارئ من الموضوعات[٥].

---

١ ـ صحيح البخاري ٢: ٢٤٩ ط. سنة ١٢٨٦ هـ.

٢ ـ الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة لملا علي القارئ: ٤٧٧ تحقيق محمد الصباغ.

٣ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ١: ٣٦١ ط.١ بمصر، عن كتاب: الصراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام: ٩٤.

٤ ـ مسند أحمد بن حنبل ٥: ٣٢٢.

٥ ـ الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة لملا علي القارئ: ٧٦ـ٧٧.

ومنها: (الأبدال بالشام وهم أربعون رجلاً كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً يُسقي بهم الغيث ويُنتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب)[١].

ومنها: (الأبدال في أهل الشام بهم ينصرون وبهم يرزقون) عن عون بن مالك.

ومن كثير من هذه الروايات تفوح رائحة الشام التي كانت تعجب معاوية بن أبي سفيان كثيراً، والتي تستوقف الباحث طويلاً، وتشككه في صحتها سنداً ودلالة.

٤. ترويض الأمة للطاعة:

لم يشفع لمعاوية جلال السلطان وهيبة الخلافة في نسيان ماضيه، وما اكتنف حياته من جرائم وفي مقدمتها صفّين، ومحاربة الإمامين علي بن أبي طالب والحسن عليهما السلام.

ورغم إعلان الإمام الحسن عليه السلام الهدنة ومتاركة الحرب مع معاوية بموجب شروط تنكّر لها فيما بعد، ورغم انفراده بالحكم والسلطان في الساحة الإسلامية بعد مهادنة الإمام الحسن عليه السلام له، فقد ظل حكم معاوية وولايته من الناحية الشرعية موضع كثير من الريب والتساؤل، ولا سيما لدى أهل العراق والحجاز.

ولذلك عمد معاوية، ومن بعده ممن جاء من حكّام بني أمية إلى العمل

---

١ ـ منتخب كنز العمال بهامش المسند ٥: ٣٢١ ـ ٣٢٢، وقد أفرد جماعة موضوع الأبدال برسائل مستقلة منهم السخاوي له رسالة سمّاها (نظم اللآل) والسيوطي ألف كتاباً سمّاه (القول الدال) وغيرهم.

على ترويض الأمة لطاعة الحكّام من بني أمية في الشام، والصبر على أذاهم وظلمهم وعدوانهم.

قال العجّاج الراجز: قال لي أبو هريرة:

ممّن أنت؟ قلت: من أهل العراق.

قال: يوشك أن يأتيك بقعان الشام فيأخذوا صدقتك، فإذا أتوك فتلقّهم بها، فإذا دخلوها فكن في أقاصيها، وخلّ عنهم وعنها، وإيّاك أن تسبّهم فإنّك إن سببتهم ذهب أجرك وأخذوا صدقتك، وإنْ صبرت جاءت في ميزانك يوم القيامة[١].

وعن زيد بن وهب قال: سمعت عبد الله قال: قال لنا رسول الله ﷺ: إنّكم سترون بعدي أَثَرَةً وأموراً تنكرونها. قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدّوا إليهم حقهم وسلوا الله حقّكم[٢].

وهذا أقصى ما يطلبه الحكّام الظلمة.

وعن جنادة بن أمية، قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض فقلنا: أصلحك الله. حدّثنا بحديث ينفعك الله به، سمعته من النبي ﷺ. قال: دعانا النبي ﷺ فبايعنا فقال فيما أخذ علينا إنْ بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلاّ أنْ تروا كفراً بوّاحاً عندك من الله فيه برهان[٣].

والاستثناء الوارد في الرواية يستوقف الإنسان طويلاً، إنّ الذي يعرف روح الإسلام وأصوله في الحكم، وخطه الثوري في مواجهة الحكّام

---

١ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة: ٥٧٢.

٢ ـ صحيح البخاري ٤: ١٨١ كتاب الفتن ط. مصر ١٢٨٦ هـ.

٣ ـ المصدر السابق.

المنحرفين يكاد يطمئن أنّ هذه الرواية أقرب إلى سياسة بني أمية منه إلى حديث رسول الله ﷺ.

فهو ينصح ـ أو يأمر ـ بالسكوت عن ظلم الحكام وفجورهم وإجهارهم بالمنكرات والخمر والزنا والقمار وإراقة دماء المسلمين في غير حق، إلا أن يكون كفراً بوّاحا، وليس شيئاً من هذه المنكرات من الكفر البواح.

ويستوقفنا في سند هذا الحديث جنادة بن أمية الذي يروي الحديث عن عبادة بن الصامت فهو كان والياً لمعاوية على البحرين وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل الشام[١].. عامل من عمال معاوية، ومن أهل الشام، ويروي عن رسول الله وجوب الطاعة للحكام على كل حال إلا أن يروا كفراً بوّاحاً.

وروى البخاري عن أبي إدريس الخولاني: أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنّا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر. قلت: وهل بعد ذلك الخير من شر. قال: نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا.

قلت: فما تأمرني إنْ أدركني ذلك. قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم.

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام. قال: فاعتزل تلك الفرق كلها،

---

١ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٢: ١١٦ دار المعارف بحيدر آباد ١٣٢٥.

ولو أن تعضّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك[١].

ويستوقفنا في هذه الرواية سندها أولاً ومتنها ثانياً.

فعن سند الرواية يقول ابن حجر العسقلاني في الفتح: والسند كله شاميّون إلا الشيخ البخاري والصحابي[٢]. وعن أبي إدريس الخولاني: (عائذ بن عبد الله) التابعي الذي يروي الخبر عن الصحابي يقول ابن حجر: كان قاص أهل الشام وقاضيهم[٣]. ومتن الرواية ليس بغريب عن السند، ففي الشر الذي يأتي بعد الخير يتولى الأمر (دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها).

والرواية تأمر المسلمين بلزوم هؤلاء الأئمة مهما جاروا وظلموا، كما يقول ابن حجر: (إلزم جماعة المسلمين وإمامهم يعني ولو جاروا، وتوضّح ذلك رواية أبي الأسود، ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك، وكان مثل ذلك كثيراً في إمارة الحجاج ونحوه)[٤].

(وعن ابن بطّال: فيه حجّة لجماعة الفقهاء (أتى الفقهاء) في وجوب لزوم جماعة المسلمين وترك الخروج على أئمة الجور لأنه وصف الطائفة الأخيرة بأنهم دعاة على أبواب جهنم، ولم يقل فيهم تعرف وتنكر كما قال في الأولين، وهم لا يكونون كذلك إلا وهم على غير حق، وأمر مع ذلك بلزوم الجماعة)[٥].

---

١ ـ صحيح البخاري ٤: ١٨٤ ط. مصر ١٢٨٦ هـ، ورواه مسلم في كتابه الصحيح ٦: ٢٠ دار الفكر بيروت كتاب الإمارة باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة.

٢ ـ فتح الباري ١٣: ٣٠.

٣ ـ تهذيب التهذيب ٥: ٨٥

٤ ـ فتح الباري ١٣: ٣١.

٥ ـ فتح الباري ١٣: ٣١.

هـذا مع قيام إمام (حاكم وخليفة) ووجود جماعة، وإن لم توجد جماعة ولم يكن إمام فتأمر الرواية بالاعتزال.

ولا نعلم كيف نجمع بين هـذه الرواية والآيات القرآنية الصريحة في حرمة الركون إلى الظالمين ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[١]. والآيات والأحاديث الواردة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحرمة الخلود إلى العافية والتحلّل عن المسؤولية الشرعية تجاه المسلمين.

وروى مسلم في (الصحيح) عن زيد بن سلاّم عن ابن سلام قال حذيفة اليمان: قلت: يا رسول الله: إنّا كنّا بشرٍ فجاء الله بخير، فنحن فيه، فهل من وراء هـذا الخير شر؟ قال: نعم. قلت: هل وراء ذلك الشر خير؟ قال: نعم، قلت: كيف؟ قال: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنّون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس، قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك. قال: تسمع وتطيع للأمير وإن ضربَ ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع[٢].

وفي سند هـذه الرواية يقع زيد بن سلام الدمشقي[٣] وأبوه أبو سلاّم (ممطور)[٤] وكلاهما شاميان.

وروى مسلم عن عبد الرحمن يزيد بن جابر عن مولى بني فزارة (وهو زريق بن حيان) أنه سمع مسلم بن قرظه أن عم عوف بن مالك الأشجعي

---

١ ـ هود: ١١٣.

٢ ـ صحيح مسلم ٢٠: ٦ كتاب الإمارة باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن.

٣ ـ تهذيب التهذيب ٢: ٤١٥.

٤ ـ تهذيب التهذيب ١٠: ٢٩٦.

يقول سمعت عوف بن مالك الأشجعي يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: خيار أئمتكم الذين تُحبّونهم ويحبونكم وتصلّون عليهم ويصلّون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم.

قالوا: قلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك، قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من وُلِّي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يداً من طاعة.

قال ابن جابر: فقلت (يعني لزريق) حين حدّثني بهذا الحديث: الله يا أبا المقدام لحدثك بهذا أو سمعت هذا من مسلم بن قرظة؟ يقول: سمعت عوفاً يقول: سمعت رسول الله ﷺ، قال: فجثا على ركبتيه واستقبل القبلة، فقال: أي والله الذي لا إله إلا هو لسمعته من مسلم بن قرظة، يقول: سمعت عوف بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ[١].

ويستوقفنا سند هذا الحديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الشامي قال عنه الفلاس: (ضعيف الحديث روى عن أهل الكوفة أحاديث مناكير)[٢].

وزريق بن حيّان الذي يروي عنه عبد الرحمن كان على جوار مصر ومن الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز[٣]، وهو شاميّ كذلك ولأه الوليد وسليمان وعمر عشور أموال التجارة[٤].

ويستوقفنا في متن الرواية شك عبد الرحمن بن يزيد في الرواية، وكأنه

---

١ ـ صحيح مسلم ٦: ٢٥ كتاب الإمارة باب خيار الأئمة وشرارهم.

٢ ـ تهذيب التهذيب ٦: ٢٩٨ دار التعارف.

٣ ـ الجرح والتعديل للرازي ١ ـ قسم ٢ ص ٥٠٥ دار المعارف العثمانية بحيدر آباد.

٤ ـ تهذيب التهذيب ٣: ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

سمع أمراً غريباً أو انه يحاول إزالة الغرابة عن متن الحديث.

وأغرب من ذلك كله هو تحريم منابذة هؤلاء الحكّام الذين يجاهرون بمعصية الله، ويلعنون المسلمين ويلعنهم المسلمون، وعدم جواز الخروج عليهم ما أقاموا الصلاة، مهما كانت جرائمهم وقبائح أعمالهم، وإن أعلنوا شرب الخمر والزنا وجاهروا بالكبائر من المحرمات.

أما نحن فنطمئن أنّ هذا ليس من حديث رسول الله ﷺ في شيء، وليس من روح الإسلام وتعاليمه وتشريعاته، وإن مثل هذه الروايات أضيفت إلى أحاديث رسول الله ﷺ أيام كان الخلفاء يجاهرون بالفسق والفجور من الزنا وشرب الخمر وسائر المنكرات والكبائر سراً وعلانية.. فكانوا يدسّون هذه الروايات في أحاديث رسول الله ﷺ، ليهدأوا الناس ويحولوا دون خروجهم، ولئلا يزعجهم خارج أو يُقلق صفو عيشهم ثائر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وروى ابن ماجة قال: حدثنا العباس بن الوليد الدمشقي حدّثنا زين يحيى بن عبيد الخزاعي حدّثنا الهيثم بن حميد حدّثنا أبو معيد حفص بن غيلان الرعيني عن مكحول عن أنس بن مالك، قال: قيل: يا رسول الله متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم. قلنا: يا رسول الله، وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: (الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رذالتكم)[١].

وقد راجعنا كتب الرجال والجرح والتعديل فوجدنا أن سند الرواية كلهم

---

١ ـ سنن ابن ماجة ٢: ١٣٣١ حديث رقم ٤٠١٥ كتاب الفتن باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ سورة المائدة: ١٠٥.

شاميّون عدا الصحابي، أمّا مكحول الذي يروي عن أنس فهو شاميّ قدريّ.

قال ابن سعد: قال بعض أهل العلم: كان مكحول من أهل كابل وكانت فيه لَكْنة كان يقول بالقدر وكان ضعيفاً في حديثه ورأيه[١].

وأما حفص بن غيلان الرعيني فقد كان شامياً اختلفت فيه أقوالهم فقال أبو حاتم: تكتب حديثه ولا يُحتج به.

وروى ابن عساكر عن إسحاق بن سيار النصيبي أنه قال: أبو معيد (حفص بن غيلان) ضعيف الحديث.

وقال ابن عدي: سمعت عبد الله بن سليمان بن الأشعث يقول: حفص بن غيلان ضعيف.

وعن ابن داود: كان يرى القدر ليس بذاك دمشقي[٢].

أمّا الهيثم بن حميد الشامي فقد قال عنه أبو مسهر: كان ضعيفاً قدرياً، وكان صاحب كتب ولم يكن من الأثبات، ولا من أهل الحفظ وقد كنت أمسكت عن الحديث عنه واستضعفته[٣].

وكما ترون. فإن سند الحديث شاميّون إطلاقاً عدا الصاحبي وأكثرهم قدريّون وضعفاء عند جملة من علماء الجرح والتعديل.

وروى أحمد في المسند عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذ به[٤].

---

١ ـ تهذيب التهذيب ١٠: ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

٢ ـ تهذيب التهذيب ٢: ٤١٨ ـ ٤١٩.

٣ ـ تهذيب التهذيب ١١: ٩٢ ـ ٩٣.

٤ ـ مسند أحمد بن حنبل ٢: ٢٨٢.

وروى أحمد في المسند عن عثمان الشحّام قال: حدّثنا مسلم بن أبي بكرة عن أبيه عن رسول الله ﷺ: قال إنها ستكون فتن، ثم تكون فتن ألا فالماشي خير من الساعي إليها، ألا والقاعد فيها خير من القائم فيها، ألا والمضطجع فيها خير من القاعد، ألا فإذا نزلت فمن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ألا ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، ألا ومن كانت له إبل فليلحق بإبله.

فقال رجل من القوم: يا نبيّ الله جعلني الله فداك، أرأيت من ليست له غنم ولا أرض كيف يصنع؟

قال: فليأخذ سيفه ثم ليعمد به إلى صخرة ثم ليدق على حدّه بحجر ثم لينبح إن استطاع...[1]

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرّف لها تستشرفه، فمن وجد فيها ملجأً أو معاذاً فليعذ به[2].

هذه جملة من الروايات المرويّة عن رسول الله ﷺ وبعضها ورد في الصحيحين.

وفي إسناد بعضها مناقشات ومؤاخذات واضحة، وشطر كبير من رجال إسنادها من الشام بالذات. ونحن مع الغض عن المناقشة في إسناد هذه الروايات نشك في صدور هذه الروايات عن رسول الله ﷺ شكاً قوياً.

---

١ ـ مسند أحمد بن حنبل ٥: ٤٨.اختلفت كلمتهم في عثمان الشحّام أحد رواة هذه الرواية فقال يحيى بن سعيد القطان: يعرف وينكر، ولم يكن عندي بذاك، وقال النسائي: ليس بالقوي. تهذيب التهذيب ٧: ١٦١.

٢ ـ صحيح البخاري ٤: ١٨٣، ط. مصر ١٢٨٦، كتاب الفتن باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم.

ونطمئن إلى أن هذه الروايات لا تنسجم مع روح الإسلام وأفكاره وتصوراته... وأنها أشبه بالاتّجاه السياسي أيام بني أمية منها بكلمات رسول الله ﷺ.

فإن الجو الذي صدرت فيه هذه الروايات يشبه أن يكون من الأجواء السياسية التي تطلب من الناس الخنوع والرضوخ للحكّام والسكوت عن جرائمهم وأعمالهم وترك ما لقيصر لقيصر، وما لكسرى لكسرى، والتغاضي عن شطط الحكام وطيشهم، والاكتفاء بخروجهم للصلاة في أيام الجُمع وخروجهم للحج، وعدم التعرّض لأعمالهم في نهب بيت مال المسلمين، وفي إفساد المجتمع الإسلامي وتجاوز حدود الله والإجهار بالمنكرات وعدم التصدي لشيء من منكراتهم وجرائمهم مهما بلغت، ومهما تظاهروا به، ما داموا يقيمون الصلاة، لئلا تتعكّر لياليهم الحمراء التي يقضونها مع الخمور والفجور والغواني والأغاني، وعدم نبذ الطاعة ونقض البيعة حتى لا تكون موتتهم ميتة جاهلية، كما يقول عبد الله بن عمر: وأنّ المضطجع خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الساعي حتى يستقيم الأمر لبني أمية من غير تشويش أو تعكير ومن دون متاعب ومشاكل، فإنّ من يخرج على يزيد بن معاوية ويزيد بن الوليد الفاسقين يموت ميتة جاهلية وينقض عهد الله وميثاقه كما تقول هذه الروايات.

أمّا أنا فأرى أنّنا لسنا بحاجة إلى مناقشة إسناد هذه الروايات لنثبت الشك فيها ونسلب الثقة منها، فإن من يعرف شيئاً عن الإسلام وروحه الثورية ودعوته مكافحة الظلم وتحريمه للركون إلى الظالمين، وإيجابه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يطمئن إلى أنّ هذه الروايات قد أضيفت إلى الإسلام إضافة دونما ورع أو تقوى، لأهداف سياسية، وأدخلت في المتون

الإسلامية ومجامع الحديث والصحاح في غفلة من علماء الحديث ونقّاد الجرح والتعديل الذين يخضعون الروايات للنقد من حيث السند غالباً، فإذا سلم لديهم السند سلم لديهم المتن، ولا يفكّرون في نقد المتن كما ينقدون السند، ولا تقل أهمية نقد المتون في الروايات عن نقد الإسناد.

ومهما يكن من أمر، فإنّنا عندما نستعرض هذه الروايات ونقارنها بالروح الثورية في الإسلام الرافضة للظلم، والداعية إلى الخروج على الظالمين نسمح لأنفسنا بالشك في هذه الروايات ونسمح لأنفسنا باتّهام الحكم الأموي في اختلاقها وإضافتها إلى رسول الله ﷺ، وإدخالها في مجامع الحديث، وإعطائها الصفة الشرعية.

موقف الإسلام من الظالمين:

ونظرة الإسلام في التعامل مع الظالمين ورفض الظلم، وتحريم الركون إلى الظالمين وموالاتهم، واضحة من خلال القرآن والسنة المتواترة، ولا يحوجنا إثباته إلى جهد أو تكلّف في الاستدلال.

فالقرآن الكريم يحرّم الركون إلى الظالمين والإنصياع لهم ومودتهم وموالاتهم بصراحة.

يقول تعالى: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾[1].

يقول القرطبي: قال قتادة: معناه لا تودوهم ولا تطيعوهم، وقال ابن جريج: لا تميلوا إليهم، وقال ابن دريد الركون هنا الإدهان[2].

---

١ ـ هود: ١١٣.

٢ ـ تفسير القرطبي ٩: ١٠٨، والإدهان: المصانعة.

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قيل: أهل الشرك، وقيل: عامة فيهم وفي العصاة. وهذا في معنى الآية، وإنّها دالّة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم، فإن صحبتهم كفر أو معصية[١].

ويقول السيد الطباطبائي في مناقشة صاحب تفسير المنار: في اختصاص (الظالمين) في هذه الآية بالمشركين (وأيُّ مانع يمنع الآية من أن تشمل الظالمين من هذه الأمة وفيهم من هو أشقى من جبابرة عاد وثمود، وأطغى من فرعون وهامان وقارون.

ومجرّد كون الإسلام عند نزول السورة مُبْتَلَى بقريش، ومشركي مكة، وحواليها لا يوجب تخصيصاً في اللفظ فإن خصوص المورد لا يخصص عموم اللفظ، والآية تنهى عن الركون إلى كل من اتّسم بسمة الظلم، كان مشركاً أو موحّداً مسلماً أو من أهل الكتاب)[٢].

والروايات بهذا المضمون كثيرة بالغة حد التواتر وواضحة وصريحة ومنسجمة مع كتاب الله وروح الإسلام وتعاليمه وأحكامه، ولا يمكننا هنا أن نستقصي هذه الروايات جميعاً، وإنما ننقل منها بعض النماذج.

روى الترمذي عن طارق بن شهاب قال: أول من قدّم خطبة قبل الصلاة مروان، فقام رجل فقال لمروان: (خالفت السنّة)، فقال: يا فلان ترك ما هنالك، فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكراً فلينكره بيده، ومن لم يستطع فبلسانه، ومن لم

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ تفسير الميزان ١١: ٥٤.

يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح[١].

وهـذا الحديث والأحاديث التي بمعناه في تغيير المنكر، والتصدّي لـه باليد أو اللسـان أو القلـب وذلـك أضعف الإيمان يعاكس تماماً رواية (المضطجع فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الساعي).

وفيما يشير هذا الحديث والأحاديث التي بمعناها إلى العدّ التصاعدي في المواجهـة، تشـير الفـئة الثانـية مـن الروايات إلى العد التنازلي في المواجهة، حـتى يصـل إلـى مـرحلة الإضـطجاع فذلـك أقـوى الإيمـان!! حيـث تستقيم للظالميـن أمورهـم، ويهـدأ بـالهم وتطمـئن نفوسـهم، ورواه بلفظ قريب منه مسلم في كتابه الصحيح[٢].

واقتصـر المـنذري فـي الترغيب والترهيب على رواية أبي سعيد الخدري لحديث رسول الله[٣]، ورواه أحمد في المسند[٤] في موضعين من كتابه.

ورواه أيضـاً ابـن ماجـة فـي السـنن[٥] والنسـائي في السنن[٦]، بقدر ما يخص روايـة أبي سعيد لحديث رسول الله ﷺ وبلفظ قريب منه المتقي الهندي في

---

١ ـ سنن الترمذي ٤: ٤٦٩ ـ ٤٧٠ مطبعة مصطفى البابي، كتاب الفتن باب ما جاء في تغيير المنكر باليد واللسان، حديث ٢١٧٢.

٢ ـ صحيح مسلم ١: ٥٠، دار الفكر كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان.

٣ ـ الترغيب والترهيب ٣: ٢٢٣.

٤ ـ مسند أحمد بن حنبل ٣: ١٠، منه مسانيد أبي سعيد الخدري ورواه أيضاً في المسند ٣: ٥٤.

٥ ـ سنن ابن ماجة ٢: ١٣٣٠، حديث رقم ٤٠١٣ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي.

٦ ـ سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي دار إحياء التراث العربي بيروت ٨: ١١١ ـ ١١٢ كتاب الإيمان باب تفاضل أهل الإيمان.

كنز العمال[1].

وروى الترمذي في السنن عن أبي سعيد الخدري أن النبيﷺ قال: (**إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**)[2].

ورواه أيضاً ابن ماجة في السنن[3].

وروى ابن ماجة عن أبي أُمامة قال: عرض لرسول اللهﷺ رجل عند الجمرة الأولى، فقال: يا رسول الله أي الجهاد أفضل؟ فسكت عنه، فلما رأى الجمرة الثانية، سأله فسكت عنه، فلما رمى جمرة العقبة وضع رجله في الغرز ليركب، قال: (أين السائل؟)، قال: أنا يا رسول الله، قال: (**كلمة حق عند ذي سلطان جائر**)[4].

وروى قريباً منه المنذري في الترغيب والترهيب[5].

وروى: (**أحب الجهاد إلى الله كلمة حق تقال لإمام جائر**)[6].

وعن جابر رضي الله عنه عن النبيﷺ قال: **سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه فقتله**، رواه الترمذي والحاكم وقال: صحيح الإسناد[7].

وروى الترمذي عن النعمان بن بشير قال: قال رسول اللهﷺ: **مثل القائم**

١ ـ كنز العمال للمتّقي الهندي الحديث رقم ٥٥٥٦.

٢ ـ سنن الترمذي ٤: ٤٧١ حديث رقم ٢١٧٤ كتاب الفتن.

٣ ـ سنن ابن ماجة ٢: ١٣٢٩ حديث رقم ٤٠١١.

٤ ـ سنن ابن ماجة ٢: ١٣٣٠ حديث رقم ٤٠١٢.

٥ ـ الترغيب والترهيب ٣: ٢٢٥.

٦ ـ كنز العمال حديث رقم ٥٥١١ و ٥٥١٢ و ٥٥١٤.

٧ ـ الترغيب والترهيب ٣: ٢٢٥.

على حدود الله والمداهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها يصعدون، فيستقون الماء فيصبون على الذين في أعلاها، فقال الذي في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها: فإنّنا ننقبها من أسفلها فنستقي، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعاً، وإن تركوهم غرقوا جميعاً[١].

ورواه المنذري في الترغيب والترهيب[٢].

وقال رجل لأمير المؤمنين عليه السلام في وقعة صفين: (ترجع إلى عراقك ونرجع إلى شامنا) فقال عليه السلام: «لقد عرفت أنّ ما عرضت هذا نصيحة وشفقة... إن الله تبارك وتعالى لم يرضَ من أوليائه أن يعصى في الأرض، وهم سكوت مذعنون لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فوجدت القتال أهون عليّ من معالجة الأغلال في جهنّم»[٣].

وروى ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قام خطيباً فكان فيما قال: (ألا لا يمنعنّ رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا عَلِمه)، وكان أبو سعيد يبكي ويقول: قد والله رأينا أشياء فهبنا[٤].

وروى ابن ماجة أيضاً عن عبد الله بن جرير عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي هم أعزّ منهم وأمنع لا يغيّرون، إلا

---

١ ـ سنن الترمذي ٤: ٤٧٠ الحديث رقم ٢١٧٣ كتاب الفتن باب ١٢ منه.

٢ ـ الترغيب والترهيب ٣: ٢٢٥.

٣ ـ نهج السعادة ٢: ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

٤ ـ سنن ابن ماجة ٢: ١٣٢٨ حديث رقم ٤٠٠٧.

عمّهم الله بالعقاب)[1].

وروى المتّقي الهندي ما بمعنى ذلك[2].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لكعب بن بحجرة: أعاذك الله من إمارة السفهاء، قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: أمراء يكونون من بعدي لا يهتدون بهديي، ولا يستنّون بسنتي، فمن صدّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا مني ولست منهم، ولا يردون عليّ حوضي، ومن لم يصدّقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم[3].

وعن النعمان بن بشير قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء، فرفع بصره إلى السماء ثم خفض حتى ظنّنا أنه حدث في السماء أمر، فقال: ألا إنّها ستكون بعدي أمراء يظلمون ويكذبون، فمن صدّقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم فليس مني، ولا أنا منه، ومن لم يصدّقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه[4].

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: إنّ ناساً من أمّتي سيتفقّهون في الدين ويقرأون القرآن يقولون: نأتي الأمراء، فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك كما لا يُجتنى من القَتاد إلى الشوك، قال المنذري: رواه ابن ماجة ورواته ثقات[5].

١ ـ سنن ابن ماجة ٢: ١٣٢٩ حديث رقم ٤٠٠٩.

٢ ـ كنز العمال حديث رقم ٥٥٣٢ و٥٥٧١.

٣ ـ الترغيب والترهيب ٣: ١٩٤ وبلفظ قريب منه أيضاً في ص١٩٥ من نفس المجلد.

٤ ـ الترغيب والترهيب ٣: ١٩٥.

٥ ـ الترغيب والترهيب ٣: ١٩٦

رأي لعبد الله بن عمر:

والمعروف عن عبد الله بن عمر أنه كان يحمل رأياً معارضاً لهذا الرأي تماماً، وكان يروي وجوب الانقياد للحاكم، مهما كان ظلمه، ومهما بلغ جوره، واعتداؤه على المسلمين، وإعلانه للفسق والفجور، ويرى وجوب الاستمرار في الطاعة، وحرمة خلع اليد من الطاعة، وكان يسعى برأيه هذا فيما بين الناس ويروّض الناس لطاعة الخليفة الفاسق يزيد بن معاوية قبل وبعد وقعة الحرّة التي انتهك فيها يزيد بن معاوية حرمات الإسلام والمسلمين وبالغ في سفك الدماء وانتهاك الحرمات.

روى مسلم عن زيد بن محمد عن نافع قال: جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع[1] حين كان من أمر الحرّة ما كان زمن يزيد بن معاوية. فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إنّي لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدّثك حديثاً سمعت رسول الله ﷺ يقول: من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية[2].

وروى مسلم عن أبي رافع عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان من أمته حواريّون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنّها تُخلّف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك

---

١ ـ كان عبد الله بن مطيع على قريش يوم الحرّة وقد فرّ واختبأ وسلم بنفسه عن القتل. تهذيب التهذيب ٦: ٣٦.

٢ ـ صحيح مسلم ٦: ٢٢ دار الفكر بيروت كتاب الإمارة باب الأمر بلزوم الجماعة.

من الإيمان حبّة خردل.

قال أبو رافع: فحدّثت عبد الله بن عمر فأنكره عليّ، فقدم ابن مسعود فنزل بقناة، فاستتبعني إليه عبد الله بن عمر يعوده، فانطلقت معه فلمّا جلسنا سألت ابن مسعود عن هذا الحديث فحدثنيه، كما حدّثت ابن عمر[١].

وبعدُ فلا نُطيل في هذا الموقف أكثر من هذا المقدار، وإنْ كان يستحق الكثير من التأمّل والوقوف والدراسة، فقد أكثر بنو أمية من وضع الحديث على رسول الله ﷺ بهذا الاتّجاه، لتثبيط المسلمين عن التحرّك في مواجهة ظلم بني أمية ولردعهم عن الخروج على خلفاء بني أمية، وليستقيم لهم الأمر في ظلمهم وفسقهم وانتهاكهم للحرمات.

وقد دخل مع الأسف الكثير من هذه الأحاديث التي تنافي صريح القرآن والسنة والسيرة النبوية في أمهات كتب الحديث وحتى في الصحيحين والكتب المعتبرة.

ولابدّ من دراسة أوسع وأعمق من ذلك لنصل إلى نتائج واضحة وملموسة في هذا الحقل الصعب من حقول التاريخ والسيرة والسنة والفقه.

وقال المدائني عن عصر معاوية:

(وظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بليّة القرّاء المراؤون والمستضعفون الذين يُظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا

---

١ ـ صحيح مسلم ١: ٥٠ ـ ٥١ كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ط. دار الفكر بيروت.

بذلـك عـند ولاتهـم ويقـربوا مـن مجلسـهم، ويصـيبوا بـه الأمـوال والضـياع والمـنازل حـتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديّانين الذين لا يسـتحلّون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها وهم يظنّون أنها حق، ولو علموا أنّها باطلة لما رووها ولما تديّنوا بها)[١].

١ ـ صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين. ٣٢٦ عن شرح النهج لابن أبي الحديد١: ٣٥٨ ط.١ بمصر.

الفصل السابع

سياسة بني أمية تجاه أهل البيت عليهم السلام

التخطيط الأموي لمحاربة أهل البيت عليهم السلام

رغم الفتنة الكبرى التي مرّت بالمسلمين والانحرافات والنكبات التي أصابت المسلمين لم يكن الضمير الإسلامي يطيق بني أمية وسلطانهم...

وقد كان المسلمون يرون الفارق الكبير والبون الشاسع بين أهل البيت عليهم السلام وبني أمية في الماضي والحاضر.

وكان على بني أمية لكي يستقر حكمهم ونفوذهم أن يعملوا على القضاء التام على نفوذ أهل البيت عليهم السلام الروحي فيما بين المسلمين وعلى تصفية شيعة أهل البيت عليهم السلام والقضاء عليهم وملاحقتهم ومطاردتهم ليصفو لهم الجو السياسي في العالم الإسلامي وبشكل خاص في العراق والحجاز.

وقد سلك بنو أمية نهجاً خاصاً في محاربة أهل البيت، والقضاء عليهم سياسياً واجتماعياً وفي عزلهم وتطويقهم وتصفية شيعتهم ومحاربتهم في أرزاقهم ومعيشتهم وفي التعتيم على فضائل أهل البيت ومكانتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وليس بإمكاننا أن نستعرض ذلك كله بتفصيل فهو أمر يحتاج إلى دراسة واسعة لا يسعنا أن نقدم عليها الآن.

ولكنّنا نود أن نشير في هذه الدراسة على وجه العجالة والسرعة لبعض النقاط الأساسية من السياسة الأموية تجاه أهل البيت عليهم السلام.

التعتيم على فضائل أهل البيت عليهم السلام:

بذل بنو أمية سعياً حثيثاً في إخفاء فضائل الإمام وأهل بيته وحضروا رواية فضائل أهل البيت وأمروا بمطاردة ومقاطعة الذين يروون فضائل أهل البيت عليهم السلام في كل مكان.

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي:

روى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني في كتاب الأحداث، قال: كتب معاوية نسخة واحدة: أنْ برئت الذمة، ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرؤون منه ويوقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشدّ الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام[١].

وقد بلغ من خوف الناس من رواية فضائل الإمام من الجهاز الحاكم أنّ (الزهري) حدّث معمراً في مرضه عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**إن الله عز وجل منع بني إسرائيل قطر السماء بسوء رأيهم في أنبيائهم واختلافهم في دينهم، وأنّه آخذ هذه الأمة بالسنين ومانعهم قطر السماء، ببغضهم عليّ بن أبي طالب**»[٢].

يقول معمر: فلما بلَّ (الزهري) من مرضه، ندم فقال لي: يا يمانيّ أكتم هذا الحديث واطوهِ دوني فإنّ هؤلاء يعني ـ بني أمية ـ لا يعذرون أحداً في تقريظ عليّ وذكره.

---

١ ـ شرح النهج ١١: ٤٤.

٢ ـ مناقب علي بن أبي طالب: للحافظ ابن المغازلي الشافعي، المتوفى سنة ٤٨٣، ص ١٤١ رواية رقم ١٨٦، المكتبة الإسلامية طهران ١٣٩٤ هـ.ق.

قلت: فما بالك أوعيت مع القوم يا أبا بكر، وقد سمعت الذي سمعت، قال: حسبك يا هذا إنهم أشركونا في لهاهم فانحططنا لهم في أهوائهم[١].

الحصار الاقتصادي:

وبالغ بنو أمية في محاصرة أهل البيت‌عليهم‌السلام وشيعتهم اقتصادياً وفي التضييق عليهم ومنع أعطياتهم عنهم ومحاربتهم في أرزاقهم.

فقد كان بنو أمية يستخدمون المال بصورة واسعة وسيلةً لتحقيق غاياتهم السياسية في التضييق والتوسعة، فيما كان معاوية يوسّع على أهل الشام كان يضيّق على العراقيين وأهل الحجاز تضييقاً شديداً.

وكان بنو أمية يعتمدون أهل الشام في الدفاع عن دولتهم وامتداد سلطانهم ونفوذهم السياسي، وكانوا يمدّون أهل الشام بالعطاء وترخيص الأرزاق وتوفير المواد الغذائية الأولية كالحنطة، بينما كانوا يضيّقون في العطاء على العراقيين والحجازيين والمصريين، ولا سيما العراق والحجاز لما كانوا يعلمون من قوة المعارضة وسعتها في هذين البلدين.

وكانوا يجدون في التضييق على المعارضة طريقة مفضّلة لمحاربة المعارضة والقضاء عليها ولربما الانتقام منها واستهلاكها في مشاغل المعيشة وشؤونها.

يقول المعتزلي الحميدي ابن أبي الحديد: ثم كتب ـ أي معاوية ـ إلى عمّاله نسخة واحدة إلى جميع البلدان:

انظروا من قامت عليه البيّنة إنه يُحب عليّاً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفع بذلك بنسخة أخرى: من اتهمتموه بموالاة

---

١ ـ مناقب ابن المغازلي: ١٤٢ رواية رقم ١٨٦ المكتبة الإسلامية ١٣٩٤ هـ.ق.

هؤلاء القوم فنكّلوا به وهدموا داره.

فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ولاسيما بالكوفة، حتى أن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به فيدخل بيته، فيلقي إليه سرّه ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه[١].

ولم يكن معاوية يعمل بصورة عفوية في سياسة تجويع الناس والتضييق عليهم وفي محاربتهم في أرزاقهم ومعايشهم وإنّما يخطّط لذلك وهو صاحب نظرية في هذا الأمر يذكرها لقائد جيشه سفيان بن عوف الغامدي عندما وجّهه إلى الأنبار فيما يروي لنا الثقفي في الغارات.

يقول معاوية لسفيان وهو يوجّهه إلى الأنبار:

(فاقتل من لقيته ممّن ليس هو على مثل رأيك، وأخْرب كلّما مررت به من القرى، وأحرب الأموال، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل وهو أوجع للقلب)[٢].

ويروي ابن الأثير في حوادث سنة ست وخمسين:

إنّ معاوية لما يئس من بيعة الحسين عليه السلام لابنه يزيد بولاية العهد جفا بني هاشم عامة، (أي قطع عنهم أرزاقهم) فأتاه ابن عباس، فقال له: ما بالك جفوتنا؟ قال: إنّ صاحبكم لم يبايع ليزيد، فلم تنكروا ذلك عليه[٣].

وحبس النعمان بن بشير الأنصاري ـ وكان عامل معاوية على الكوفة، وكان عثماني الهوى، وقد شهد مع معاوية صفّين، وهو الأنصاري الوحيد

---

١ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ١١: ٤٥.

٢ ـ الغارات ط. طهران وشرح النهج ٢: ٨٦ بتحقيق محمد أبي الفضل.

٣ ـ الكامل لابن الأثير ٣: ٥١١، دار صادر ودار بيروت ١٣٨٥ هـ.

الذي كان مع معاوية ـ زيادة أهل الكوفة.

فصعد المنبر يوماً فقال: يا أهل الكوفة فصاحوا: ننشدك الله والزيادة. وقال عبد الله بن همام السلولي:

زيادتنا نعمان لا تحبسنّها خف الله فينا والكتاب الذي تتلو
فإنك قد حملت منا أمانة بما عجزت عنه الصلاخمة البزل
فلا يك باب الشر تحسن فتحه وباب الندى والخيّرات له قفل[1]

ويروي اليعقوبي (المتوفى سنة ٢٩٢ هـ) في تأريخه:

إنّ معاوية لمّا قدم إلى المدينة في سفرة الحج سنة ٤٤ (أتاه جماعة من بني هاشم وكلّموه في أمورهم، فقال: أما ترضون يا بني هاشم أن نقرّ عليكم دماءكم وقد قتلتم عثمان حتى تقولوا ما تقولون، فوالله لأنتم أحلّ دماً من كذا وكذا، وأعظم في القول. فقال له ابن عباس: كلّما قلت يا معاوية من شرّ بين جنبيك، وأنت والله أولى بذلك منّا. أنت قتلت عثمان ثم قمت تغمض على الناس أنك تطلب بدمه، فأنكر معاوية)[2].

وكان المغيرة بن شعبة عامل معاوية على الكوفة قد حبس عن أهل الكوفة أرزاقهم فلمّا كان آخر أيام إمارته صعد المنبر ونال من عليّ عليه السلام فقام حجر فصاح صيحة بالمغيرة سمعها كل من بالمسجد وقال له: مر لنا أيها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستها عنّا وليس ذلك لك، وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين، فقام أكثر من ثلثي الناس يقولون: صدق حجر وبرّ)[3].

---

١ ـ الأغاني ١٦: ٣٠ـ٣١ ط. دار الكتب.

٢ ـ تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١١ ط.٤ النجف ١٣٩٤.

٣ ـ الكامل لابن الأثير ٣: ٤٧٢ ـ ٤٧٣. بيروت ١٣٨٥.

ووهب معاوية مزرعة فدك التي منحها النبي ﷺ لابنته الزهراء عليها السلام لمروان بن الحكم[١] ولم يعبأ بمطالبة أهل البيت بها وحقهم فيها.

التشهير والسب:

ومن أقبح ما اتّبعه معاوية بن أبي سفيان من السياسة لعزل الإمام وأهل بيته سياسياً، هو شتمهم وإعلان ذلك على المنابر، وقد بذل بنو أمية كل جهد في إشاعة هذا المنكر.

وقد خطب معاوية في أهل الشام فقال لهم:

(يا أيها الناس إن رسول الله قال لي: إنّك ستلي الخلافة من بعدي، فاختر الأرض المقدسة ـ يعني الشام ـ فإنّ فيها الأبدال، وقد اخترتكم فالعنوا أبا تراب) وعجّ أهل الشام في سب الإمام[٢].

(وكان معاوية إذا قنت سبّ علياً وابن عباس والحسن والحسين والأشتر)[٣].

وذكر أبو عثمان الجاحظ: أنّ معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة: اللهم إنّه ألحد في دينك، وصدّ عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً، وعذّبه عذاباً أليماً، وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يشار بها على المنابر إلى خلافة عمر بن عبد العزيز[٤].

(وأراد زياد بن أبيه أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من عليّ عليه السلام ولعنه، وأن يقتل كل من امتنع من ذلك، ويخرّب منزله، فضربه الله

---

١ ـ اليعقوبي ٢: ٢١١.

٢ ـ النصائح الكافية: ٧٢.

٣ ـ النصائح الكافية: ١٩ ـ ٢٠.

٤ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ٤: ٥٦ ـ ٥٧.

ذلك اليوم بالطاعون فمات ـ لا رحمه الله ـ وذلك في خلافة معاوية)[١].

وفي رأينا أن معاوية لم يكن يصدر في فعله هذا عن حقده على الإمامعليه السلام وبغضه له، وإنما كان يعلم أنه لا يستطيع أن يحفظ لنفسه الخلافة ويبعدها عن أهل البيت لولا هذه الطريقة القبيحة التي استخدمها في النيل من شخصية الإمامعليه السلام والتشهير به.

وقد سُئل مروان: ما لكم تسبّون علياً على المنابر؟

فقال: لا يستقيم لنا الأمر إلاّ بذلك[٢].

وكان معاوية يريد أن يواصل عمله هذا القبيح حتى يقضي على ذكر عليّعليه السلام وفضائله ومكانته في الإسلام ومن رسول الله قضاءً تاماً.

وقد قال لابن عباس يوماً وهو يسأله: ألا تكفُّ عن شتم هذا الرجل؟ قال معاوية: ما كنت لأفعل حتى يربو عليه الصغير ويهرم فيه الكبير[٣].

يقول سليم بن قيس:

(ولم يزل معاوية على ذلك ـ أي إثارة الناس ضد (الإمام) ـ عشرين سنة حتى نشأ عليه الصغير، وهرم عليه الكبير، وهاجر عليه الأعرابي)[٤].

وروى أبو عثمان الجاحظ:

أن قوماً من بني أمية قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين إنك قد بلغت ما أمّلت، فلو كففت عن لعن هذا الرجل، فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلاً.

---

١ ـ شرح النهج ٤: ٥٨.

٢ ـ شرح النهج ١٣: ٢٢٠.

٣ ـ شرح النهج ١٣: ٢٢٢.

٤ ـ كتاب سليم بن قيس:١٧٥ ط. دار الفنون بيروت ١٤٠٠ هـ

وكـان معاويـة يشـتم الإمـام‌ﷺ ويأمر عماله وأصحابه الذين يفدون إليه بذلـك، روى مسـلم فـي الصحيح عن سعد بن أبي وقاص أن معاوية قال لـه: ما منعك أن تسبّ أبا تراب؟ فامتنع سعد عن ذلك[١].

ولمـا أراد معاويـة أن يسـتعمل المغـيرة بـن شـعبة على الكوفة عام ٤١ هـ استدعاه وقال لـه:

أردت إيصـاءك بأشـياء كـثيرة أنـا تاركهـا اعـتماداً علـى بصـرك، ولست تاركـاً إيصاءك: لا تترك شتم عليّ وذمه والترحم على عثمان والاستغفار لـه والعيـب لأصحاب علي والإقصاء لهم، والإطراء لشيعة عثمان والإدناء لهم[٢]، وكان عمال معاوية إذا استعملوا على البلاد التابعة لإمارتهم ولاة استعملوهم ممن يناوئون الإمام وشيعته وينالون من الإمام.

فاسـتعمل المغـيرة مثلاً كثير بن شهاب على الريّ وكان يكثر ـ كما يقول ابن الأثير ـ سب علي على منبر الريّ[٣].

وكـان المغـيرة مولعاً بسب الإمام[٤] كما كان عمّاله في البلاد التابعة له من المولعين بسـب الإمـام والنيل منه، وكان حاقداً على الإمام حتى أن ابن أبي الحديـد يقـول: وقـد تظاهرت الروايات أنه (أي المغيرة) كان يأخذه الرمع[٥] عند ذكر عليّ فيسبّه ويضرب بإحدى يديه على الأخرى[٦].

---

١ ـ صحيح مسلم ٧: ١٢٠ ط. اسطنبول ١٣٣٤ توزيع دار الفكر بيروت.

٢ ـ الكامل لابن الأثير ٣: ٤٧٢ بيروت ١٣٨٥ هـ.

٣ ـ الكامل لابن الأثير ٣: ٤١٣ ـ ٤١٤.

٤ ـ الكامل لابن الأثير ٣: ٤٧٢ ـ ٤٧٣.

٥ ـ الرمع: تحرك الأنف غضباً.

٦ ـ شرح النهج ٤: ٦٩.

وزياد ابن أبيه كان هو الآخر من عمّال معاوية المولعين بسبّ الإمام والنيل منه، وكان زياد قد جمع ـ في أخريات حياته الحافلة بالظلم والعدوان ـ الناس بباب قصره يحرّضهم على لعن الإمام، فمن أبى ذلك عرضه على السيف فعجّل الله تعالى بهلاكه[1].

وكان مروان يخطب فينال من الإمام، فقيل له: أهذا الذي تشتم شرّ الناس؟ قال: لا، ولكنه خير الناس[2].

وكان المغيرة بن شعبة يقيم ندوات خطابية للخطباء لسب الإمام وشتمه[3]، وقد بلغ من حقد بني أمية على الإمام أنّ أحدهم إذا نَسِيَ سبّ الإمام على المنبر ذكّروه به.

فَنَسِي هشام أن ينال من الإمام يوم عرفة فقام إليه رجل من ولد عثمان، فقال: إنّ هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب[4].

وروى المبرّد في الكامل قال: لمّا كان خالد بن عبد الله القسري أمير العراق في خلافة هشام كان يلعن علياًعليه السلام على المنبر فيقول: اللهم العن... (ويصرّح باسم الإمام) صهر رسول الله على ابنته وأبا الحسن والحسين، ثم يقبل على الناس فيقول: هل كنّيت؟[5].

وقد ازدادت شراسة الهجمة الإعلامية ضد أهل البيتعليهم السلام بعد استشهاد

---

١ ـ مروج الذهب للمسعودي ٣: ٢٦ بتحقيق يوسف أسعد داغر، وتاريخ اليعقوبي ٢: ٢٢٢ـ٢٢٣ ط.٤ سنة ١٣٩٤ هـ

٢ ـ شرح النهج ١٣: ٢٢٠.

٣ ـ المصدر السابق.

٤ ـ شرح النهج ١٣: ٢٢١ ونفس المصدر ٤: ٥٧.

٥ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ٤: ٥٧. والكامل للمبرّد ٤١٤ (طبع أوربا).

الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام حتى أن أهل الصلاح والنسك كانوا يتقربون إلى الحكام بالبراءة من الإمام، كما يقول ابن أبي الحديد: والساقطون من الناس يتزلّفون إلى الحكّام بالمزايدة في البراءة والسبّ...

يقول ابن أبي الحديد، وهو من أفضل من أرّخ لهذه الفترة:

ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام وولّي عبد الملك بن مروان فاشتد على الشيعة وولّى عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرب إليه حتى المتظاهرين بالنسك والصلاح والدين ببغض عليّ وموالاة أعدائه، وموالاة من يدّعي من الناس أنّهم أيضاً أعداؤه، فأكثروا في الرواية في فضيلتهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثروا من الغضّ من عليّ عليه السلام وعيبه والطعن فيه، والشنآن له حتى أن إنساناً وقف للحجّاج، ويقال هو جد الأصمعي عبد الملك بن قريب، فصاح: أيها الأمير إن أهلي عقّوني فسمّوني عليّاً، وإني فقير بائس، وإني إلى صلة الأمير محتاج، فتضاحك له الحجاج، وقال: للطف ما توسّلت به قد ولّيتك موضع كذا[1].

إذن فقد بذل معاوية، ومن بعده من الخلفاء جهداً غير قليل لإسقاط الخط العلوي في أنظار المسلمين والتشهير به، والنيل من الإمام عليه السلام ومن خطه الفكري والرسالي.

الأمة ترفض البراءة من أهل البيت عليهم السلام:

ورغم ضغط عوامل الإرهاب والإغراء على ضمير الأمة في أيام بني أمية فإن الأمة كانت ترفض السب والبراءة من الإمام وأهل البيت عليهم السلام وتتهرب

---

١ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ١١: ٤٦.

من شتم الإمام ما وسعهم ذلك.

فكان الناس يتهرّبون عن حضور مجالس السب ويحرصون ألاّ يحضروا هذه المجالس.

وقد كان من دأب بني أمية أن يسبّوا الإمام في خطب الجمعة والعيدين. ومن المعروف أن السنة في خطبة العيدين تأخيرها عن الصلاة، فكان الناس إذا انقضت الصلاة انتشروا لئلا يسمعوا السب والشتم في الإمام، فأمر معاوية بتقديم الخطبة قبل الصلاة، لئلا يتهرّب الناس عن سماع الخطبة.

يقول اليعقوبي:

وفي هذه السنة ـ أي سنة ٤٤ ـ خطب الخطبة قبل الصلاة، وذلك أنّ الناس كانوا إذا صلّوا انصرفوا لئلا يسمعوا لعن عليعليه السلام، فقدّم معاوية الخطبة قبل الصلاة[١].

ولا نلتقي فيما نقرأ من التاريخ بغير هذه الظاهرة السلبية في رفض السبّ والشتم على صعيد الأمة، بظاهرة أُخرى تُلفت النظر، ولكنّنا نلتقي بمواقف فردية كثيرة في تاريخ هذه الفترة في رفض البراءة والسبّ صارخة ومعلنة للرفض أحياناً، وبصوت منخفض أحياناً أخرى.

روى أبو بكر بن عبد الله الأصبهاني، قال: كان دعيّ لبني أمية يقال له: خالد بن عبد الله لا يزال يشتم عليّاًعليه السلام، فلما كان يوم الجمعة وهو يخطب الناس قال: والله إن كان رسول الله ليستعمله وإنه ليعلم ما هو، ولكنه كان ختنه، وقد نعس سعيد بن المسيب ففتح عينيه، ثم قال: ويْحكم، ما قال هذا الخبيث؟ رأيت القبر انصدع، ورسول اللهصلى الله عليه وآله يقول: كذبت يا عدو الله[٢].

١ ـ تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١١ ط.٤ سنة ١٣٩٤ هـ النجف.

٢ ـ شرح النهج ١٣: ٢٢٢.

وعن أبي عبد الله الجدلي، قال: دخلت على أم سلمة رحمها الله، فقالت لي: أيُسبّ رسول الله ﷺ فيكم؟ قلت: معاذ الله أو سبحان الله؟ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سبّ علياً فقد سبّني[١].

وروى عدي بن ثابت عن إسماعيل بن إبراهيم قال: كنت أنا وإبراهيم بن يزيد جالسين في الجمعة مما يلي أبواب كندة فخرج المغيرة فخطب فحمد الله ثم ذكر ما يشاء أن يذكر، ثم وقع في عليّ عليه السلام فضرب إبراهيم فخذي أو ركبتي، ثم قال: أقبل عَليّ فحدّثني فإنّا لسنا في جمعة، ألا تسمع ما يقول هذا؟[٢]

وعن أشعب بن سوار قال: سبّ عدي بن أرطأة علياً عليه السلام على المنبر فبكى الحسن البصري، وقال: لقد سُبّ هذا اليوم رجل وإنه لأخو رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة[٣].

وعن عبد الله بن ظالم قال: لما بويع لمعاوية أقام المغيرة بن شعبة خطباء

---

١ ـ مسند أحمد بن حنبل ٦: ٣٢٢، ونحو هذه الرواية في شرح النهج ١٣: ٢٢٢، وفي تاريخ دمشق رقم ٦٥٩ من ترجمة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام المجلد الثاني من تحقيق المحمودي ص ١٨٢ ورواه البلاذري أيضاً في الحديث ٢١٦ من ترجمة أمير المؤمنين من كتاب الأنساب ١: ٣٣٥، بتحقيق المحمودي أيضاً، ورواه المتّقي الهندي في الكنز الحديث ٣٧٥ من فضائل الإمام ١٥: ١٢٨ ورواه نور الدين في الخصائص حديث ٨٥ ص ٩٩ الغري والحاكم في المستدرك باب مناقب الإمام ٣: ١٢١ راجع هوامش الشيخ محمد باقر المحمودي على أنساب الأشراف في ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ٢: ١٨٢ ـ ١٨٣، وهوامشه على تاريخ ابن عساكر في ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ٢: ١٨٢ ـ ١٨٣. (ورواه نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١٣٠ والنسائي في الخصائص).

٢ ـ شرح النهج ١٣: ٢٢١.

٣ ـ المصدر السابق.

يلعنون علياًعليه السلام فقال سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل: ألا ترون إلى هذا الرجل الظالم يأمر بلعن رجل من أهل الجنة[١].

وروى الطبري عن عليّ بن محمّد قال: خطب بُسر على منبر البصرة فشتم علياًعليه السلام، ثم قال: نشدت الله رجلاً علم إنني صادق إلا صدّقني، أو كاذب إلاّ كذبني، قال: فقال أبو بكرة: اللهم إنّا لا نعلمك إلا كاذباً، قال: فأمر فخُنق، قال: فقام أبو لؤلؤة الصبى فرمى بنفسه عليه فمنعه، فأقطعه أبو بكرة بعد ذلك مائة جريب.

قال: وقيل لأبي بكرة: ما أردت إلى ما صنعت؟

قال: أيُنشدنا بالله ثم لا نصدقه؟[٢]

وكان المغيرة بن شعبة إذا شتم الإمام يقول له حجر بن عدي: بل إيّاكم ذم الله ولعن، ثم يقول: أنا أشهد إنّ من تذمون أحق بالفضل ومن تتركون أولى بالذم[٣].

فلما كان في آخر إمارته ـ أي المغيرة ـ قال في عليّ وعثمان ما كان يقول، فقام حجر فصاح صيحةً سمعها كل من بالمسجد: مُر لنا أيها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستها عنّا، وليس ذلك لك. وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين. فقام أكثر من ثلثي الناس يقولون صدق حجر وبرّ[٤].

---

١ ـ شرح النهج ١٣: ٢٢٠.

٢ ـ تاريخ الطبري: حوادث سنة ٤١ الجزء السابع ١١: ١٤ طبعة ليدن، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٣: ٤١٤ بيروت ١٣٨٥ وروى ابن الأعثم القصة عن عمرو بن أبي أرطأة أخي بُسر وزاد فيها أن أبا بكرة قال لعمرو: كذبت يا عدو الله قد كان علي بن أبي طالب خيراً منك ومن صاحبك الذي ولاك علينا. كتاب الفتوح لابن الأعثم ٤: ١٦٨ ـ ١٦٩ ط. دائرة المعارف العثمانية بالهند.

٣ ـ الكامل في التاريخ ٣: ٤٧٣.

٤ ـ المصدر السابق.

وطلب المغيرة من صعصعة بن صوحان أن يقوم فيلعن الإمام، فقام في الناس فقال: إنّ أميركم هذا أمرني أن ألعن علياً، فالعنوه لعنه الله، وهو يضمر المغيرة[١].

ولمّا ولي خالد بن عبد الله القسري مكة وكان إذا خطب بها لعن علياًعليه السلام والحسن والحسينعليهما السلام.

فقال عبيد الله بن كثير السهمي فيه:

لعن الله من يسب علياً ... وحسيناً من سوقة وإمام
أيسب المطهرون جدودا ... والكرام الآباء والأعمام
يأمن الطير والحمام ولا يأ ... من آل الرسول عند المقام
طبت بيتا وطاب أهلك أهلا ... أهل بيت النبي والإسلام
رحمة الله والسلام عليهم ... كلما قام قائم بسلام[٢]

تلك كانت شواهد هي بقايا من صحوة الضمير في حياة هذه الأمة في سلك الليلة المظلمة من عصر بني أمية تتجلّى في مواقف الرفض لسياسة بني أمية.

واستمر بنو أمية على هذه العادة القبيحة في سبّ الإمام وأهل بيتهعليهم السلام حتى جاء عمر بن عبد العزيز فقضى على هذه الظاهرة المنكرة في حكم بني أمية.

١ـ شرح النهج ١٥: ٢٥٧.
٢ـ شرح النهج ١٥: ٢٥٦.

سياسة الإرهاب والتصفية للمعارضة العلوية:

ولم يكن بإمكان بني أمية أن يكتفوا بالسعي لإسقاط الخط العلوي لدى الرأي العام الإسلامي، والتشهير به فقط.. دون أن يقترن ذلك بتصفية واسعة لرؤوس المعارضة من شيعة عليّ عليه السلام وأصحابه، ونشر الرعب والإرهاب فيما بينهم، ولاسيما في العراق، حيث يكثر شيعة علي عليه السلام ومواليه وقد خصّ معاوية العراق لهذا الغرض بالعمّال والولاة الذين كان يعرف فيهم العداء والبغضاء لشيعة عليّ عليه السلام من أمثال المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه وسمرة بن جندب.

وقد بالغ بنو أمية في ملاحقة شيعة أهل البيت وتصفيتهم وإشاعة الإرهاب بينهم والتشديد عليهم.

يروي ابن أبي الحديد كلاماً للإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام فيما لاقاه شيعتهم من ألوان العذاب والاضطهاد على يد بني أمية ننقل جملةً منه:

ثم لم نزل ـ أهل البيت ـ نستذل ونستضام، ونقصى، ونمتهن، ونحرم، ونقتل، ونخاف، ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا. ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمّال السوء في كل بلدة، فحدّثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، ورووا عنّا ما لم نقله وما لم نفعله ليبغّضونا إلى الناس. وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام. فقُتلت شيعتنا في كل بلدة، وقُطعت الأيدي والأرجل على الظِّنة، وكان من يذكّر بحبنا، والانقطاع إلينا سُجن أو نُهب ماله أو هُدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام. ثم جاء الحجاج

فقتلهم كل قتلة، وأخذهم بكل ظِنة وتهمة حتى أن الرجل ليقال له: زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال له: شيعة عليّ[١].

ويحدّثنا محمد بن الحنفية عن طرف من معاناة أهل البيت في هذه الفترة المظلمة من تأريخ الإسلام:

يقول ابن سعيد: وجاء رجل إلى محمد بن الحنفية فقال: كيف أنت؟ فحرّك يده، فقال: كيف أنتم؟ أما آن لكم أن تعرفوا كيف نحن؟ إنما مثلنا في هذه الأمة مثل بني إسرائيل في آل فرعون كان يُذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم[٢].

وقال معاوية يوماً للحسين عليه السلام: يا أبا عبد الله علمت إنّا قتلنا شيعة أبيك، فحنّطناهم وكفّناهم وصلّينا عليهم ودفنّاهم. فقال الحسين عليه السلام: حَجَجْتك ورب الكعبة، لكنّا والله إنْ قتلنا شيعتك ما كفّناهم ولا حنّطناهم ولا صلّينا عليهم ولا دفنّاهم[٣].

وقد بدأ معاوية حملة الإبادة والاستئصال لشيعة علي عليه السلام واستمرت هذه الحملة بشكلها الحاد العنيف حتى أواخر حكم آل أمية.

ولعل كتاب الغارات الذي وضعه إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي المتوفى ٢٨٣ هـ يلقي بعض الضوء على غارات الإبادة والاستئصال التي كان يشنها معاوية على أطراف الحجاز واليمن والعراق لإبادة واستئصال

---

١ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ١١: ٤٤، وروى النص عن ابن أبي الحديد المجلسي في البحار ٤٤: ٦٨ ـ ٦٩.

٢ ـ الطبقات الكبرى ابن سعد ٥: ٩٥ دار صادر بيروت.

٣ ـ تاريخ اليعقوبي ٢: ٢١٨ ط. ٤ سنة ١٣٩٤ : النجف.

شيعة الإمام ومحبيه.

روى إبراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي في كتاب (الغارات) عن سفيان بن عوف الغامدي قال:

دعاني معاوية، فقال: إنّي باعثك في جيش كثيف ذي أداة وجلادة، فالزم لي جانب الفرات حتى تمرَّ بهيت فاقطعها، فإن وجدت بها جُنداً فأغِرْ عليهم وإلاّ فامضِ حتى تغير على الأنبار فإن لم تجد بها جُنداً فامضِ حتى توغل في المدائن... إنّ هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب القلوب، وتفرح كل من له فينا هوى منهم، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر، فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك وأخرب كلّما مررت به من القرى، واحْرِبِ الأموال فإن حَرَبَ الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب[١].

ونشير هنا إلى بعض المجازر التي حصلت على يد خلفاء بني أمية وعمّالهم في شيعة أهل البيت في الفترة الرهيبة من تاريخ الإسلام.

١ ـ شرح النهج: بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٢: ٨٥ ـ ٨٦ والغارات لإبراهيم بن محمد الثقفي ٤٦٤ ـ ٤٦٧ ط. طهران بتحقيق السيد جلال الدين المحدث.

مجازر خلفاء بني أمية وعمّالهم في شيعة أهل البيت عليهم السلام

١. مجازر بُسر بن أرطاة:

بعث معاوية بسر بن أرطاة ـ وكان قاسي القلب سفّاكاً لا رأفة له ولا رحمة، كما يقول الثقفي في الغارات ـ إلى اليمن وقال له: (أقتل شيعة عليّ حيث كانوا)[١]، فأقبل من الشام حتى قدم المدينة (فخطب الناس وشتمهم وتهدّدهم يومئذ، وتوعدّهم وقال: شاهت الوجوه)[٢].

(ثم شتم الأنصار، فقال: يا معاشر اليهود وأبناء العبيد بني زريق وبني النجّار وبني سالم وبني عبد الأشهل، أما والله لأوقعن بكم وقعة تشفي غليل صدور المؤمنين وآل عثمان. أما والله لأدعنّكم أحاديث كالأمم السالفة[٣]، ونزل بُسر فأحرق دار زرارة بن جرول ودار رفاعة بن رافع ودار أبي أيوب الأنصاري[٤]. وعن الوليد بن هشام قال: صعد (بُسر) منبر النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا أهل المدينة أخضبتم لِحاكُم وقتلتم عثمان مخضوباً والله لا أدع في المسجد مخضوباً إلاّ قتلته، ثم قال لأصحابه خذوا بأبواب المسجد وهو يريد أن يستعرضهم، فقام إليه عبد الله بن الزبير وأبو قيس رجل من بني عامر بن

---

١ ـ الغارات: للثقفي ٥٩٨ طهران ١٣٩٥ هـ.

٢ ـ الغارات: ٦٠٢ ط. ٢ طهران ١٣٩٥.

٣ ـ الغارات: ٦٠٣.

٤ ـ الغارات: ٦٠٣ ـ ٦٠٤.

لؤي فطلبا إليه حتى كفَّ عنهم[١]، وتوجّه بُسر إلى اليمن وقتل في مسيره ذلك جماعة من شيعة عَلي باليمن[٢].

وقتل ابني عبيد الله بن عباس (عامل أمير المؤمنين على اليمن) وهما صغيران بين يدي أُمِهما[٣] فولهت أمهما وهامت على وجهها وكانت تأتي المواسم وتنشدهما فتقول:

يـا مـن أحـسّ بابنـي الذيـن همـا
كالدرتيـن تشـظّى عـنهما الصَّـدف
يـا مـن أحـسّ بابنـيّ الذيـن همـا
مـخ العظـام فمخـي اليـوم مـزدهف
يـا مـن أحـسّ بابنـيّ الذيـن همـا
قلبـي وسـمعي فقلبـي اليـوم مخـتطف
نُبِئْـت بُسـراً ومـا صـدّقت مـا زعمـوا
مـن إفكهـم ومـن الإثـم الـذي اقـترفوا
أنحـى علـى ودجـى ابنـيّ مـرهفة
مشـحوذة وكـذاك الإثـم يقـترف
مـن دلّ والهـة حـرّى مسـلبة
علـى صـبيين ضـلاّ إذ مضـى السـلف

١ ـ الغارات: ٦٠٧ ـ ٦٠٨.

٢ ـ الكامل ٣: ٣٨٤.

٣ ـ الاستيعاب بهامش الإصابة في تمييز الصحابة ١: ١٥٥ ط.١ بمصر ١٣٢٨ هـ.

ولمّا قتل بُسر الغلامين بين يدي أمهما خرج[١] نسوة من بني كنانة فقالت امرأة منهن: هذه الرجال تقتلها فعلام تقتل الولدان؟ والله ما كانوا يقتلون في الجاهلية ولا في الإسلام. والله إن سلطاناً لا يشتدّ إلى بقتل الرضّع والضعيف ورفع الرحمة وقطع الأرحام لسلطان سوء، فقال بُسر: والله لهممت أن أضع فيكن السيف. قالت: والله إنّه لأحبَ إليّ[٢].

يقول ابن الأثير: فلما سمع أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بقتلهما جزع جزعاً شديداً ودعا على بُسر فقال: اللهم اسلبه دينه وعقله، فأصابه ذلك وفقد عقله فكان يهوي بالسيف ويطلبه فيؤتى بسيف من خشب ويجعل بين يديه زق منفوخ فلا يزال يضربه ولم يزل كذلك حتى مات[٣].

وسار بُسر إلى أرحب وقتل فيها أبا كرب وكان سيد من في البادية من همدان فقتله قتلاً ذريعاً[٤]، ثم دخل صنعاء فقتل فيها قوماً، وأتاه وفد من مأرب فقتلهم فلم ينجُ منهم إلاّ رجل واحد[٥].

وقال ابن عبد البر في الاستيعاب: وأغار بُسر على همدان وسبى نساءهم فكنَّ أول مسلمات سُبين في الإسلام[٦] وأقمن في السوق[٧].

---

١ ـ راجع الغارات ٦١٣ والاستيعاب بترجمة بُسر بهامش الإصابة ١: ١٥٦ والكامل ٣: ٣٨٣ ـ ٣٨٤ وبحار الأنوار الطبعة الحجرية ١٠: ١٣٠.

٢ ـ الغارات: ٦١٥ ـ ٦١٦، والكامل ٣: ٣٨٤ باختلاف يسير.

٣ ـ الكامل لابن الأثير: ٣: ٣٨٥.

٤ ـ الغارات: ٦١٧ ـ ٦١٨.

٥ ـ الغارات: ٦١٨ ـ ٦١٩.

٦ ـ الاستيعاب بهامش الإصابة ١: ١٥٧ ط. ١ بمصر ١٣٢٨ هـ.

٧ ـ الاستيعاب بهامش الإصابة ١: ١٥٨.

وكان أبو ذر رضي الله عنه يعوذ بالله من أن يدرك زماناً تُسبى فيه النساء المسلمات ويكشف عن سيقانهن، فأيتهنّ كانت أعظم ساقاً اشتُريت[1].

٢. مجازر زياد بن أبيه:

من دهاة العرب والمعروفين بالقسوة وسفك الدماء استعمله معاوية على البصرة ثم أضاف إليه إمارة الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة فمكّن لمعاوية في العراقين البصرة والكوفة وأحكم قواعد حكم بني أمية على ـ العراقين ـ بالإرهاب والدم. فكتب إلى معاوية: أنه قد ضبط العراقين البصرة والكوفة بيمينه، وشماله فارغة، فأضاف معاوية إلى إمارته إمارة الحجاز.

ولما عرف أهل المدينة بأن معاوية قد ولّى زياداً إمارة الحجاز (اجتمع الصغير والكبير بمسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وضجّوا إلى الله، ولاذوا بقبر النبي صلى الله عليه وآله ثلاثة أيام لعلمهم بما هو عليه من الظلم والعنف)[2] وقد كان حاقداً على عليّ عليه السلام وشيعته أبلغ ما يكون الحقد، وقاسياً عليهم يتّبعهم في كل مكان ويسلّط عليهم جلاوزته وعمّاله.

يقول ابن أعثم (المتوفّى سنة ٣١٤ هـ) في كتاب الفتوح: (وجعل زياد يتتبّع شيعة علي بن أبي طالب فيقتلهم تحت كل حجَر ومدَر، حتى قتل منهم خلقاً كثيراً، وجعل يقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم، وجعل أيضاً يغري بهم معاوية، فقتل منهم معاوية جماعة، وفيمن قتل حجر بن عدي الكندي وأصحابه، وبلغ ذلك الحسن بن علي فقال: اللّهم خذ لنا

---

١ ـ الاستيعاب بهامش الإصابة ١: ١٥٧.

٢ ـ مروج الذهب ٣: ٢٦ فهارس يوسف أسعد داغر.

ولشيعتنا من زياد بن أبيه، وأرنا فيه نَكالاً عاجلاً)[١].

ويقول ابن أبي الحديد (المتوفى سنة ٦٥٦ هـ) : فكان (زياد) يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام عليّ عليه السلام[٢] فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل وطردهم وشرّدهم عن العراق فلم يبق معروف منهم[٣].

وهذه الصورة التي يرسمها ابن أعثم من مؤرخي القرن الثالث الهجري وابن أبي الحديد من مؤرخي القرن السابع تكفي لتعطينا صورة واضحة عن الفترة الدموية التي حكم فيها زياد بن أبيه على الحجاز والكوفة والبصرة وما والاهما وبضمنها الريّ وخراسان.

ويقول المدائني: (وكان أشد الناس بلاءً حينئذ أهل الكوفة، لكثرة مَن بها مِن شيعة عليّ عليه السلام فاستعمل عليهم زياد بن سميّة، وضمّ إليه البصرة فكان يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام عليّ عليه السلام فقتلهم تحت كل حَجَر.

ويروي الطبري قصة من قصص الإرهاب العجيبة في حكم زياد تكشف لنا أبعاد المجازر الرهيبة في أيام زياد وخلاصة هذه القصة: أنّ زياداً لما مات المغيرة وأنيطت به ولاية الكوفة، جاء إلى الكوفة وصعد المنبر فخطب في الناس فَحُصِبَ وهو على المنبر. يقول الطبري: فجلس حتى أمسكوا ثم

---

١ ـ كتاب الفتوح لابن الأعثم ٤: ٢٠٣ ط. حيدر آباد الهند دائرة المعارف العثمانية ١٣٨١ هـ.

٢ ـ كان زياد والياً من قبل الإمام على فارس، فكتب إليه معاوية يتهدده ويغريه فلما قرأ زياد كتابه قام في الناس وقال: (العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد (أي معاوية) ورأس النفاق يخوّفني بقصده إيّاي وبيني وبينه ابن عم رسول الله في المهاجرين والأنصار) الكامل لابن الأثير ٣: ٤٤٤.

٣ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ١١: ٤٤.

دعا قوماً من خاصّته وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد، ثم قال: ليأخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقولن لا أدري مَنْ جليسي.

ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة يحلفون بالله ما منّا من حصبك فمن حلف خلاّه ومن لم يحلف حبسه وعزله حتى صار إلى ثلثين، ويقال: بل كانوا ثمانين فقطع أيديهم على المكان[١].

ويقول ابن الأثير: (وكان زياد أول من شدّد أمر السلطان، وأكّد الملك لمعاوية وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفاً شديداً)[٢].

وروى اليعقوبي (المتوفّى ٢٩٢ هـ) والمسعودي (المتوفّى ٣٤٦ هـ): أن زياداً جمع جمعاً من شيعة الإمام عليه السلام في أخريات حياته ليعرض عليهم البراءة من الإمام ولعنه، فإن لم يتبرأوا ولم يلعنوا قَتلهم، فعجّل الله تعالى بهلاك الطاغية قبل أن يصل إلى غايته[٣].

وأما ابن أبي الحديد (المتوفّى ٦٥٦) فقد روى الرواية بالشكل التالي: وأراد زياد أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراء من علي عليه السلام ولعنه وأن يقتل كل من امتنع من ذلك، ويخرّب منزله فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون فمات ـ لا رحمه الله ـ بعد ثلاثة أيام[٤].

ومن أقبح ما عمله زياد إغراء معاوية بقتل الصحابي الجليل حجر بن عدي رحمه الله واثني عشر شخصاً من أصحابه.

وقد ذكر الطبري أسماء النفر الذين بعث بهم زياد إلى معاوية لقتلهم،

---

١ ـ تاريخ الطبري حوادث سنة ٥٠ الجزء السابع ١١: ٨٨ طبعة لندن.

٢ ـ الكامل لابن الأثير ٣: ٤٥٠.

٣ ـ اليعقوبي ٢: ٢٢٢ ـ ٢٢٣. والمسعودي ٣: ٢٦.

٤ ـ شرح النهج ٤: ٥٨.

وهم: (حجر بن عدي بن جبلة الكندي، والأرقم بن عبد الله الكندي من بني الأرقم، وشريك بن شداد الحضرمي، وصَفي بن فسيل، وقبيصة بن ضبيعة بن حرملة العبسي، وكريم بن العفيف الخثعمي، وعاصم بن عوف البجلي، وكدام بن حيان، وعبد الرحمن بن حسان العنزيان من بني تميم، ومحرز بن شهاب التميمي من بني منقر، وعبد الله بن حوبة السعدي... مضوا بهم حتى نزلوا مرج عذراء فحبسوا بها ثم إن زياداً أتبعهم برجلين آخرين مع عامر بن الأسود العجلي، بعتبة بن الأخنس من بني سعد، وسعد بن نمران الهمداني فتمّوا أربعة عشر رجلا)[١].

فقتل معاوية جمعاً منهم بمرج عذراء من دمشق صبراً من غير مخالفة لله ولرسوله وكان منهم حجر بن عدي العبد الصالح وجمع من خيار المسلمين من شيعة الإمام ومواليه.

يقول الدكتور طه حسين في هذه الجريمة:

وهكذا انتهت هذه المأساة المنكرة التي استباح فيها أمير من أمراء المسلمين أن يعاقب الناس على معارضته، وأن يكره وجوه الناس وأشرافهم على أن يشهدوا عليهم زوراً وبهتاناً... استباح أمير من أمراء المسلمين لنفسه هذا الإثم واستحلّ هذه البدع واستباح إمام من أئمّة المسلمين أن يقضي بالموت على نفر من الذين عصم الله دماءهم دون أن يراهم أو يسمع لهم، أو يأذن لهم في الدفاع عن أنفسهم[٢].

---

١ ـ تاريخ الرسل والملوك للطبري: ط. لندن القسم الثاني من الكتاب ٧: ١٣٦ ويروي الطبري قصة استشهاد حجر بن عدي ﵁ وأصحابه في هذا الموضع من الكتاب بتفصيل، وكذلك راجع اليعقوبي: ٢١٨، والاستيعاب في ترجمة حجر بهامش الإصابة: ١: ٣٥٦.

٢ ـ الفتنة الكبرى: علي وبنوه للدكتور طه حسين:٢٤٣.

وتسبّب زياد كذلك في قتل الصحابي الجليل عمرو بن الحمق الخزاعي رحمه الله، حيث طارده فخرج إلى الموصل متخفياً فقبض عليه عامل الأمويين على الموصل فضرب عنقه ونصب رأسه على رمح وطيف به، فكان أول رأس طيف به في الإسلام[1].

وقد أثار مقتل الصحابيين الجليلين حجر وعمرو رحمهما الله مشاعر المسلمين وفيهما كتب الإمام الحسن عليه السلام إلى معاوية يؤنّبه في هاتين الجريمتين اللتين شاركه فيهما عماله، فيقول عليه السلام:

«ألست قاتل حجر وأصحابه العابدين المخبتين، الذين كانوا يستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فقتلتهم ظلماً وعدواناً، من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة، والعهود المؤكدة[2] جرأةً على الله واستخفافاً بعهده.

أولست بقاتل عمرو بن الحمق الذي أخلقت وأبلت وجهه العبادة؟»[3].

جرائم سمرة بن جندب:

ونصّب زياد بن أبيه سمرة بن جندب خليفة على إمارة البصرة في فترة غيابه، عن البصرة. فقد كان زياد وزّع سنته إلى شطرين يقضي شطراً منها في الكوفة وشطراً في البصرة.

وكان سمرة ينوب عنه في ملاحقة الشيعة وسفك الدماء عند غيابه عن

---

١ ـ راجع اليعقوبي ٢: ٢١٩، والإصابة للعسقلاني ٢: ٥٣٣، ط. ١ بمصر ١٣٢٨ هـ.

٢ ـ في عهده إلى الإمام الحسن عليه السلام.

٣ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ١٨١ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٨٨هـ.

البصرة، وقد كان سمرة جلاّداً معروفاً بسفك الدماء وبغض علي بن أبي طالب عليه السلام..

وقد عمل سمرة في غياب زياد من المجازر ما لم يفعله زياد نفسه.

يروي الطبري عن محمد بن سليم، قال: سألت أنس بن سيرين: هل كان سمرة قد قتل أحداً؟

قال: وهل يحصى من قتل سمرة بن جندب؟ استخلفه زياد على البصرة وأتى الكوفة، فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس، فقيل له: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟ قال: لو قتلت مثلهم ما خشيت[1].

ويروي الطبري أيضاً عن أبي سوّار العدوي، قال: قتل سمرة من قومي غداة سبعة وأربعين رجلاً قد جمع القرآن[2].

ويروي الطبري أيضاً عن عوف قال: أقبل سمرة من المدينة فلمّا كان عند دور بني أسد خرج رجل من بعض أزقتهم ففاجأ أوائل الخيل فحمل عليه رجل من القوم فأوجره الحربة، قال: ثم مضت الخيل. فأتى عليه سمرة وهو متشحّط في دمه. فقال: ما هذا؟

قيل: أصابته أوائل خيل الأمير، قال: إذا سمعتم بنا قد ركبنا فاتّقوا أسنّتنا[3].

وكثيرة القصص التي تروى في ظلم وقسوة سمرة بن جندب من هذا القبيل.

وأياً ما سيكون الأمر فقد وضع بنو أمية قواعد حكمهم وسلطانهم على

---

١ ـ الطبري حوادث سنة خمسين ٧: ١١: ٩٠ طبعة ليدن.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ المصدر السابق.

التشهير بالإمام أمير المؤمنينعليه السلام، وإعلان العداء له وحمل المسلمين على التنكر له ومحاربة فضائله بكل الصور الممكنة ومحاربة أهل البيتعليهم السلام وشيعتهم.

عداء عليّ عداء لرسول اللهصلى الله عليه وآله:

ونحن لا نشك أن هذه الظاهرة بمفردها تشكّل علامة استفهام كبيرة على إيمان بني أمية وولائهم ولرسوله وللمؤمنين.

فقد تواترت الروايات الصحيحة عن رسول اللهصلى الله عليه وآله: أن حبّ عليّ من حب رسول الله، وبغضه من بغض رسول اللهصلى الله عليه وآله، وإن حبّ أمير المؤمنين من علامات الإيمان، وبعكسه كره وعداؤه من علامات النفاق.

ونحن ننقل هنا جملة مما رواه الحاكم النيسابوري في مستدرك الصحيحين من الأحاديث الصحيحة في الدلالة الإيمانية لحب عليّعليه السلام وبغضه.

قال رجل لسلمان: ما أشد حبك لعليّ، قال: سمعت رسول الله يقول: **من أحبّ علياً فقد أحبني، ومن أبغض عليّاً فقد أبغضني.**

ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[1]، وعن عمار بن ياسر قال: سمعت رسول اللهصلى الله عليه وآله يقول: **يا عليّ طوبى لمن أحبك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب فيك.**

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد[2].

---

١ ـ مستدرك الحاكم النيسابوري ٣: ١٢٠ كتاب معرفة الصحابة مكتب المطبوعات الإسلامية حلب.

٢ ـ مستدرك الحاكم ٣: ١٣٥.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نظر النبي ﷺ إلى علي فقال: يا عليّ أنت سيد في الدنيا وسيد في الآخرة، حبيبك حبيبي، وحبيبي حبيب الله، وعدوك عدوي، وعدوي عدو الله، والويل لمن أبغضك، ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين[١].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: ما كنا نعرف المنافقين إلاّ بتكذيبهم الله ورسوله والتخلّف عن الصلاة، والبغض لعليّ بن أبي طالب.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم[٢].

عن حيان الأسدي: سمعت علياً يقول: قال لي رسول الله ﷺ: إن الأمة ستغدر بك بعدي وأنت تعيش على ملّتي وتقتل على سنتي من أحبك أحبّني ومن أبغضك أبغضني[٣].

وعن أبي عبد الله الجدلي، قال: دخلت على أم سلمة رضي الله عنها فقالت لي: أيُسب رسول الله ﷺ فيكم؟ فقلت: معاذ الله... فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سبّ علياً فقد سبّني. ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد[٤].

وعن عمرو بن شاس الأسلمي عن رسول الله ﷺ: «من آذى علياً فقد آذاني»[٥].

---

١ ـ مستدرك الحاكم ٣: ١٢٨.

٢ ـ مستدرك الحاكم ٣: ١٢٩.

٣ ـ مستدرك الحاكم ٣: ١٤٢.

٤ ـ مستدرك الحاكم ٣: ١٢١.

٥ ـ مستدرك الحاكم ٣: ١٢٢.

هـذه نـبذة مـن الأحاديـث الـواردة عن رسول الله ﷺ وأصحابه في حبّ أمير المؤمنين عليه السلام، وقـد كـان بنو أمية لا يقفون عند بغض الإمام وكراهته، وإنمـا كـانوا يحـاربون الإمـام وأهـل بيـته وشـيعته ويعلـنون هـذه الحـرب، ويضعون أسس حكمهم وسلطانهم على ذلك.

الفصل الثامن

سياسة بني أمية تجاه الحرمين الشريفين

مناهج سياسة بني أمية تجاه الحرمين الشريفين

كان الحرمان الشريفان مكة المكرمة والمدينة المنوّرة يحتلان محلاً رفيعاً في نفوس المسلمين. وكان يسكن هاتان البقعتين المباركتين بقية من الأنصار والمهاجرين والتابعين لهم بإحسان وأبناء المهاجرين والأنصار.

ورغم محاولات بني أمية الكثيرة فإن الحرمين الشريفين كانا يشكلان قاعدتين للمعارضة السياسية لبني أمية، ولم يتمكن معاوية والحكام الذين جاءوا من بعده من تليين صلابة المعارضة في الحرمين الشريفين وإخضاعها لسلطان بني أمية بشكل مطلق، وإسكاتها إزاء طيش بني أمية ونزقهم وتجاوزاتهم رغم وسائل الإغراء والإرهاب الكثيرة التي استخدمها بنو أمية لترويض الحرمين الشريفين، ولذلك كان الحرمان الشريفان دائماً مصدر قلق للشام.. ولم يكن من اليسير أن تستسلم مكة المكرمة والمدينة المنورة للشام، وما يجري فيها على أيدي بني أمية من خروج سافر على أحكام الإسلام وتعليماته.

وقد حاول معاوية ومن بعده يزيد إخضاع الحرمين الشريفين بالقوة، ووقعة الحرّة التي أباح فيها يزيد بن معاوية المدينة المنورة معروفة، ومحاصرة مكة المكرمة مشهورة في التاريخ.

ولكن ذلك لم يجد نفعاً كبيراً في إخضاع هذين المركزين الإسلاميين لسلطان بني أمية.

ولذلك فقد اتبع بنو أمية سياسة متعددة الأبعاد للسيطرة على الحرمين الشريفين نشير إلى بعض النقاط الأساسية في هذه السياسة بإيجاز.

إشاعة اللهو والطرب في الحرمين الشريفين:

حاول بنو أمية أن يدخلوا اللهو والطرب في هذين المركزين الإسلاميين، وسعوا إلى ذلك سعياً بليغاً واستخدموا لذلك المغنّين والمطربين وشعراء الهوى والغرام وبذلوا في سبيل ذلك الأموال الطائلة، وبلغوا في ذلك أيّ مبلغ حتى أن الخليفة كان يحج إلى بيت الله فيصطحب معه فيما يصطحب المغنّين والمطربين والماجنين والماجنات والزناة والعصاة، ولقد حج الوليد بن عبد الملك فالتقى بعمر بن أبي ربيعة فجعل يحدّث الخليفة ويناجيه والخليفة مستغرق في الضحك، لا يملك نفسه من الضحك. فلمّا رجع عمر قيل له: ما الذي كنت تضحك أمير المؤمنين به؟ فقال: ما زلنا في حديث الزنا حتى رجعنا[١].

وتحج فاطمة بنت عبد الملك بن مروان إلى بيت الله فتبعث وهي في منى إلى عمر بن أبي ربيعة لتلتقيه[٢] ثم تغريه وتثيره ليشبب بها[٣].

ويتعرض عمر بن أبي ربيعة لأم الحكم الأموية، في الطواف ويشبب بها[٤] ويلتقي في مكة أم محمد بنت مروان بن الحكم وهي حاجّة ويشبب بها[٥]

---

١ ـ الأغاني ١: ١١٢ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر (دار الكتب المصرية)١٣٨٣ هـ.

٢ ـ الأغاني ١: ١٩٠.

٣ ـ الأغاني ١: ١٩٥.

٤ ـ الأغاني ١: ١٦٠.

٥ ـ الأغاني ١: ١٦٦.

ويقول:

مـن يكـن قلـبه صـحيحاً سـليماً   ففـؤادي بالخـيف أمسـى معـارا

وتستدعي فتيات بني أمية حاجّات عمر في الحج ليمازحنه، فيأخذن معه في مجون قبيح، ويأخذ معهنّ بمجون أقبح لا نريد أن نذكره هنا[١].

ويتشبب بنوار هنا في منى[٢] وبفاطمة بنت محمد الأشعث الكندية[٣] ويلتقي بها[٤] في أجواء الموسم والمشاعر ويتشبب في الحج بزينب بنت موسى الجمحية[٥].

ويواعد فتيات من قريش في وادي العقيق ويحضر الموعد معهنّ في مجلس ماجن خليع[٦] ويفرش للخليفة الوليد بن عبد الملك بظهر الكعبة، ويجلس بظهر الكعبة ويستمع إلى شعر عمر بن أبي ربيعة ويطرب[٧].

ويتشبب بلبابة بنت عبد الله بن العباس زوجة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وهي تطوف البيت الحرام[٨] وبعائشة بنت طلحة وهي تطوف[٩] ويستمر في ملاحقتها ومتابعتها بمرأى ومسمع من الناس حتى يتعرّض لها وهي

---

١ ـ الأغاني ١: ١٦٩.

٢ ـ الأغاني ١: ١٥٨ ـ ١٥٩.

٣ ـ الأغاني ١: ٨٤.

٤ ـ الأغاني ١: ٨٩.

٥ ـ الأغاني ١: ٩١ ـ ٩٤.

٦ ـ الأغاني ١: ١٥٠.

٧ ـ الأغاني ١: ١١٩.

٨ ـ الأغاني ١: ٢٠٧.

٩ ـ الأغاني ١: ١٩٩ ـ ٢٠٠.

ترمي الجمار سافرة ويسمعها شعره فيها وتشبيبه بها[١].

ويتعرّض لليلى بنت الحارث في المسجد الحرام فتقول له: يا بن ربيعة حتى متى لا تزال سادراً في حرم الله تتشبب بالنساء وتشيد بذكرهن، أما تخاف الله؟ فيقول لها: دعيني واسمعي ما قلت:

إن حبّي آل ليلى قاتلي ظهر الحب بجسمي وبطن
يا أبا الحارث قلبي طائر فائتمر أمر رشيد مؤتمن
علق القلب وقد كان صحا من بني بكر غزالاً قد شدن[٢]

ويتشبب برملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية في الحج ويتعرّض لها[٣] وبامرأة في الطواف يقول عنها التاريخ ـ شريفة ولا يسمّونها ـ فتدعو عليه فيهلكه الله[٤]. تُرى من هو عمر بن أبي ربيعة ـ ومثله من شعراء الهوى والمجون في جهاز بني أمية كثير ـ الذي يحوّل الموسم الذي أراده الله تعالى ليكون ذكراً له سبحانه وخشوعاً وعبادة، إلى موسم للمجون والخلاعة بهذه الصورة التي ينقل أبو الفرج الأصفهاني إلينا طرفاً منه؟ ومن هو هذا الشاعر الخليع الماجن الذي يتعرض لأعراض المسلمين في الطواف ومنى وأثناء الازدحام في الحجاز عند العقبة الأولى والثانية والكبرى ويتواعد معهن سراً ويشهّر بهنّ ويتشبب بهنّ جهاراً، وفيهنّ أميرات القصر الأموي من بنات الخلفاء وزوجات أمراء القصر الأموي في الشام.

---

١ ـ الأغاني ١: ٢٠٠.

٢ ـ الأغاني ١: ١٥٧.

٣ ـ الأغاني ١: ٢١٤ ـ ٢١٦.

٤ ـ الأغاني ١: ٢٤٧.

ويتحدث الناس بأحاديث مجونه وخلاعته في الحج... فلا يتعرض له أحد ولا يمنعه أحد من المسلمين من التعريض بأعراض المسلمين و(التشهير) بهن في موسم الحج.

أما أنا فلا أكاد أصدق عفوية ذلك، ولا أصدّق أن عمر بن أبي ربيعة قادر على شيء من ذلك، إن لم يكن قصر الخلافة في الشام يدعمه ويسنده، بل ويدفعه إلى ذلك ويشجّعه، وإن لم يكن الخليفة نفسه يفرش له على ظهر الكعبة ويجالسه ليستمع إلى شعره الماجن الخليع ويطرب له وهو في المسجد الحرام على ظهر الكعبة، وإن لم يكن الخليفة نفسه يجاريه، وهو ذاهب للحج، ويماشيه، ويستغرق معه في حديث طويل عن (الزنا) ويضحك لأحاديثه.

لقد كان بنو أمية إذاً يعملون لإشاعة المجون والخلاعة في الحرمين الشريفين ويشجّعون ذلك.

يقول المسعودي في تاريخ يزيد بن معاوية: (وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب)[١].

ويضع الشيخ عبد الله العلائلي إصبعه بدقة على موضع الجرح العميق في أيام بني أمية فيقول: (وشجع الأمويون حياة المجون في مكة والمدينة إلى حد الإباحة، فقد استأجروا طوائف من الشعراء والمغنين من بينهم عمر بن أبي ربيعة لأجل أن يمسحوا العاصمتين (مكة والمدينة) بمسحة لا تليق بجعلهما صالحتين للزعامة الدينية. وقد قال الأصمعي: دخلت المدينة فما

١ ـ مروج الذهب للمسعودي ٣: ٦٧.

وجدت إلا المخنثين ورجلاً يصنع الأخبار والطرائف)[١].

التضييق الاقتصادي على الحرمين الشريفين:

والضغوط المادية طريقة أخرى كان يستعملها بنو أمية لإرضاخ الحرمين الشريفين وإقناعهما بالطروحات الأموية في الخلافة.

فقد حبس معاوية عطاء أهل المدينة عندما وقفوا موقفاً سلبياً من مبايعة يزيد بولاية العهد.

كما أن سعر الحنطة الرسمي عند أهل المدينة كان يختلف عن سعر الحنطة في الشام. ولما تولّى يزيد بن معاوية الخلافة هدد أهل المدينة بالقتل الذريع والدمار إذا خرجوا عن أمره وسلطانه، وأغراهم بأن يعيد عليهم عطاءهم الذي حبسه أبوه عنهم ويساوي بينهم وبين أهل الشام في سعر الحنطة، إذا رضخوا لأمره واقتنعوا باستحقاقه للخلافة. ويبعث يزيد ـ فيما يرويه ابن قتيبة ـ إلى أهل المدينة عهداً يغريهم به للانقياد لحكومته وعدم الخروج عليه: (ولهم عليّ عهد أن أجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة عندنا (أي في الشام) والحنطة عندهم سبع اصُع بدرهم، والعطاء الذي يذكرونه أنه احتُبس عنهم في زمان معاوية فهو عليّ أن أخرجه لهم وافراً كاملاً)[٢].

وقد بلغ من تضييق بني أمية على الأنصار خاصة أنّ معاوية لمّا قدم إلى المدينة لم يكن لرجالهم وشخصياتهم دواب يستقبلون معاوية عليها.

---

١ ـ سموّ المعنى في سموّ الذات ٣٠.

٢ ـ الإمامة والسياسة ١: ٢٠٧ ط. ١٩٦٩مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

(قال عبد الله بن محمد بن عقيل: قدم معاوية المدينة فلقيه أبو قتادة الأنصاري، فقال معاوية: تلقاني الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار، قال: لم يكن لنا دوابّ. فقال: فأين النواضح؟

قال: عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر)[١].

نظرة بني أمية إلى الأنصار:

كان بنو أمية ساخطين على الأنصار سخطاً واضحاً، وكان بعض أسباب هذا السخط موقف الأنصار من معاوية في خلافه مع الإمام عليه السلام وحرب صفين. فلم يكن مع معاوية من الأنصار إلا النعمان بن بشير أما سائر الأنصار فقد كانوا مع الإمام علي عليه السلام.

وكان يزيد بن معاوية قد طلب من كعب بن الجعيل أن يهجو الأنصار، فقال له: أرادّي أنت إلى الكفر بعد الإسلام؟ أأهجو قوماً آووا رسول الله صلى الله عليه وآله ونصروه؟ قال: أما إذا كنت غير فاعل فأرشدني إلى من يفعل ذلك. قال: غلام منّا خبيث الدين نصراني، فدله على (الأخطل)[٢] فدعاه (يزيد) فقال له: أهج الأنصار. فقال: أفرَق من أمير المؤمنين (أي معاوية).

قال: لا تخف شيئاً أنا بذلك لك، فهجاهم فقال:

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٨٨. ويقول اليعقوبي في تاريخ ٢: ٣١١ ط. النجف ١٣٩٤: وقال لهم (أي قال معاوية للأنصار): ما فعلت نواضحكم؟ قالوا: أفنيناها يوم بدر لما قتلنا أخاك وجدك وخالك، لكننا نفعل ما أوصانا به رسول الله صلى الله عليه وآله: قال: ما أوصاكم به؟ قالوا: أوصانا بالصبر. قال: فاصبروا. ثم أولج معاوية إلى الشام ولم يقض لهم حاجة.

٢ ـ الأغاني ١٦: ٣٧ ـ ٣٨ دار الكتب.

خلّوا المكارم لستم من أهلها | وخذوا مساحيكم بني النجار
إن الفوارس يعرفون ظهوركم | أولاد كل مقبّح أكار
ذهبت قريش بالمكارم والعلا | واللؤم تحت عمائم الأنصار

فبلغ ذلك النعمان بن بشير (الأنصاري)، فدخل على معاوية فحسر عمامته عن رأسه، وقال: يا أمير المؤمنين أترى لؤماً؟ قال: بل أرى كرماً وخيراً، فما ذاك؟

قال: زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائم الأنصار. قال: أوفعل ذلك؟ قال: نعم. قال: لك لسانه[1]. فلما أحضر معاوية الأخطل ليعاقبه تدخّل يزيد في أمره فخلّى معاوية سبيله[2] وأرضى النعمان بن بشير.

ولما قدم معاوية إلى المدينة استقبله وفد من الأنصار (فأغلظ لهم في القول، وقال لهم: ما فعلت نواضحكم؟) فردّه الأنصار ردّاً قوياً (قالوا: أفنيناها يوم بدر لمّا قتلنا أخاك وجدك وخالك... ثم أولج معاوية إلى الشام ولم يقض لهم حاجة)[3].

وألقى عمرو بن العاص إلى معاوية إلغاء لقب الأنصار بصورة رسمية وطلب منه أن يردّهم إلى أنسابهم التي كانوا ينتسبون إليها في الجاهلية.

وكان يريد بذلك، كما هو مفهوم، أن يسلبهم الموقع الذي يمنحهم عنوان الأنصار.

واستجاب له معاوية في خوف وحذر إلا أنّ الأنصار انتبهوا للمؤامرة

---

١ ـ الأغاني١٦: ٣٥ ـ ٣٦ راجع طبقات الشعراء: ٣٩٢.

٢ ـ الأغاني٦: ٣٦.

٣ ـ تاريخ اليعقوبي٢: ٢١١ ط. النجف سنة ١٣٩٤ هـ.

الأموية وأبطلوها في وقتها.

يقول أبو الفرج الأصفهاني:

حضرت وفود الأنصار باب معاوية بن أبي سفيان فخرج إليهم حاجبه... فقالوا: استأذن للأنصار، فدخل إليه وعنده عمرو بن العاص فاستأذن لهم. فقال له عمرو: ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين؟ أردد القوم إلى أنسابهم، فقال معاوية: إنّي أخاف من ذلك الشّنعة، فقال (على طريقته العاصية): هي كلمة تقولها، إن مضت عضّتهم ونقصتهم، وإلا فهذا الاسم راجع إليهم.

فقال له: اخرج، فقل: من كان ههنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل... فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الأنصار. فنظر معاوية إلى عمرو نَظَراً منكراً (وكأنه يقول: ألم أقل لك) فقال له: باعدت جداً (هات بنسب أقرب منه).

فقال: أخرج فقل: من كان ههنا من الأوس والخزرج فليدخل فخرج فقالها. فلم يدخل أحد.

فقال له معاوية: أخرج فقل: من كان ههنا من الأنصار فليدخل. فخرج فقالها. فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير وهو يقول:

يا سعد لا تعد الدعاء فما لنا نسب نُجيب به سوى الأنصار
نسب تخيّره الإله لقومنا[١] أثقل به نسباً على الكفار[٢]

١ ـ التسمية بالأنصار وردت في آيتين من القرآن الكريم قرنت اسم الأنصار باسم المهاجرين في الآية ١٠٠ من سورة التوبة ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ وفي الآية ١١٧ من نفس السورة ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢ ـ الأغاني١٦: ٤٢ ط. دار الكتب المصرية.

إن الذيــن ثــووا بــبدر مــنكم يــوم القَليــب هــم وقــود الــنار[١]

الأمويون يسمّون المدينة بالخبيثة:

وكان من سخط الأمويين على المدينة وأهلها أنهم كانوا يسمّون المدينة المنوّرة ـ التي أسماها رسول الله بـ(الطيبة) ـ بـ(الخبيثة)، وقد ورد هذا المعنى في مجموعة من المصادر التأريخية وكان مما أنكره الناس على بني أمية.

يقول ابن أبي الحديد: (ومما كفر الناس به يزيد بن معاوية أنه سمّاها (خبيثة) مراغمةً لرسول الله ﷺ[٢]» ويروي ابن قتيبة عن أبي معشر: قال لي رجل بينا أنا في بعض أسواق الشام، إذا برجل ضخم، فقال لي: ممّن أنت؟ قلت: رجل من أهل المدينة. قال: من أهل الخبيثة؟ قال: فقلت: سبحان الله رسول الله ﷺ سماها طيبة، وسميتها خبيثة)[٣]. وساق الخبر إلى آخره...

الحيلولة بين الناس وبين زيارة مرقد رسول الله ﷺ:

وقد كان يغيظ بني أمية وعمّالهم إقبال المسلمين على زيارة مرقد رسول

---

١ ـ يقول المؤرخون برز رشيد الفارسي وهو مولى من المسلمين لابن عويف من المشركين في معركة أحد فضربه على عاتقه فقطع الدرع حتى جزله باثنتين وقال لابن عويف: خذها وأنا الغلام الفارسي. فقال له رسول الله ﷺ وهو يراه ويسمعه: ألا قلت أنا الغلام الأنصاري فلما سقط ابن عويف أقبل أخ لابن عويف يعدو كأنه كلب وهو يقول: أنا ابن عويف فضربه رشيد أيضاً على رأسه وعليه المغفر ففلق رأسه وقال: خذها وأنا الغلام الأنصاري. فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: أحسنت يا أبا عبد الله، فكنّاه رسول الله ﷺ يومئذ ولا ولد له. شرح النهج لابن أبي الحديد ١٥: ٥٤.

٢ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ٩: ٢٣٨.

٣ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة ٢١٥ ـ ٢١٦ ط. سنة ١٣٨٨ هـ.

الله واحترامهم للتربة الطاهرة التي تؤوي الجثمان الطاهر ويعملون بشكل أو بآخر في الإساءة إلى رسول الله ﷺ.

وكان ذلك يظهر على فلتات لسانهم في ساعة الغضب والانفعال بين حين وآخر.

يقول ابن أبي الحديد: (وخطب الحجاج بالكوفة فذكر الذين يزورون قبر رسول الله ﷺ بالمدينة. فقال: تبّاً لهم إنما يطوفون بأعواد ورمّة بالية، هلاّ طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله)[١].

نقل منبر رسول الله ﷺ من المدينة إلى الشام:

وكان من جملة الخطط الأموية في كسر حرمة المدينة المنوّرة، ونقل المركز الديني إلى الشام في قُبال الحرمين الشريفين محاولة معاوية بن أبي سفيان لنقل المنبر النبوي إلى الشام.

وقد أغضب الناس هذا الفعل... وتراجع معاوية عنه، يقول ابن الأثير في حوادث سنة خمسين:

(وفي هذه السنة أمر معاوية بمنبر النبي ﷺ أن يحمل من المدينة إلى الشام (انتقاماً من أهل المدينة) وقال:

لا يترك هو وعصا النبي ﷺ بالمدينة، وهم قتلة عثمان وطلب العصا... فحرّك المنبر فكُسفت الشمس حتى رُؤيت النجوم بادية فأعظم الناس ذلك فتركه...

---

١ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ١٥: ٢٤٢.

وزاد فيه ست درجات واعتذر مما صنع[١].

ونقل السمهودي في وفاء الوفاء: أنّ معاوية لمّا كسفت الشمس اعتذر إلى الناس وقال: أردت أن أنظر ما تحته وخشيت عليه من الأرضة[٢].

وكأن ذلك كله لم يكن كافياً ليقلع بنو أمية عن محاولة نقل منبر رسول الله ﷺ إلى الشام، فقد أعاد المحاولة عبد الملك بن مروان، ومن بعده الوليد... فنصحهم الناس فكفّوا عن ذلك.

يقول ابن الأثير:

فلمّا ولّى عبد الملك بن مروان همّ بالمنبر، فقال له قبيصة بن ذؤيب، أذكرك الله أن تفعل، فتركه عبد الملك، فلما كان الوليد ابنه وحجّ همّ بذلك فأرسل سعيد بن المسيب إلى عمر بن عبد العزيز. فقال: كلّم صاحبك ألاّ يتعرض للمسجد، ولا لله، والسخط له، فكلّمه عمر فتركه.

ولمّا حجّ سليمان بن عبد الملك أخبره عمر بما كان من الوليد فقال سليمان: ما لنا ولهذا؟ أخذنا الدنيا فهي في أيدينا، ونريد أن نعهد إلى علم من أعلام الإسلام يوفد إليه (وهذا هو سر كل هذه المحاولات) فنحمله إلى ما قبلنا. هذا لا يصلح[٣].

---

١ ـ الكامل لابن الأثير ٣: ٤٦٣ ـ ٤٦٤ ط. ١٣٨٥ هـ وقال اليعقوبي (وأراد معاوية) أن يحمل منبر رسول الله ﷺ فنال المنبر زلزلة حتى ظنّ أنه آخر الدنيا فتركه ثم زاد فيه خمس مراقي. تأريخ اليعقوبي ٢: ٢٢٥ ط. النجف سنة ١٣٩٤ هـ.

٢ ـ وفاء الوفاء للسمهودي ١: ٣٩٨.

٣ ـ الكامل لابن الأثير ٣: ٤٦٤.

تضييع معالم قبور شهداء أحد:

كانت قبور شهداء أحد مزاراً للمسلمين يقصدونها لزيارة الشهداء ويسلّمون عليهم وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على أن يدفن شهداء أحد في الأرض التي فيها صرعوا ولا يدفنوا في المدينة.

قال ابن الأثير: واحتمل بعض الناس قتلاهم إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ بدفنهم حيث صرعوا وأمر أن يدفن الاثنان والثلاثة في القبر الواحد[١].

ويروي الواقدي هذه القصة الرائعة لامرأة فقدت في الحرب زوجها وابنها وأخاها، يقول الواقدي: (وكانت عائشة زوج النبي ﷺ خرجت في نسوة تستروح الخبر (عن أمر المعركة في أحد) حتى إذا كانت بمنقطع الحرة، وهي هابطة من بني حارثة إلى الوادي... لقيت هند بنت عمرو بن حرام، أخت عبد الله بن عمرو بن حرام، تسوق بعيراً لها عليها (جثمان) زوجها عمرو بن الجموح، وابنها خلاّد بن عمرو، وأخيها عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر.

فقالت عائشة: عندك الخبر، فما وراءك؟

قالت هند: خيراً، أما رسول الله فصالح، وكل مصيبة بعده جلل[٢]، واتخذ الله من المؤمنين شهداء ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾.

قالت: من هؤلاء؟

---

١ ـ الكامل ٢: ١٦٢ ـ ١٦٣. وروى ابن أبي الحديد رواية أخرى عن الواقدي قريبة من رواية ابن الأثير شرح النهج ١٥: ٣٩.

٢ ـ أي هيّن.

قالت: أخي، وابني خلاد، وزوجي عمرو بن الجموح.

قالت: فأين تذهبين بهم؟

قالت: إلى المدينة أقبرهم فيها.. حَلْ[١] تزجر بعيرها.. ثم برك بعيرها.

فقلت: لما عليه؟ (أي إنما برك البعير لثقل الأجساد عليه) قالت: ما ذاك به. لربما حمل ما يحمل البعيران، ولكني أراه لغير ذلك، فزجرته فقام.

فلما وجّهت به إلى المدينة برك، فوجهته راجعة إلى أحد فأسرع.

فرجعت إلى النبي ﷺ فأخبرته بذلك. فقال رسول الله ﷺ: **فإنّ الجمل مأمور. هل قال شيئاً؟**

قالت: إن عمرو لما توجَّه إلى أحد استقبل القبلة وقال: اللهم لا تردني إلى أهلي خزيّاً، وارزُقني الشهادة.

قال رسول الله ﷺ: **فلذلك الجمل لا يمضي. إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبَره، منهم عمرو بن الجموح. يا هند ما زالت الملائكة مظللةً على أخيك من لدن قُتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن.**

ثم مكث رسول الله ﷺ حتى قبرهم؟

ثم قال: **يا هند، قد ترافقوا في الجنة جميعاً عمرو بن الجموح وابنك خلاد وأخوك عبد الله.**

قالت هند: يا رسول الله ادع الله عسى أن يجعلني معهم[٢].

وأمر رسول الله ﷺ يوم أحد أن يدفن عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد. وكان قبرهما مما يلي السيل في وادي أحد

---

١ ـ كلمة تقال لزجر البعير.

٢ ـ المغازي للواقدي ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦. تحقيق الدكتور مارسدن جوشي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
وروى ابن أبي الحديد في شرح النهج رواية الواقدي باختصار ١٥: ٣٧.

فدخل السيل عليهما.

فحفر الناس قبرهما لينقذوا جسديهما من السيل فوجدوهما (وعليهما نمرتان، وعبد الله قد أصابه جرح في وجهه، فيده على وجهه، فأميطت يده عن جرحه فشخب الدم[1]، فردت إلى مكانها فسكن الدم).

(قال جابر: فرأيت أبي في حفرته كأنه نائم وما تغيّر من حاله قليل ولا كثير. فقيل له: أفرأيت أكفانه؟ فقال: إنما كُفن في نمرة خمّر بها وجهه وعلى رجليه الحرمل. فوجدنا النمرة كما هي والحرمل على رجليه على هيئته، وبين ذلك وبين وقت دفنه ست وأربعون سنة. فشاورهم جابر في أن يطيّب بمسك، فأبى ذلك أصحاب النبي وقالوا: لا تحدثوا فيهم)[2].

كذلك كان أمر الله تعالى في شهداء أحد أن لا يخرج الناس بأجسادهم عن مضاجعهم التي صُرعوا فيها، فَتَمنَّع الجمل عن الحركة إذ وجّه نحو المدينة، وكذلك أمر رسول الله ﷺ بإعادة الشهداء إلى أحد.

...وهكذا وجدوا أجساد شهداء أحد بعد ست وأربعين سنة غضاضاً كأنهم دفنوا أمس، ولم تتغيّر الحرمل على رجلي أبي جابر رضي الله عنه، ويريد جابر أن يطيب جثمان والده بالمسك فيأبى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ لئلا يكونوا قد أحدثوا في مقابر شهداء أحد أمراً.

وكان رسول الله يزور شهداء أحد في كل حول ويرفع صوته بالسلام عليهم، وكذلك الخلفاء من بعده[3].

---

١ ـ شخب الدم: جرى. النهاية ١: ١٢٨ لابن الأثير.

٢ ـ كتاب المغازي للواقدي ١: ٢٦٧.

٣ ـ شرح النهج ١٥: ٤٠.

ويروي ابن أبي الحديد عن الواقدي أن: (فاطمة بنت رسول الله ﷺ (كانت) تأتيهم بين اليومين والثلاثة فتبكي عندهم، وتدعو.

وكان سعد بن أبي وقاص يذهب إلى ماله بالغابة فيأتي من خلف قبور الشهداء. فيقول: السلام عليكم ثلاثاً، ويقول: لا يسلم عليهم أحد إلا ردّوا عليه السلام يوم القيامة.

قال: ومرّ رسول الله ﷺ على قبر مصعب بن أبي عمير فوقف عليه ودعا، وقرأ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾.ثم قال: إن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم فزوروهم وسلموا عليهم، والذي نفسي بيده لا يسلّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردّوا عليه، وكانت أم سَلَمَة رحمها الله تذهب فتسلّم عليهم في كل شهر مرة، فتظل يومها...)[1].

...وهكذا أصبحت مقابر شهداء أحد مزاراً للمسلمين بتوجيه من رسول الله ﷺ وأهل بيته وصحابته حتى جاء معاوية إلى الحكم، وانفرد بالسلطان فأمر بإجراء قناة من الماء (كظامة) في المنطقة التي دفن فيها شهداء أحد. وكان مجرى القناة يمر بقبور شهداء أحد، فتهيّب عامل معاوية من نبش وإخراج أجساد الشهداء، فكتب إلى معاوية بذلك. فأمره بنبش القبور وتنفيذ مشروع القناة.

يقول ابن سعد في الطبقات: (لما أراد معاوية أن يجري عينه التي بأحد، كتبوا إليه: إنّا لا نستطيع أن نجريها إلا على قبور الشهداء، فكتب: انبشوهم. قال فرأيتهم (أي أجساد الشهداء) يحملون على أعناق الرجال كأنّهم قوم

١ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ١٥: ٤٠.

نيام وأصابت المسحاة رجل حمزة بن عبد المطلب فانبعثت دما)[١].

وقال الواقدي في المغازي: ويقال: إن معاوية لمّا أراد أن يجري (كظامة) ـ والكظامة عين أحدثها معاوية ـ نادى مناديه بالمدينة من كان له قتيل بأحد فليشهد، فخرج الناس إلى قتلاهم، فوجدوهم طرايا يتثنّون، فأصابت المسحات رجلاً منهم فشخب دماً.

قال أبو سعيد الخدري: لا ينكر بعد هذا منكراً أبداً... ولقد كانوا يحفرون التراب فكلما حفروا فِتراً من تراب فاح عليهم المسك[٢].

ذلك إجمال القصة التي يشير إليها المؤرخون من اعتداء معاوية على قبور شهداء أُحد بعذر إجراء كظامة (قناة) على أرض أحد... وقد جرى ما جرى من انتهاك حرمة الشهداء ونبش قبورهم وحمل أجسادهم على الأعناق وتجاوز مشاعر المسلمين تجاه قبور الشهداء.

وقد جرى كل ذلك تحت غطاء هذه الكظامة المزعومة وسكت عنها المؤرخون.

أمّا نحن فنكاد نطمئن إلى أن في الأمر سراً، وراء هذه الكظامة التي اهتم بها معاوية بهذه الدرجة التي بعثته أن يكاتب عامله في المدينة من الشام ويعاود الكتابة إليه.

إنني أرى أن اهتمام المسلمين بزيارة شهداء أحد كان يتنامى في أيام

---

١ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد ٣: ١١ دار صادر بيروت.

٢ ـ كتاب المغازي للواقدي ١: ٢٦٨. وأورد القصة الإمام الحافظ عبد الله بن المبارك في كتاب الجهاد: ٨٤ تحقيق نزيه حمّاد بيروت دار السفر، ١٣٩١ هـ وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤: ٢٦٤.

معاوية بشكل خاص، وكان يحمل في طياته معنى سياسياً خاصاً، فهؤلاء الشهداء ومن بينهم حمزة بن عبد المطلب قتلوا على أيدي المشركين بقيادة أبي سفيان والد معاوية وبزعامة أسرة معاوية، وقد لاكت أم معاوية هند كبد حمزة عليه السلام في عمل وحشي ينم عن حقد عميق تجاه الإسلام والمسلمين.

وكان وادي أحد، ومعركة أحد، وشهداء أحد يشكّلون صفحة سوداء من جرائم بني أمية...

وكانت زيارة المسلمين وأهل المدينة بشكل خاص، وتنامي مظاهر هذه الزيارة تعبيراً عن سخط المسلمين على بني أمية ورفضهم لسلطان بني أمية وحكمهم.

وحاول معاوية أن يعالج الموقف بهذه الصورة فأمر بحفر القَناة لتضييع معالم قبور شهداء أحد، وتنتهي به هذه التظاهرة السلبية السياسية تجاه حكم بني أمية وخلافتهم... فكان ولكن ﴿يَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾[1].

---

١ ـ التوبة: ٣٢.

الفصل التاسع

نموذج للسياسة الأموية تجاه الحرمين الشريفين (مجزرة الحَرَّة)

مجزرة الحَرّة في مدينة رسول الله ﷺ

وفي هذه المجزرة الرهيبة التي تمّت بأمر يزيد بن معاوية في مدينة رسول الله ﷺ استباح فيها بنو أمية حرم رسول الله وانتهكوا حرمة مدينته.

وقد (كان سعيد بن المسيب يسمّي سنيَ يزيد بن معاوية بالشؤم:

في السنة الأولى: قتل الحسين بن علي عليه السلام وأهل بيت رسول الله ﷺ.

والثانية: استُبيحَ حرم رسول الله ﷺ وانتهكت حرمة المدينة.

والثالثة: سفك الدماء في حرم الله وحرقُ الكعبة)[1].

وكان من قصّة الحرّة التي استباح فيها يزيد حرمة رسول الله ﷺ أن جماعة من وجوه أهل المدينة من أبناء الصحابة وفدوا إلى الشام للقاء يزيد بن معاوية، منهم: عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة الأنصاري، وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص، والمنذر بن الزبير، ورجالاً من أشراف أهل المدينة قدموا يزيد.

يقول الطبري:

(فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم، ثم انصرفوا من عنده وقدموا المدينة... فأظهروا شتم يزيد وعيبه. وقالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دين يشرب الخمر ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب

---

١ ـ تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٠. منشورات المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف.

ويسامر الحزاب والفتيان)[1].

فخلعوا طاعة يزيد وبيعته، وخرجوا عليه وطردوا عامله في المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان.

(وكان عبيد الله بن حنظلة الغسيل يقول: والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نُرمى بالحجارة من السماء.

رجل ينكح الأمهات والبنات والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة، ويقتل أولاد النبيين)[2].

وكتب يزيد إلى أهل المدينة كتاباً، أمر عثمان بن محمد أن يقرأه عليهم، وهذا هو الكتاب:

أما بعد: فإني قد نفستكم حتى أخلفتكم، ورفعتكم حتى أخرقتكم، ورفعتكم على رأسي، ثم وضعتكم، وايمُ الله لئن آثرت أن أضعكم تحت قدميَ لأطأنّكم وطأةً أقل منها عددكم وأترككم أحاديث تتناسخ كأحاديث عاد وثمود، وايمُ الله لا يأتيكم مني أولى من عقوبتي فلا أفلح من ندم[3].

ثم أرسل يزيد إلى المدينة مسلم بن عقبة لعنه الله، وكان بفلسطين فاستدعاه ووجّهه إلى مدينة رسول الله في جيش كثيف من أهل الشام لمحاربة أهل المدينة فأباحوا مدينة رسول الله ﷺ ثلاثاً، وقتلوا أشراف المسلمين وبقية الصحابة من الأنصار والمهاجرين، وأقاموا فيها ثلاثاً يقتلون

---

١ ـ تاريخ الأمم والملوك للطبري ٧: ٤٠٣ ط. ليدن: ١٩٥ دار الفكر بيروت.

٢ ـ تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي:٢٥٩ مؤسسة أهل البيت بيروت ١٤٠١ هـ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ١: ١٩٥ دار الفكر بيروت.

٣ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ٢٠٧ ط. مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

الرجال وينهبون الأموال ويهتكون الحرمات في قصة مؤلمة مشجية لا تحتملها القلوب فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

قال سبط ابن الجوزي:

وذكر المدائني في كتاب (الحرّة) عن الزهري قال: كان القتلى يوم الحرّة سبعمائة من وجوه الناس من قريش والأنصار والمهاجرين ووجوه الموالي. وأما من لم يعرف من عبد أو حر أو امرأة فعشرة آلاف، وخاض الناس في الدماء حتى وصلت الدماء إلى قبر رسول الله ﷺ وامتلأت الروضة والمسجد. قال مجاهد التجأ الناس إلى حجرة رسول الله ومنبره والسيف يعمل فيهم[1].

وقال ابن قتيبة: (ذكروا أنه قتل يوم الحرّة من أصحاب النبي ﷺ ثمانون رجلاً، ولم يبق بدريّ بعد ذلك، ومن قريش والأنصار سبعمائة، ومن سائر الناس من الموالي والعرب والتابعين عشرة آلاف)[2].

وقد ذكر اليعقوبي في قصة الحرّة: أنّ أبكار المدينة ولَدْنَ ولا يعرف من أولدهنّ. وفي هامش الأصل من النسخة (ولدت ألف امرأة من وقعة الحرّة من غير أزواج فلعنة الله والملائكة والناس أجمعين على من استحلّ ذلك في حرم رسول الله)[3].

(وذكر أبو الحسن المدائني عن أم الهيثم بنت يزيد قالت: رأيت امرأةً من قريش تطوف بالبيت فعرض لها غلام أسود فعانقته وقبّلته. فقلت لها: ما

---

١ ـ تذكرة الخواص ٢٥٩ مؤسسة أهل البيت بيروت.

٢ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ٢١٦، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

٣ ـ تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٣٧ منشورات المطبعة الحيدرية النجف الأشرف.

هذا منك؟ قالت: هذا ابني من يوم الحرّة)[١].

وروى السيوطي في تأريخ الخلفاء قصة الحرّة، فقال: قُتِل فيها خلق من الصحابة رضي الله عنهم ومن غيرهم ونهبت المدينة، وافتضّت فيها ألف عذراء فإنا لله وإنّا إليه راجعون[٢].

وينقل ابن قتيبة الدينوري (٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ) في كتابه الإمامة والسياسة صوراً من هذه الوقعة الأليمة المفجعة التي اقترفتها أيدي بني أمية ننقل فيما يلي شطراً منها:

وخرج يومئذٍ عبد الله بن زيد بن عاصم صاحب رسول الله ﷺ والخيل تسرع في كل وجه قتلاً ونهباً، فقيل له: لو علم القوم باسمك وصحبتك لم يهيجوك، فلو أعلنتهم بمكانك. فقال: والله لا أقبل لهم أماناً، ولا أبرح حتى أقتل، لا أفلح من ندم، وكان رجلاً أبيض طويلاً أصلع، فأقبل عليه رجل من أهل الشام وهو يقول: والله لا أبرح حتى أضرب صلعتك وهو حاسر، فقال عبد الله: شر لك خير لي، فضربه بفأسٍ في يده، فرأيت نوراً ساطعاً في السماء، فسقط ميتاً. وكان يومه ذاك صائماً، رحمه الله...

قال: فجعل مسلم يطوف على فرس له ومعه مروان بن الحكم على القتلى، فمر على عبد الله بن حنظلة، وهو مادّ اصبعه السبابة، فقال مروان: أما والله لئن نصبتها ميتاً فطالما نصبتها حياً. ومرّ على إبراهيم بن نعيم، ويده على فرجه، فقال أما والله لئن حفظته في الممات لقد حفظته في الحياة. ومرّ على محمد بن عمرو بن حزم وهو على وجهه واضعاً جبهته بالأرض، فقال: أما

---

١ ـ تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي: ٢٥٩ ط. مؤسسة أهل البيت بيروت ١٤٠١هـ.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٩٤ دار الفكر بيروت.

والله لئن كنت على وجهك في الممات لطالما افترشته حياً ساجداً لله. فقال مسلم: والله ما أرى هؤلاء إلا من أهل الجنة. ومرّ على عبد الله بن زيد وبين عينيه أثر السجود، فلما نظر إليه مروان عرفه، وكره أن يعرّفه لمسلم فيحزّ رأسه، فقال له مسلم: من هذا؟ فقال: بعض هذه الموالي وجاوزه، فقال له مسلم: كلاً، وَبيت الله لقد نكبت عنه لشيء فقال له مروان، هذا صاحب رسول الله ﷺ عبد الله بن زيد، فقال: ذاك أخزى ناكث بيعته، حزّوا رأسه[١].

ولزم أبو سعيد الخدري بيته، فدخل عليه نفر من أهل الشام فقالوا: أيها الشيخ من أنت؟ فقال: أنا أبو سعيد الخدري صاحب رسول الله ﷺ، فقالوا: ما زلنا نسمع عنك، فبحظك أخذت في تركك قتالنا، وكفك عنا، ولزوم بيتك، ولكن أخرج إلينا ما عندك، قال: والله ما عندي مال، فنتفوا لحيته، وضربوه ضربات ثم أخذوا كل ما وجدوه في بيته حتى الصواع، وحتى زوج حمام كان له.

وكان جابر بن عبد الله يومئذ قد ذهب بصره فجعل يمشي في بعض أزقّة المدينة، وهو يقول: تعس من أخاف الله ورسوله، فقال له رجل: ومن أخاف الله ورسوله؟

فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أخاف المدينة فقد أخاف ما بين جنبيّ، فحمل عليه رجل بالسيف ليقتله، فترامى عليه مروان فأجاره[٢].

(ثم أمر مسلم بالأسارى، فغُلّوا بالحديد، ثم دعا إلى بيعة يزيد، فكان أول من بايع مروان بن الحكم، ثم أكابر بني أمية، حتى أتى على آخرهم

١ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري: ٢١٢ ـ ٢١٣.

٢ ـ الإمامة والسياسة: ٢١٣ ـ ٢١٤.

ثـم دعـا بنـي أسـد، وكـان عليهم حنقاً، فقال: أتبايعون لعبد الله يزيد بن أمير المؤمنيـن ولمن استخلف عليكم بعده، على أنّ أموالكم ودماءكم وأنفسكم خـول لـه، يقضـي فيها ما شاء، فقال يزيد بن عبد الله بن زمعة: إنما نحن نفر مـن المسـلمين لـنا ما لهـم وعلـينا مـا عليهم، فقال مسلم: والله لا أقبلك، ولا تشـرب البـارد بعدهـا أبداً، فأمر بضرب عنقه، ثم أتى بمعقل بن سنان، وكان معقـل حـاملاً لـواء قومـه يـوم الفـتح مـع رسـول الله ﷺ فلمـا دخـل قال لـه: أعطشت يا معقل؟ قال: نعم أصلح الله الأمير، قال: حيّسوا لـه شربة من سويق اللوز الذي زودنا به أمير المؤمنين فلمّا شربها قال لـه: رويت؟ قال: نعم. فقال مسلم: أما والله لا تبولها من مثانتك أبداً، فقدم فضرب عنقه، ثم قال: ما كنت لأدعـك بعـد كـلام سـمعته مـنك تطعن به على إمامك، وكان معقل قد طعن بعـض الطعـن علـى يـزيد قـبل ذلـك فـيما بـينه وبـين مسـلم، على الاستراحة بذلـك، ثـم أمـر بمحمـد بن أبي الجهم، وجماعة من وجوه قريش والأنصار وخيار الناس والصحابة والتابعين)[1].

قـال أبـو معشـر: دخـل رجـل مـن أهـل الشـام علـى امـرأة نُفَساء من نساء الأنصـار، ومعهـا صبي لها، فقال لها: هل من مال؟ قالت لا، والله ما تركوا لي شـيئاً، فقـال: والله لتخرجـنَّ إلـيَّ شـيئاً أو لأقتلـنّك وصـبيّك هـذا، فقالت لـه: ويحك إنه ولد ابن أبي كبشة الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ، ولقد بايعت رسـول الله ﷺ معـه يـوم بيعة الشجرة، على أن لا أزني، ولا أسرق، ولا أقتل ولـدي، ولا آتـي ببهـتان أفـتريَه، فمـا أتيت شيئاً، فاتّقِ الله. ثم قالت لابنها: يا بنيّ والله لو كان عندي شيء لافتديتك به، قال: فأخذ برجل الصبيّ، والثدي

---

١ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري: ٢١٤.

في فمه فجذبه من حجرها، فضرب به الحائط فانتشر دماغه في الأرض، قال: فلم يخرج من البيت حتى اسودّ نصف وجهه، وصار مثلاً.

قال أبو معشر: قال لي رجل بينا أنا في بعض أسواق الشام، إذا برجل ضخم، فقال لي: فمن أنت؟ قلت: رجل من أهل المدينة، قال: من أهل الخبيثة؟ قال: فقلت: سبحان الله، رسول الله ﷺ سمّاها طيبة وسميتها خبيثة! قال: فبكى، قلت له: ما يبكيك؟ قال: العجب والله، كنت أغزو الصائفة كل عام زمن معاوية، فأتيت في المنام فقيل لي: إنك تغزو المدينة، وتقتل فيها رجلاً يقال له محمد بن عمرو بن حزم، وتكون بقتله من أهل النار. قال: فقلت: ما هذا من شأن المدينة، ولا يقع في نفس مدينة الرسول... قال: فقلت: لعلها بعض مدائن الروم، فكنت أغزو ولا أسل فيها سيفاً، حتى مات معاوية، ووليَ يزيد فضرب قرعة بعث المدينة، فأصابتني القرعة، قال: فقلت: هي هذه والله فأردت أن يأخذوا مني بديلاً، فأبوا. فقلت في نفسي: أما إذا أبوا، فإني لا أسل فيها سيفاً، قال: فحضرت الحرّة فخرج أصحابي يقاتلون، وجلست في فسطاطي، فلمّا فرغوا من القتال، جاءنا أصحابنا، فقالوا: دخلنا وفرغنا من الناس، فقال بعض أصحابي لبعض: تعالوا ننظر إلى القتلى. فتقلدت سيفي وخرجت. فجعلنا ننظر إلى القتلى، ونقول: هذا فلان، وهذا فلان، فإذا رجل في بعض تلك الدارات في يده سيف، وقد أزبد شدقاه، وحوله صرعى من أهل الشام، فلما أبصرني قال: يا كلب أحقن عنّي دمك.

قال: فنسيت والله كل شيء، فحملت عليه فقاتلته فقتلته، فسطع نور بين عينيه وسقط في يدي، قلت: من هذا؟ فقيل لي: هذا محمد بن عمرو بن

حزم، فجعلت أدور مع أصحابي فيقولون: هذا فلان، وهذا فلان، فمرّ إنسان لا يعرف، فقال: من قتل هذا ويحكم، يريد محمد بن عمرو بن حزم! قتله الله، والله لا يرى الجنة بعينه أبداً[١].

وقفة مع عبد الله بن عمر:

روى البخاري عن أيوب عن نافع قال: لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر أي (عبد الله بن عمر) حشمه وولده، فقال: إني سمعت النبي ﷺ يقول: (ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة) وإنّا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال، وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا بايع[٢] في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه[٣].

وكان ابن عمر قد امتنع أولاً عندما رشّح معاوية ابنه يزيد لولاية العهد عن البيعة وقال: إنه لا يبايع لأميرين في وقت واحد[٤].

وهو جواب ضعيف وموقفه أضعف منه، فإن معاوية لم يطلب منه أن يبايع يزيد أميراً وإنما طلب منه أن يبايعه ولياً للعهد.

ولم يكن عبد الله ليملك القوة والجرأة الكافية التي تمكنه من اتّخاذ موقف قوي تجاه البيعة ليزيد فقد كان أمر يزيد في فسقه وشربه أشهر من أن يخفى على أحد، وما كان أولى بابن عمر أن يردّ معاوية عن هذا الأمر

---

١ ـ الإمامة والسياسة: ٢١٥ ـ ٢١٦.

٢ ـ قرأه الأكثر (ولا تابع في ذلك) وهو أقرب إلى مضمون الرواية.

٣ ـ صحيح البخاري ٤: ١٨٨ ط. مصر ١٢٨٦ هـ.

٤ ـ فتح الباري ١٣: ٦٠.

ويعلن امتناعه عن البيعة ليزيد بما يعرفه فيه عامة الناس من فسوق وفجور.

إلا أن ابن عمر لم يكن يملك هذه الجرأة والشجاعة، ولم يكن يريد أن يسرع في البيعة قبل غيره من رجال المسلمين، فاعتذر لمعاوية بهذا الجواب الضعيف، فأرسل إليه معاوية بمائة ألف درهم فأخذها فدسّ إليه رجلاً فقال له: ما يمنعك أن تبايع؟

فقال: إن ذاك لذاك (يعني عطاء ذلك المال لأجل وقوع المبايعة) إن ديني عندي إذن لرخيص[1].

ولم يرو لنا التاريخ أنه ردّ المال أو أنكر على معاوية هذا الأسلوب الملتوي الماكر في أخذ البيعة ليزيد، ولم يزد عبد الله على أن قال بعد أن أدرك المؤامرة: إن ديني عندي إذن لرخيص[2].

(فلما مات معاوية كتب ابن عمر إلى يزيد ببيعته)[3].

ثم ما بال ابن عمر الذي عجز أن يتخذ موقفاً قوياً من يزيد بن معاوية في حياة معاوية وبعد وفاة معاوية... يتّخذ هذا الموقف القوي الحاسم من الخارجين على يزيد بن معاوية من المهاجرين والأنصار ومن أبناء المهاجرين والأنصار، وفيهم الصالحون المقيمون للصلاة الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر... فيعلن موقفه السلبي من الخروج على يزيد بهذه الصورة الحاسمة: (وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه، ولا تابع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه) والفيصل هنا البراءة الكاملة، ألم يكن يزيد أولى بهذه البراءة والفيصل من أبناء المهاجرين والأنصار ومنهم

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ المصدر السابق.

عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة رضي الله عنه وخيار التابعين وعامة المسلمين من حرم رسول الله؟

ولم ينقل لنا التاريخ أن عبد الله بن عمر غيّر رأيه في يزيد حتى بعد مجزرة الحرّة الرهيبة التي أمر فيها يزيد بإباحة حرم رسول الله ﷺ ثلاثاً فقتل فيها (حنظلة وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثاً، فقتل جماعة من بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التابعين وهم ألف وسبعمائة، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان وقتل بها جماعة من حملة القرآن، وقتل جماعة صبراً منهم معقل ابن سنان ومحمد بن أبي الجهم بن حذيفة، وجالت الخيل في مسجد رسول الله ﷺ، وبايع الباقون كرهاً على أنهم حوّل ليزيد)[1].

كل ذلك، ومن قبله جريمة يزيد في قتال ريحانة رسول الله ﷺ الحسين عليه السلام لم يزحزح شيئاً من ولاء عبد الله بن عمر ليزيد وبراءته من الخارجين عليه، وبقي الفيصل بينه وبين الخارجين على يزيد.

وإليك هذا النص الذي يرويه مسلم لتعلم أن عبد الله بن عمر لم يغيّر رأيه من البيعة ليزيد حتى بعد وقعة الحرّة الأليمة وبعد استشهاد سيد الشهداء الحسين عليه السلام على يد بني أمية في خلافة يزيد:

وروى مسلم عن زيد بن محمد عن نافع قال: جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع[2] حين كان من أمر الحرّة ما كان زمن يزيد بن معاوية، فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك

---

١ ـ إرشاد الساري للقسطلاني ١٠: ١٩٩.

٢ ـ كان عبد الله بن مطيع على قريش يوم الحرة وقد فرّ واختبأ عند امرأة في رف لها وجرت له قصة وهو الذي يقول: أنا الذي فررت يوم الحرّة. تهذيب التهذيب ٦: ٣٦. وراجع العقد الفريد ٥: ١٣٨.

لأحدثك حديثاً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجّة لـه، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتةً جاهلية[١].

ثـم أليس عـبد الله بـن عمر، هو الذي يروي فيما يروي عن البخاري في كتابه الصحيح (عن النبي ﷺ: السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره، ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)[٢].

وهل يشك عبد الله بن عمر في أنّ يزيد بن معاوية كان يعصي الله تعالى في أكبر ما حرّمه الله تعالى وينتهك حرمات الله.

أما نحن فمهما شككنا في شيء فلا نشك أنّ عبد الله بن عمر كان يعرف جيداً أن يزيد فاسق، فاجر، منتهك لحرمات الله، يأمر بالمحرمات وينهى عن المعروف، ويقتل النفوس المؤمنة البريئة، ويتجاوز حدود الله من غير تردد ولا حرج. فكيف يريد أن يوفّق عبد الله بن عمر ـ يا ترى ـ بين رأيه هذا الذي يريد أن يبرّر موقفه الضعيف من بيعة يزيد وبين حديث رسول الله ﷺ والذي يرويه هو بالذات؟

إن من حقّنا لأنفسنا بالشك في موقف عبد الله بن عمر الجريء الحاسم الأخير، وفي موقفه الاستسلامي قبله من البيعة ليزيد بعد وفاة معاوية من دون اعتراض أو تردد، وفي موقفه الضعيف الأول من قبول هدية معاوية والاعتذار إليه بأنه لا يريد أن يبايع لأميرين في وقت واحد.

وإنّ من حقنا أن نحتمل أن معاوية قد استطاع أن يستغل ضعف عبد الله أسوأ استغلال ويليّن عوده للبيعة ليزيد ويروّضه على ذلك بأساليبه الماكرة

---

١ ـ صحيح مسلم ٦: ٢٢ دار الفكر بيروت كتاب الإمارة: باب الأمر بلزوم الجماعة.

٢ ـ صحيح البخاري ٤: ١٩١ ط. مصر ١٢٨٦ هـ.

الملتوية المعروفة، والتي لم تخف حتى على عبد الله بن عمر نفسه، بما عرف من بساطة وسذاجة في المسائل السياسية حتى قال: (إن ذاك لذاك، إن ديني عندي إذن لرخيص).

وأعجب من هذا وذاك رأي حملة القلم والسنّة النبوية من بعد عبد الله بن عمر... فقد يكون لعبد الله بن عمر عذر ـ في ظروفه السياسية الصعبة ـ أن يحمل هذا الرأي ويعلن عنه في ولائه ليزيد بن معاوية وبراءته عن الخارجين عليه، ولكن ما عذر ابن حجر العسقلاني ونظرائه من العلماء وحملة السنّة النبوية أن يفرضوا هذا الموقف الاستسلامي الضعيف على السنّة النبوية المطهّرة الآمرة بالمعروف والناهية عن السكوت على الظالمين.

يقول ابن حجر العسقلاني في شرح هذه الرواية: (وفي هذا الحديث وجوب لطاعة الإمام الذي انعقدت له البيعة والمنع من الخروج عليه، ولو جار في حكمه وأنه لا ينخلع بالفسق)[1].

إن شيئاً من ذلك ليس من الإسلام قط، وليس من روح الإسلام وأصوله وتعاليمه أن يسمح بمثل هذا الرضوخ للظلم والاستسلام لحاكم فاسق من مثل يزيد.

ورحم الله عبد الله بن حنظلة الغسيل حيث كان يقول: (والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نُرمى بالحجارة من السماء، رجل ينكح الأمهات والبنات والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة، ويقتل أولاد النبيين)[2].

---

١ ـ فتح الباري ١٣: ٦١.

٢ ـ تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي: ٢٥٩ ط. مؤسسة أهل البيت ١٤٠١ هـ، وبرواية أحمد بن عبد ربه في العقد الفريد ٥: ١٢٦ لما قدم عبد الله بن حنظلة المدينة (من الشام في وفد إلى يزيد) أتاه

إن الإسلام في الوقت الذي يأمر بالطاعة والتسليم لله ولرسوله ولأولياء الأمور يحذّر من الطاعة والتسليم في معصية الله ولمن يأمر بالمعصية، وتسقط الطاعة للعصاة وتتحول إلى ذنب يستحق عليه صاحبه العقاب.

والحديث التالي الذي يرويه البخاري عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عن رسول الله يكشف بوضوح عن هذا الاتجاه وأصالته في السنة النبوية، روى البخاري في كتابه الصحيح عن أبي عبد الرحمن عن عليّ رضي الله عنه قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم سريّة وأمّر عليها رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب عليهم، وقال: أليس قد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: عزمت عليكم لما جمعتم حطباً وأوقدتم ناراً ثم دخلتم فيها، فجمعوا حطباً فأوقدوها، فلما همّوا بالدخول فقام ينظر بعضهم إلى بعض، فقال بعضهم: إنما اتّبعنا النبي صلى الله عليه وسلم فراراً من النار، أفندخلها؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار، وسكن غضبه، فذكر للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «**لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف**»[1].

الناس فقالوا ما وراءك: قال: أتيتكم من عند رجل والله لو لم أجد إلا بنيّ هؤلاء لجاهدته بهم. قالوا: فإنه قد بلغنا أنه أكرمك وأجازك وأعطاك. قال: قد فعل وما قبلت ذلك منه، إلا أن أتقوّى به عليه.

١ ـ صحيح البخاري ٤: ١٩١ ط. مصر ١٢٨٦ هـ كتاب الأحكام باب السمع والطاعة ما لم تكن معصية.

الفصل العاشر

خلاصة عن نتائج خلافة بني أمية

خلاصة عن نتائج خلافة بني أمية في تاريخ الإسلام

استعرضنا إلى هنا نماذج وصوراً من أعمال بني أمية في فترة ولايتهم على المسلمين ووجدنا عمق التخريب والتحريف الذي جرى في جهاز الخلافة الإسلامية وفي مساحة العالم الإسلامي على أيدي الحكام من بني أمية في هذه الفترة.

وبعض هذا يكفي لكي نعرف عمق المأساة التي حلّت بالمسلمين بعودة هذه الأسرة العريقة في الجاهلية إلى موقع القيادة ومركز الولاية في المجتمع الإسلامي، بعد أن انتزع منهم الإسلام مواقعهم ونفوذهم وسلطانهم في الجاهلية.

وفيما يلي نستعرض خلاصة عن نتائج هذه الفترة العسيرة من تاريخ المسلمين في النقاط التالية:

١. عودة القيادات الجاهلية:

عادت القيادات والشخصيات الجاهلية إلى مراكز النفوذ والسلطان في المجتمع الإسلامي، بعد أن حاربوا الإسلام طويلاً وأقصاهم الإسلام عن مراكزهم في المجتمع واستبدل بهم أناساً آخرين من المؤمنين الأشدّاء في ذات الله من أمثال: أبي ذر وعمّار وبلال.

وقد كان بنو أمية يحرصون كل الحرص على استعادة أمجادهم

ومواقعهـم ونفوذهـم في الإسلام كالتي كانوا يملكون في الجاهلية. وسمعنا نصيحة أبي سفيان لعثمان بن عفان (أدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية فإنما هو الملك، ولا أدري ما جنة ولا نار) فصاح به عثمان وزجره.

وقد تولت في هذه الفترة من تأريخ الإسلام فئة مترفة، بعيدة كل البعد عن روح الإسلام من بني أمية وغيرهم، طغوا في البلاد وأشاعوا فيها الفساد، من أمثال مروان بن الحكم ـ الذي صحّ عن رسول الله ﷺ لَعْنُه ـ ومعاوية ويزيد بن معاوية والحجاج بن يوسف الثقفي وغيرهم. وقد كان لوجود هذه الطبقة في مراكز النفوذ والحكم أثر بليغ في إفساد المجتمع الإسلامي وإشاعة الظلم والفساد وانحلال المجتمع. وترى ما يؤول إليه أمر هذا المجتمع الناشئ عندما يتولى حماية الإسلام والقيم الإسلامية فيه ذات الطبقة التي كانت تحارب الإسلام من قبل وتعلن في وجهه العداء، أو امتداد هذه الطبقة.

٢. تحريف الفكر الإسلامي:

وذلك عن طريق وضع الحديث واستخدام (الحديث الموضوع) في تغيير المفاهيم والأفكار والتصورات والقيم الإسلامية واختلاق المناقب والفضائل للخط الذي تتبناه السلطة، واختلاق المثالب للخط الذي تعاديه السلطة... وهكذا امتد الوضع إلى كل القضايا والشؤون والفكر والأشخاص، وأصبحت ظاهرة الوضع ظاهرة خطرة تهدّد وجود الإسلام تهديداً حقيقياً. وقد لاحظنا كيف اتّسعت رقعة الوضع في أيام بني أمية، وكيف كان حكّام بني أمية ابتداءً من معاوية يعملون على تشجيع وضع الحديث على لسان

رسول الله ﷺ.

وقد طغى الوضع طغياناً واسعاً وكبيراً وامتد حتى إلى آفاق التوحيد والنبوّة ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نستقصي التصورات والأفكار المنحرفة التي دخلت في الإسلام على يد بني أمية عن طريق انتحال الحديث.

٣. إشاعة الإلحاد:

بدأ الإلحاد يشيع في الحواضر الإسلامية نتيجة ضعف وتفكّك التوجيه الديني وشيوع الفساد في المجتمع وقد كان في أعماق نفوس بني أمية ميل إلى هذه الظاهرة، ظاهرة الإلحاد تبرز على ألسنتهم تارة وتختفي تارة أخرى. وعدا ما سمعنا من كلمات معاوية وابنه يزيد يروي المؤرخون أن الوليد ومروان بن محمد كانا لا يخفيان ميلهما إلى الإلحاد وكانت هذه الظاهرة تبرز على أحاديثهما بين فترة[1] وأخرى وقد أحاطت بحكام بني أمية طائفة من أصحاب الميول الإلحادية نذكر منهم على سبيل المثال: مطيع بن إياس الشاعر الخليع المعروف الذي مدح عمر بن يزيد بن عبد الملك فأجازه بعشرة آلاف، وقدّمه لأخيه الوليد فانقطع إليه.

ويجد القارئ تفصيل أخباره في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.

وقد تفاقمت هذه الظاهرة فيما بعد ـ أيام بني العباس ـ حتى بلغت أيام المهدي العباسي ذروتها وشعرت الدولة العباسية بالخطر يهدد كيانها وعملت على مكافحتها، والقضاء عليها، وملاحقة أصحابها.

---

١ ـ الفهرست لابن النديم: ٤٧٢.

٤ـ النيل من قدسية رسول الله ﷺ:

النيل من رسول الله ﷺ والانتقاص من مكانة النبوّة حتى كان القائل يقول: إنّ خليفة أحدكم خير من رسوله! مشيراً إلى أنّ الخليفة أفضل من رسول الله ﷺ. وكان الحجاج بن يوسف يؤاخذ المسلمين على زيارة قبر رسول الله ﷺ ويطلب منهم أن يستبدلوا زيارة قصر الخليفة في الشام بزيارة المرقد النبوي الشريف والطواف حوله.

وقد عمل خلفاء بني أمية كثيراً في الانتقاص من مكانة رسول الله ﷺ والنيل من قدسية رسول الله ﷺ في نفوس المسلمين، وكان معاوية وابنه يزيد ينظران إلى رسول الله ﷺ من زاوية الخلاف التاريخي القديم بين هاشم وأمية، ولم يتمكّنا أن يتخلصا حتى آخر أيامهما من رواسب هذا الخلاف العائلي بين هذين الفخذين من قريش.

٥ـ محاربة خط أهل البيت عليهم السلام:

وهو الخط الأصيل في الأمة الذي جعله رسول الله ﷺ ردفاً للقرآن في حديث الثقلين المعروف الذي يرويه «مسلم» وجمع غفير من المحدّثين من الشيعة والسنّة.

وقد تفنّن بنو أمية في محاربة أهل البيت عليهم السلام والتضييق عليهم وعلى شيعتهم ومحاصرتهم اقتصادياً وتطويقهم بالعيون والمراقبة الدقيقة، وشل حركتهم في المجتمع وقتلهم وسجنهم ومطاردتهم والتنكيل بهم بكل الوسائل.

٦. ترويض الأمَة للسمع والطاعة للحاكم الظالم:

وقد استخدم بنو أمية وسائل كثيرة لتطويع الأمة وإخضاعها وسلب إرادتها، ليتمكن الجهاز الحاكم أن يحكم الناس بالشكل الذي يريد من غير أن يواجه عصياناً، أو خروجاً عن الطاعة. ونعتقد أن أعمال بني أمية في هذه النقطة كانت تصدر عن مخطط سياسي دقيق ولم تكن أعمالاً عفوية غير موجهة.

ومن هذه الوسائل التي استخدمها بنو أمية لترويض الأمة للسمع والطاعة والانقياد المطلق: إذلال الأمة، وقد قرأنا قريباً فصلاً عن وسائل بني أمية في إذلال المسلمين والختم على أيديهم كما يختمون على أيدي العبيد، وإرغامهم على الاعتراف بأنهم خول وعبيد للخليفة، كما حدث بالنسبة إلى أهل المدينة بعد مجزرة الحرَة.

ومن هذه الوسائل: الإرهاب والبطش وإشاعة الخوف والرعب فيما بين الأمة لشلّ حركتها وتعطيل دورها وفعاليتها. وقد كان الحكام الأمويون يحرصون على توظيف الإرهابيين من أمثال زياد بن أبيه والحجاج وبُسر بن أرطاة وغيرهم في أعمالهم وعلى الولايات للقضاء على الخارجين عن الطاعة والمعارضة السياسية، وبشكل خاص شيعة أهل البيت عليهم السلام. وقد ذكرنا جملة من الشواهد والنماذج على ذلك في هذه الدراسة.

ومن هذه الوسائل تبنّي المرجئة الجبريّة، وتكريس فكرة الجبر والحتمية وسلب حرية الإرادة عن الإنسان، وقد كان لهذا التوجيه الفكري أسوأ الأثر في المجتمع الإسلامي في هذه الفترة، واستفاد حكام بني أمية من هذا الاتجاه الفكري كثيراً في ترويض الناس وتطويقهم، وفي القضاء على

حركات التحرر والثورة التي كانت تبرز بين حين وآخر هنا وهناك، وعلى العموم كان بنو أمية يحرصون على تبيين وإشاعة هذا الاتجاه الفكري. ويجد القارئ نماذج كثيرة من دفاعهم وتبنيهم لهذا الرأي وأصحابه في الموسوعات التأريخية.

٧. القضاء على مراكز المقاومة:

القضاء على مراكز المقاومة والوعي في العالم الإسلامي والتضييق على هذه المراكز والبطش بها، وإفسادها والنيل من قدسيتها كالحرمين الشريفين، مكة والمدينة، وكذلك الكوفة، وقد استعرضنا بشيء من التفصيل أعمال بني أمية التخريبية في مكة والمدينة والكوفة، والكوارث التي حلت بهذه البلاد وأهلها على يد حكّام بني أمية... وكيف كان يزيد يسمّي المدينة المنورة بالخبيثة مقابل تسمية رسول الله ﷺ بالطيّبة.

وقد كان حكام بني أمية يستعملون أساليب كثيرة في القضاء على هذه المراكز التي كانت تضم أبناء المهاجرين والأنصار والتابعين وخيار المسلمين وشيعة أهل البيت عليهم السلام، كالإرهاب والتخريب، والمجازر الواسعة، والنيل من قدسيتها، وإشاعة الفساد فيها.. كل ذلك ليطمئنوا على دولتهم من ناحية المعارضة التي كانت تنطلق وتخرج من هذه البلاد.

٨. إثارة النعرة القومية بين المسلمين:

إثارة النعرة القومية فيما بين المسلمين والتميز فيما بين المسلمين العرب وغير العرب من الموالي، ومحاولة طرد المسلمين من غير العرب من الساحة السياسية بل من حواضر العالم الإسلامي أحياناً، كما حدث في عهد معاوية

والحجاج، وعدم الاعتراف بإسلامهم لئلا تسقط عنهم الجزية.

وقد قرأنا قريباً رأي معاوية للأحنف بن قيس وسمرة بن جندب عن المسلمين من غير العرب: (إني رأيت هذه الحمراء (يعني الموالي) قد كثرت وأراها قد طغت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً، لإقامة السوق وعمارة الطريق).

وكانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: كلب أو حمار أو مولى.

ولم يقتصر إفساد بني أمية بهذا الصدد في هذه المساحة فقط، فقد حاولوا إثارة الخلاف بين القبائل العربية، وبين أبناء الأنصار والمهاجرين وتقريب فئة من المسلمين وإقصاء فئة أخرى.. والحديث يطول في هذا المجال وقد ذكرنا نماذج من هذه الأعمال في هذا الفصل.

٩. الإفساد المالي:

استخدم بنو أمية بيت المال لتنفيذ أهدافهم السياسية بشكل واسع، فوسّعوا على جماعة إلى حد التبذير، وضيّقوا على جماعة إلى حد التقتير، ووسّعوا على أهل الشام لولائهم لبني أمية، وضيّقوا على أهل العراق لرأيهم في بني أمية، وأجازوا من يريدون كسب ولائه للمحور الحاكم، ومنعوا عطاء من يشكّون ولائه وموقفه ورأيه في بني أمية من المعارضة وقادتها. وكانوا يرون أنّ هذا المال مال الله وأنهم خلفاء الله في أرضه، يحق لهم أن يضعوا هذا المال أينما يريدون وأسرفوا إسرافاً قبيحاً في صرف المال في لهوهم ومجونهم وفي جوائز الشعراء الذين كانوا يتملّقون إلى الحكام من

بني أمية.

وقد أثّرت هذه السياسة المالية تأثيراً بليغاً في الوضع الاقتصادي العام للمنطقة الإسلامية، واضطرّ الخلفاء إلى الضغط على عمّالهم، والعمال إلى الضغط على المسلمين في جباية الأموال والضرائب، وهكذا تدهورت الحالة الاقتصادية إلى حالة سيئة والحالة السياسية إلى أسوأ.

١٠. إفساد المجتمع :

وذلك بإشاعة اللهو والطرب والغناء والشرب وما يتصل بذلك من ألوان المنكرات.

وكان أقبح ما في هذه السياسة أنّ هذه المنكرات كانت تنحدر من قصر الخلافة وقصور الحكّام والولاة إلى الشارع، ولم تكن تصعد من الشارع إلى قصور الخلفاء والحكام.

فكان الخلفاء يضربون أسوأ المثل للمسلمين في هذا المجال، وبلغ الأمر في شيوع اللهو والغناء والسكر والمجون حداً يتحرّج الإنسان من ذكر جملة واسعة من نماذجها. ودونكم الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الأموي سجلاً حافلاً بمجون الخلفاء وسكرهم ولهوهم وابتذالهم من بني أمية.

الفصل الحادي عشر

الإمام الحسن عليه السلام والخيار الصعب

الإمام الحسن عليه السلام والخيار الصعب

قدّمنا في ما مضى، صورة مصغّرة عن الفترة التي حكم فيها بنو أمية المجتمع الإسلامي، وما أدخلوا في هذه الفترة من الانحراف والفساد على المجتمع الإسلامي.

وكان أخطر ما في هذا الأمر: أنّ هذا الانحراف كان يجري في المجتمع الإسلامي ويصدر من موقع الشرعية، فقد استطاع معاوية، خلال هذه الفترة بأساليبه الخاصة أن يفرض نفوذه على المجتمع من خلال موقع الخلافة الإسلامية، كما استطاع أن يروّض الناس للطاعة والانقياد، وأن يدخل ما أدخل إلى هذا المجتمع من الفساد والتحريف من خلال هذا الموقع.

كما استطاع أن يرغم الكثيرين، ممن كانوا يعارضون سلطانه وحكمه إلى قبول الأمر الواقع في ولايته وولاية ابنه يزيد من بعده.

وفي مثل هذه الحالة عندما يكون النظام مسيطراً على الساحة سيطرة تامة، ويتمتع بالشرعية... فإن أي انحراف في هذا النظام لا يقتصر مفعوله على المجتمع الإسلامي والساحة السياسية والاجتماعية الإسلامية، وإنما يتجاوز إلى الإسلام فكراً وفقهاً وعقيدةً، وهذا هو ما حدث بالذات.

فقد ورث معاوية من الخلفاء السابقين عليه ميراث الشرعية في الحكم ونصب نفسه أميراً للمؤمنين، وأعدّ لهذه الشرعية ما تتطلبه من تأييد الصحابة

والتابعين ورجال المسلمين، وكان معاوية يعرف جيّداً أن سلطانه لم يكتسب شرعية خلافة رسول الله ﷺ في نظر المسلمين، فلا يستطيع أن يدوم ولا يقوى على مواجهة التحدّيات والصعوبات التي تواجهه من قبل المعارضين لسلطانه.

ولذلك فقد حرص حرصاً شديداً على توفير الشرعية بكل متطلباتها لسلطانه. وقد رأينا حرصه في سابق هذا الحديث على استقطاب وإغراء من يمكن إغراؤه من الصحابة والتابعين بالمال والسلطان لتأييد حكمه وسلطانه، ووجدنا أنه لم يكن يتحرّج من انتحال الحديث على رسول الله ﷺ إذا كان تثبيت دعائم حكمه وسلطانه يتوقف على انتحال الحديث.

وقد أفلح معاوية إلى درجة كبيرة في تطويع الرأي العام لقبول هذه الشرعية والرضوخ لها.

وعمل ثانياً لإسكات المعارضة وإرغامهم على السكوت والتخلي عن الخلاف والمعارضة بالإرهاب غالباً ـ وهو السلاح الذي كان يستعمله معاوية كثيراً مع هذه المجموعات ـ وبالإغراء أحياناً... وكان كل ذلك يجري وفق مخطط دقيق ينفّذه معاوية بدهائه المعروف من غير أن يثير لغطاً أو صخباً كثيراً في الشارع.

وبذلك عزل معاوية المعارضة عن الساحة، وقد كانت تكوّن مساحة بشرية واسعة يومذاك وأرغمهم على السكوت وإيثار العافية والابتعاد عن الأجواء السياسية... ولم نسمع خلال هذه الفترة التي أعقبت هدنة الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية صوتاً للمعارضة يرتفع في الساحة الإسلامية إلا ما شذّ وندر بين حين وآخر.

وكان علينا أن نذكر حقيقة أن المعارضة لم تنحل ولم تبدّل رأيها في معاوية وخلافة بني أمية، ولكنها خلدت إلى عزلة كاملة عن الساحة وما يجري فيها من بدع ومنكرات لم يألفها المسلمون حتى ذلك اليوم وآثرت السكوت والعافية.

وبذلك فقد خلت الساحة لمعاوية ولم يبق في المنطقة الإسلامية يومذاك سلطان لأحد إلا سلطان بني أمية المطلق، والذي كان يتمتع بشرعية الحكم والخلافة.

وهذه الحالة كانت تمكّن بني أمية من تسريب كل الانحرافات التي كانوا يحملونها والتي أشرنا إلى بعضها في هذا الحديث إلى الإسلام في الصميم وإلى صلب العقيدة والشريعة، وكانت تمكنهم بذلك من تحريف رسالة الله وتضييع مواريث الأنبياء والمرسلين.

الحسنان يلغيان الشرعية الأموية:

فلم يعد أمر هذا الخطر الذي دهم المسلمين يقتصر على الساحة الإسلامية فقط وإنما كان يهدد الإسلام أيضاً. ولو كان الأمر يمضي على هذه الطريقة إلى نهاية العهد الأموي، بما رأينا من الانحرافات القبيحة التي جرت على أيدي الخلفاء ـ ولا نستثني منهم أحداً غير عمر بن عبد العزيز ـ لانقلب الإسلام إلى شيء آخر غير ما أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ، ولانقلبت هذه المحنة إلى كارثة على الإسلام والمسلمين معاً.

وهذا ما أحسّ به ريحانتا رسول الله ﷺ وولداه الحسن الحسين عليهما السلام اللذين قدّر الله تعالى لهما أن يعايشا مرارة ظروف هذه الردّة بما استتبعت من انحراف وفساد وتخريب في صفوف المسلمين.

فقد لمس الحسنان عليهما السلام عن كثب ضخامة هذا الانحراف، وعَرفا ما يؤول إليه هذا الانحراف من انحرافات أخرى أعمق وأكثر في كل شؤون الحياة، وشاهدا عودة الجاهلية إلى الحياة الإسلامية بأبعادها المختلفة، وعرف سبطا رسول الله أن هذه الردّة الجاهلية سوف تنعكس على الإسلام وتشوّه معالمه وأصوله ورؤاه وتصوراته وطريقته وأخلاقه.

لقد عايش الحسن والحسين عليهما السلام هذه الفترة المظلمة والصعبة من تاريخ الإسلام بعد شهادة أبيهما الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بكل سلبياتها وتبعاتها السيئة على الإسلام والمسلمين، وكانا يشعران بمرارة بعمق المأساة، ويشعران بعمق الخطر الذي يهدّد الإسلام وبضرورة العمل لإنقاذ الرسالة من هذا الخطر، وإيقاظ ضمير الأمة، وإيجاد حركة في وسط الأمة لوعي الخطر ومواجهته.

وقد شاء الله تعالى أن يتشاطر ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن والحسين عليهما السلام هذا العمل الجبّار في مرحلتين ودورين مختلفين، ينهض الإمام الحسن عليه السلام بالدور الأول وينهض الإمام الحسين عليه السلام بالدور الثاني، فيتمخّض عن هذا وذاك إبطال شرعية الخلافة الأموية، وكسر الإطار الشرعي الذي كان يمكّن حكام بني أمية من إدخال التحريفات التي كانوا يمارسونها من داخل قصورهم وعلى أيدي عمّالهم وقضاتهم إلى الإسلام.

لقد عايش الحسن والحسين عليهما السلام محنة هذه الردّة الجاهلية في ظرفين مختلفين تماماً من الناحية السياسية والعسكرية.

فقد تولّى الإمام الحسن عليه السلام الإمامة ومسؤولية مواجهة الفتنة الأموية بعد شهادة أبيه عليه السلام في ظروف مواجهة عسكرية مع معاوية، حيث كان الإمام

الحسن عليه السلام يقود جيش العراق لمواجهة جيش الشام، بينما لم يكن الحسين عليه السلام في مثل هذا الموقع العسكري والسياسي، وإنما كان خروج الإمام الحسين على يزيد يعتبر إقداماً على تضحية مؤثّرة ومأساوية لتحريك ضمير الأمة وإيجاد هزّة قوية في وجدانها.

وفرق كبير بين ظرف الحسن عليه السلام ومتطلبات هذا الظرف، وظرف الإمام الحسين عليه السلام ومتطلباته في مواجهة الفتنة.

لم يتمكن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في حياته أن يجتث الفتنة من جذورها، ولقى مصرعه على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي والفتنة قائمة، وتولى من بعده ابنه الحسن الزكي عليه السلام إمامة المسلمين في ظروف صعبة وحرجة.

وكان تقدير الإمام للظروف السياسية والعسكرية التي تولّى فيها إمامة المسلمين من جانبه وفي مواجهة بني أمية هو خسارة المعركة ووقوع الهزيمة في جيش العراق الذي كان يقوده الإمام وخروج معاوية منتصراً من هذه الحرب، نجد أن تقدير الإمام لهذه النتيجة كان تقديراً موضوعياً ودقيقاً. وكان الإمام عليه السلام يقدّر أيضاً أن معاوية سوف يستثمر فرصة انتصاره على جيش العراق في استئصال كل من يعارض سلطانه وحكمه من شيعة الإمام، ويلاحقهم ويقوم بتصفية واسعة لهم حتى تَخْلُص له الساحة من كل خط سياسي وفكري معارض.

ولذلك كان الإمام الحسن عليه السلام مهتماً بتفويت هذه الفرصة على معاوية حتى يقلّل مساحة الخسارة قدر الإمكان، ولا يعطي لابن أبي سفيان الفرصة التي يطلبها في تصفية شيعة الإمام لتخلص له الساحة.

كان الإمام يقدّر أن المرحلة القادمة لبني أمية على كل حال، ولا يمكن حسب التقادير السياسية والعسكرية المفهومة للحيلولة دون هذه النتيجة.

فلا بد إذن أن لا يعطي الإمام عليه السلام لمعاوية فرصة الإجهاز الكامل على شيعة الإمام، الذين كانوا يمثلون الخط الإسلامي السليم يومذاك، والذين كانوا يحملون لواء المعارضة لسياسة بني أمية وسلطانهم، لتبقى هذه العصابة المؤمنة والسائرة على خط أهل البيت محتفظةً بخطّ الإسلام الصحيح في خضم الفتنة التي أوجدها بنو أمية في المجتمع الإسلامي يومذاك.

تلك كانت غاية الإمام الحسن عليه السلام، بعد تقدير دقيق وموضوعي لنتيجة الحرب مع معاوية، ولذلك فقد آثر الإمام عليه السلام أن يهادن معاوية ويوقف القتال، للإبقاء على شيعته.

ونحن لا نستطيع أن نفهم فهماً دقيقاً قرار الإمام الحسن عليه السلام، والدور الصعب الذي نهض به الإمام عليه السلام يومذاك، رغم كل مرارته على نفسه وعلى شيعته إلا من خلال هذا التحليل.

ولكي نستطيع أن ننتهي إلى نتائج دقيقة في هذا البحث لابدّ لنا:

أولاً: أن نتأمّل في الظروف السياسية والعسكرية الصعبة التي رافقت إمامة الإمام الحسن عليه السلام بعد أبيه أمير المؤمنين عليه السلام.

وثانياً: نتأمل فيما كان يمكن أن يختار الإمام عليه السلام من الخيارات الصعبة التي كان يواجهها في تلك الظروف السياسية والعسكرية، وما كانت تمليه مصلحة الإسلام التي هي فوق كل اعتبار ـ عند الإمام عليه السلام ـ يومذاك.

التحليل السياسي والعسكري لقرار الإمام

وفيما يلي نقدّم تحليلاً سريعاً للظروف التي واجهها الإمام عليه السلام بعد استشهاد أبيه أمير المؤمنين عليه السلام واضطراره لإيقاف القتال، ضمن مجموعة من النقاط:

١. هبوط المعنويات في جيش الإمام الحسن عليه السلام:

تولّى الإمام الحسن عليه السلام الإمامة بعد أبيه واتضح للإمام منذ أول يوم بايعه الناس أنّ جند العراق لم يعد يملكون المعنويات التي يتطلبها صراعه الطويل مع حاكم الشام معاوية بن أبي سفيان.

واتضح له أنّ جند العراق يؤثرون العافية والراحة على متابعة الحرب.

فقد أتعبتهم حروب الجمل وصفّين والنهروان وصد الغارات التي كان يشنها ابن أبي سفيان على أطراف العراق واليمن والحجاز أيّما تعب، ولم يعد هذا الجيش يرغب في القتال، وأصبح يعاني من هبوط شديد في المعنويات.

وعندما يفقد الجيش معنوياته فلا يستطيع القائد مهما أوتي من القوة والحكمة أن يقاتل بهذا الجيش، وكان هذا الجيش مصدر معاناة كبيرة للإمام الحسن عليه السلام، كما كان من قبل مصدر معاناة لأبيه أمير المؤمنين عليه السلام، ولنقرأ نماذج من حالة التخاذل والهبوط المعنوي في جيش العراق:

أ ـ التقى الإمام الحسن عليه السلام أول ما التقى تخاذل جنده ورغبتهم عن القتال

يوم البيعة في أول يوم من ولايته بعد أبيه.

يقول ابن الأثير: كان الحسن يشترط عليهم (في البيعة): **إنكم مطيعون تُسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت، فارتابوا بذلك. وقالوا: ما هذا لكم بصاحب، وما يريد هذا إلا القتال**[١].

ب ـ لما عرف الإمام عليه السلام بخروج معاوية إلى العراق دعا الناس إلى حربه في اجتماع عام وخطب في أمر الجهاد والخروج للقتال والدفاع، وهو كما يقول أبو الفرج: يخاف من خذلان الناس من حوله (فسكت الناس فما تكلم أحد ولا بحرف)[٢].

فقام عدي بن حاتم الطائي رحمه الله، وأنّب الناس على تخاذلهم عن إمامهم وأعلن عن توجهه إلى القتال، ثم تكلّم بعده قيس بن سعد بن عبادة ومعقل بن قيس وزياد بن صعصعة، فاستجاب الناس لدعوة الإمام بعد تردّد وتخوّف وصمت.

جـ ـ لما تأكد الإمام من التخاذل في جيشه وقادة جيشه خطب في جمعهم، وقال من كلام يرويه ابن الأثير: (**ألا وإنّ معاوية دعانا لأمر ليس فيه عزّ ولا نَصفه، فإن أردتم الموت رددنا عليه وحاكمناه إلى الله عز وجل بِظُبى السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا.**

فناداه الناس من كل جانب: البقيّة البقيّة)[٣].

---

١ ـ الكامل لابن الأثير ٣: ٤٠٢.

٢ ـ مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني: ٣٩ والبحار ٤٤: ٥٠ وشرح النهج لابن أبي الحديد ١٦: ٣٨، وأنساب الأشراف للبلاذري في قسم الإمام الحسن: ٣٢ تحقيق الشيخ المحمودي.

٣ ـ الكامل لابن الأثير ٣: ٤٠٦، وتذكرة الخواص: ١٨١ ط. مؤسسة أهل البيت وباختلاف يسير، بحار الأنوار ٤٤: ٢١ ـ ٢٢ وابن الأثير الجزري في أسد الغابة ٢: ١٣ سنة ١٤٠١ هـ.

وروى المجلسي في البحار عن الخرائج:

إن الحسن عليه السلام أخذ طريق النخيلة فعسكر عشرة أيام، فلم يحضره إلا أربعة آلاف فانصرف إلى الكوفة فصعد المنبر[١].

والأخبار من هذا القبيل كثيرة تؤكد تثاقل أهل العراق عن نصرة الإمام والخروج على عدوه، وتخاذلهم عنه، وتردّدهم في الاستجابة له، ورغبتهم في العيش بعيداً عن الحرب ومشاكل الحرب.

وهذه النماذج على نحو الإجمال تعطينا صورة عامة عن معنويات الجيش الذي كان يقاتل الإمام به عدوّه وقدراته وكفاءاته.

٢. عناصر الجيش:

من المفيد بعد أن عرفنا شيئاً عن معنويات جيش العراق أن نعرف شيئاً عن العناصر التي كانت تكوّن هذا الجيش.

وأمامنا نصّان نعتقد أنهما يلقيان الضوء بقدرٍ كافٍ على طبيعة التركيب البشري والمذهبي لجيش العراق الذي خرج به الإمام الحسن لمحاربة معاوية.

أحد هذين النصين للإمام الحسن عليه السلام نفسه وهو دقيق في تشخيص عناصر جيشه، يرويه ابن طاوس في الملاحم والفتن[٢]، **(وكنتم في مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، وأنتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون عليه وقتيل بالنهروان تطلبون منا**

---

١ ـ بحار الأنوار ٤٤: ٤٤.

٢ ـ الملاحم والفتن لابن طاوس: ١٤٢ عن الخرائج. (لقد رسمنا طاوس هكذا وتكفي واو واحدة كما في داود من باب التخفيف).

ثأره، فأما الباقي فخاذل وأما الباكي فثائر).

وفي هذا التشخيص يقسم الإمام جيشه إلى ثلاث فئات: فئة من خاصته وشيعته وهم الباكون الثائرون لشهداء صفين، والصنف الثاني هم الخوارج الذين يطلبون من الإمام ثار قتلاهم بالنهروان، وهؤلاء وإن كانوا ناقمين على معاوية إلا أنهم ينقمون بنفس المقياس على الإمام الحسن عليه السلام، وأما الطائفة الثالثة فهم خليط من أصحاب الأهواء وضعاف النفوس والمرتزقة الذين تذهب بهم رياح الدنيا كل مذهب، وهم الذين يعنيهم الإمام بقوله (فأما الباقي فخاذل).

والنص الثاني للشيخ المفيد في الإرشاد بنفس التشخيص.

يقول الشيخ: (وخفّ معه ـ أي الإمام ـ أخلاط من الناس بعضهم شيعة له ولأبيه، وبعضهم محكّمة ـ أي خوارج ـ يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع بالغنائم، وبعضهم شكّاك، وبعضهم أصحاب عصبية، اتّبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون إلى دين)[1].

والخوارج وإن كانوا يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة كما يقول شيخنا المفيد رحمه الله ولكنّهم ينقمون على الإمام، كما ينقمون على معاوية، ويستغلون كل فرصة ممكنة للنيل من الإمام وتفريق الناس من حوله، وهم الذين سحبوا البساط من تحت أقدام الإمام عليه السلام وطعنوه في ساباط المدائن وحرّضوا الناس عليه، وهم كانوا مصدر أكثر الشغب في جيش الإمام.

---

١ ـ الإرشاد للمفيد: ١٦٩. ونقل هذا النص الأربلي في كشف الغمة: ١٦٥. دار الكتاب الإسلامي بيروت: ٤٠١، وقريباً من هذا النص المجلسي في البحار ٤٤: ٢١ عن أعلام الدين للديلمي وابن الأثير الجزري في (أسد الغابة) ٢: ١٣.

فلم يكن الخوارج يؤمنون بولاية الإمام وقيادته، ولم يخفوا حقدهم على الإمام، ولم يكن حقدهم على الإمام بأقل من حقدهم على معاوية. وكانوا لا يترددون في اغتيال الإمام، وطعنه، والقضاء عليه كلما سنحت لهم الفرصة بعامل الحقد والانتقام، وكانوا يفكّرون أنهم بذلك يقضون على أحد عدوّين لهم، وتسنح الفرصة لهم بعد ذلك للقضاء على العدو الآخر.

وكانت معاناة الإمام من هذه الفئة مرّة قاسية، وتخريب هذه الفئة في جيش الإمام واسعاً كبيراً، ومحاولة اغتيال الإمام في المدائن تمّت على يد هذه الفئة بالذات.

وإلى هؤلاء يشير الإمام عليه السلام بقوله: (وقتيل بالنهروان يطلبون منا ثأره) وقد قُدر للإمام الحسن عليه السلام أن يقاتل معاوية بهذه الفئة، فماذا ترى يستطيع أن يصنع في حرب معاوية إذا كان جزء من جيشه وجنده من هذه الفئة الناقمة والحاقدة على الإمام وعلى أبيه من قبل بالذات؟

والطائفة الأخرى هم أصحاب المطامع والمرتزقة وهواة الدنيا، الذين لا يهمهم شيء من أمر الإمام أو أمر معاوية، وإنما تهمهم دنياهم فقط. وعندما وجدوا أن الدنيا مقبلة على معاوية ومُعرضة عن الإمام تفرقوا عن الإمام وانضمّوا إلى معاوية، وأعلنوا عن استعدادهم لتسليم الإمام إلى معاوية، إمعاناً في التزلّف إلى معاوية...

ويبدو أن عدّة هذه الطائفة كانت أكثر من الطائفتين الأخريين وإنهم كانوا يكوّنون المساحة الكبرى من جيش الإمام، ويشير إلى هذا المعنى النص الذي يرويه المجلسي في البحار عن الخرائج (وكتب أكثر أهل

الكوفة إلى معاوية: فإنّا معك وإن شئت أخذنا الحسن وبعثناه إليك)[١].

وإلى هذه الطائفة الواسعة المنتشرة في جيش الإمام من هواة الدنيا وأصحاب المطامع والذين تخلّوا عن الإمام في أحرج الساعات يشير الإمام في حديثه لزيد بن وهب الجهني، ويقول:

(والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً)[٢].

لقد كان جيش الإمام يتألف من هذا الخليط العجيب من الحاقدين وأصحاب المطامع والأهواء والانتهازيين، وكان على الإمام أن يقاتل بهذا الجيش معاوية في جيشه الغفير الكبير المنسجم الذي ينقاد لابن أبي سفيان على باطله وزيفه.

وقد كان في ضمن جيش الإمام طائفة من شيعته والموالين له، من المخلصين، وأصحاب الصلاح والتقوى، ولكن ترى ماذا يستطيعون أن يصنعوا في وسط هذا الخليط من الخوارج الناقمين والمرتزقة، أصحاب المطامع من هواة الدنيا الذين يحبون أن يسلكوا الطريق إلى الدنيا من أقرب المسالك وأيسرها.

٣. الفارق الكمي بين جيش الإمام وجيش معاوية:

يقدّر ابن أعثم في الفتوح[٣] جيش معاوية بستين ألفاً خرجوا مع معاوية إلى (مسكن على الفرات) وهو في نظري تقدير متوسط ومعتدل لجيش الشام، وتختلف الروايات في تقدير جيش الإمام الحسن عليه السلام، وفي جو التثاقل

١ ـ بحار الأنوار ٤٤: ٤٥.

٢ ـ بحار الأنوار ٤٤: ٢٠ عن الاحتجاج الطبرسي: ١٤٨ ـ ١٤٩.

٣ ـ الفتوح لابن الأعثم ٤: ١٥٣ ط. حيدر آباد دائرة المعارف العثمانية.

والتردّد الذي قرأناه لا نكاد نطمئن إلى عدد غير المقدمة التي بعثها الإمام إلى (مسكن) لمواجهة معاوية بقيادة عبيد الله بن عباس وأربعة آلاف بقوا معه بدير عبد الرحمن. وهذا هو أسلم الاحتمالات الذي يختاره الشيخ راضي آل ياسين رحمه الله في كتابه القيّم (صلح الحسن)[1] وعليه فإن جيش الإمام في أوسط التقادير لا يزيد عن ثلث جيش معاوية، إن كان لا يقل عن الثلث.

وإذا أضفنا إلى هذه الملاحظة الكميّة هبوط المعنويات بالشكل الذي تقدم، والتركيبة الغريبة لجيش الإمام من الناحية الكيفية، استطعنا أن نقدّر درجة كفاءة جيش الإمام من الناحية العسكرية في مقابل جيش الشام، ودرجة احتمال فوز جيش الإمام في هذه المعركة.

٤. التخاذل في قادة ووجوه الجيش:

أرسل الإمام عبيد الله بن عباس ابن عمه على مقدمة جيشه في اثني عشر ألفاً لمواجهة معاوية، وأوصاه ألاّ يبدأ معاوية بالقتال فإذا بدأ معاوية القتال قاتله، وأمره أن يستشير في أعماله قيس بن سعد وسعيد بن قيس، فسار عبيد الله بالجيش على الفرات، حتى بلغ مسكن (موضع على نهر الدجيل) حيث التقى بجيش الشام.

وانطلق الإمام عليه السلام بما تبقى من الجيش، وفي أغلب الظن كان لا يزيد على أربعة آلاف إلى (ساباط المدائن)[2].

فأرسل معاوية إلى عبيد الله بن عباس يغريه بالالتحاق به بألف ألف

١ ـ صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين: ١٢٣.

٢ ـ راجع شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦: ٤٠.

درهم، يعجّل لـه بالنصـف ويؤخّـر لـه النصـف الآخـر إلى حيـن دخـول الكوفـة، فانسلّ عبيد الله ليلاً إلى معسكر معاويـة ووفى لـه معاوية بالوعد فأصبح الناس ينتظرون أن يخرج إليهم عبيد الله ليصلي بهم فلم يخرج، وطلبوه فلم يجدوه فصلّى بهم قيس، وأعلمهم بخبر عبيد الله، وتبرأ منه وشتمه[١].

وقد كان لانتشار خبر التحاق عبيد الله بمعسكر معاوية أسوأ الأثر في جيش الإمام، فقد وسع من دائرة التخاذل داخل الجيش وأسقط معنويات المعسكر إلى حد كبير، وشاع في الجيش جو من سوء الظن، وكثرت الإشاعات الكاذبة من جانب عيون معاوية ورسله.

فخرج بسر بن أرطأة، فصاح إلى أهل العراق: وَيْحَكم هذا أميركم عندنا فقد بايع وإمامكم الحسن قد صالح (ولم يكن قد صالح معاوية قطعاً) فعلام تقتلون أنفسكم؟[٢]

وكانت نتيجة هذه الخيانة الكبيرة من عبيد الله، وما استتبعها من انتشار الإشاعات الكاذبة، والتخاذل وسوء الظن، وهبوط المعنويات أن انسلّ ثمانية آلاف من مجموع الاثني عشر ألفاً إلى معسكر معاوية وتصدّعت بذلك مقدمة الإمام[٣] ولم يعد قيس بن سعد الأنصاري رحمه الله يستطيع أن يعمل شيئاً في إعادة الجيش إلى تماسكه بعد هذا الصدع الكبير الذي أحدثه عبيد الله في مقدمة جيش الإمام.

---

١ ـ راجع شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦: ٤٢.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ راجع تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٠٣ ط. النجف ١٣٩٤ هـ.

ولـم يعـد أثـر هـذه الخـيانة ينحصـر فقط في دائرة مقدمة المعسكر وفي حـدود الـتخاذل والهـروب مـن صف الإمام إلى صف معاوية، وإنما تجاوز ذلـك إلـى القطـع العسـكرية التـي كانـت تـرافق الإمام نفسه، واتّسعت دائرة التسـلل مـن صـف الإمـام إلـى جانـب معاويـة، من قبل قادة الجيش ووجوه وزعماء قبائل العراق.

يقول البلاذري في أنساب الأشراف:

(وجعـل وجـوه أهـل العـراق يـأتون معاويـة فيبايعونه، فكان أول من أتاه خـالد بـن معمّر فقال: أبايعنّك عن ربيعة كلها ففعل وبايع عفاق بن شرحبيل بن أبي رهم التيمي، فلذلك يقول الشاعر:

معـاوي أكـرم خـالد بـن معمّـر فـإنّك لـولا خـالد لـم تؤمّـر

وبلغ ذلـك الحسـن فقـال: (يـا أهل العراق أنتم الذين أكرهتم أبي على القتال والحكومة ثم اختلفتم عليه. وقد أتاني أن أهل الشرق منكم قد أتوا معاوية فبايعوه فحسبي منكم لا تغروني في ديني ونفسي)[١].

والـنص الـذي يـرويه ابن أعثم أبلغ في الانهيار الذي أصاب جيش الإمام عقيب التحاق عبيد الله بمعاوية، يقول ابن أعثم في الفتوح:

(وجعـل أهـل العـراق يـتوجّهون إلـى معاويـة قبيلة بعد قبيلة، حتى خفّ عسـكره. فلمـا رأى ذلـك كتـب إلـى الحسن بن علي يخبره بما هو فيه، فلمّا قـرأ الحسـن الكـتاب أرسـل إلـى وجـوه أصـحابه فدعـاهم، ثـم قال: يا أهل العـراق مـا أصنع بجماعتكم معي، وهذا كتاب قيس بن سعد يخبرني بأن

١ ـ أنساب الأشراف للبلاذري حياة الإمام الحسن ٣: ٣٩ دار التعارف للمطبوعات بيروت تحقيق المحمودي.

أهل الشرق قد صاروا إلى معاوية، أما والله ما هذا بمنكر منكم لأنكم أنتم الذيـن أكرهتم أبي يوم صفّين على الحكمين، فلما أمضى الحكومة وقبل منكم اختلفتم)[1].

ويقول الشيخ المفيد في كلام طويل له في الإرشاد: وكتب جماعة من رؤساء القبائل إلى معاوية بالسمع والطاعة له في السرّ واستحثّوه على المسير نحوهم، وضمنوا له تسليم الحسن عليه السلام[2].

٥ـ حرب الإشاعات في جيش الإمام:

ووجد معاوية في هذا الجو المتصدع خير فرصة للقيام بعملية واسعة في نشر الإشاعات وترويجها، أو ما يسمى اليوم (بحرب الإشاعات). وما كانت هذه الإشاعات لتُعطي مفعولها بهذه القوة لولا هذا الصدع الذي أصاب جيش الإمام على يد قادته، ووجوهه، ورموزه، وما استتبع ذلك من سوء الظن، وفقدان الثقة والتشاؤم، وميل أصحاب الدنيا والمطامع إلى معاوية، وكثرة اللَغط داخل الجيش.

وقد استثمر معاوية ـ وهو المعروف بدهائه في السياسة ـ هذه الفرصة استثماراً جيداً، وبعث عيوناً ورسلاً لبث الإشاعات واللَغط في صفوف جيش الإمام عليه السلام.

ونؤكد مرة أخرى أن هذه الفرصة وحدها هي التي مكّنت ابن أبي سفيان من استعمال هذا السلاح استعمالاً على درجة كبيرة من النجاح، ولولا هذه الفرصة لم يكن معاوية قادراً على القيام بهذه الحرب النفسية في

---

١ ـ الفتوح لابن الأعثم ٤: ١٥٧.

٢ ـ الإرشاد للمفيد: ١٧٠ والبحار للمجلسي ٤٤: ٤٧.

صفوف جيش الإمام بهذه الدرجة من النجاح.

ومن هذه الإشاعات ما يرويه ابن أبي الحديد أنّ بسر بن أرطأة كان يصيح: (إنّ إمامكم الحسن قد صالح فعلام تقتلون أنفسكم)[1].

ويقول اليعقوبي (٢٩٣هـ): (كان معاوية يدسّ إلى عسكر الحسن من يتحدث أن قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار معه، ووجّه إلى عسكر قيس من يتحدث أن الحسن قد صالح وأجابه)[2].

وبهذه الصورة المزدوجة كان معاوية يبث الإشاعات في الجيش الذي كان مع الإمام في المدائن: أن قيساً (قائد المقدمة بعد خيانة عبيد الله) قد انحاز إلى معاوية ثم يقول اليعقوبي:

(ووجّه معاوية إلى الحسن المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر بن كريز وعبد الرحمن بن أمّ الحكم، وأتوه وهو بالمدائن نازل في مضاربه، ثم خرجوا من عنده وهم يقولون، ويُسمعون الناس: إن الله قد حقن بابن رسول الله الدماء، وسكّن به الفتنة وأجاب إلى الصلح، فاضطرب العسكر ولم يشكك الناس في صدقهم)[3].

وهذه الحالة تستوقف الإنسان طويلاً فلا يمكن أن تحدث مثل هذه الحالة في جيش نظامي... إلا أن يكون هذا الجيش قد بلغ حداً مخيفاً من الانهيار الداخلي.

هذا الجو وهذه الحالة، هي التي استطاع أن يستثمرها ابن أبي سفيان في

١ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦: ٤٢ ومقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفاني ص٤٢ ط. النجف.

٢ ـ تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٠٣.

٣ ـ المصدر السابق.

توسيع رقعة الحرب النفسية مع الإمام عليه السلام واستثمارها في تسجيل الفوز في هذه الحرب.

٦. التمرّد:

وانتهت هذه المقدمات التي استعرضناها في هذه الدراسة إلى نتيجة حتمية، لم تكن لتتخلّف عنها، وهي التي كان يسعى إليها معاوية من وراء هذه السلسلة من المؤامرات، والتي مهّدت لها الظروف والأقدار السيئة التي أحاطت الإمام الحسن عليه السلام.

فبدأت عناصر في الجيش بالتمرّد على الإمام وأخذت رقعة التمرد تتّسع، ويفقد الجيش نظامه وتماسكه، وتفقد القيادة سيطرتها على الجيش، وهذه الحالة في العرف العسكري هي نهاية القوة العسكرية الحتمية.

ونحن لا نشك أن الخوارج هم الذين بادروا إلى التمرّد، وهم الذين كانوا يتحيّنون هذه الفرصة منذ وقت سابق بفارغ الصبر، ويعملون المستحيل للتمهيد لها وإعلان التمرّد على الإمام، وانحلال الجيش، واغتيال الإمام، والثأر، والانتقام منه، وأخيراً التخلّص من عليّ وابنه الحسن ليفرغوا لمعاوية بعد ذلك إنْ ساعدهم الحظ.

وقد تبع الخوارج ـ في التمرّد على الإمام ـ رعاع الناس وعامتهم والذين يجرون مع كل ريح.

والذي يدعونا إلى الاطمئنان أنّ الخوارج هم الذين كانوا يخطّطون من داخل جيش الإمام للتمرد على الإمام، ويمهّدون له، ويعدّون الناس لذلك إعداداً، هي الطريقة التي تمّ بها التمرد، فهي طريقة خارجية معروفة.

فيصيح أحدهم (كفر والله الرجل)[1] ويصيح الآخر (الله أكبر يا حسن أشركت كما أشرك أبوك من قبل)[2].

وبعد نجاح معاوية في بثّ الإشاعة بقبول الإمام للصلح ـ كما يقول اليعقوبي[3] ـ أو بعد خطاب الإمام ـ كما يقول أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ) ـ تنادى الناس (وهم في أغلب الظن الخوارج) بالتمرّد على الإمام (وشدّوا ـ والكلام لأبي الفرج ـ على فسطاطه فانتهبوه، حتى أخذوا مصلاّه من تحته ثم شدّ عليه عبد الرحمن بن عبدالله بن جعال الأزدي فنزع مطرفه عن عاتقه... فقال عليه السلام: أُدعو لي ربيعة وهمدان، فدعوا له فأطافوا به ودفعوا الناس عنه، ومعهم شوب من غيرهم (أي خليط من غير ربيعة وهمدان) فقام إليه رجل من بني أسد يقال له الجراح ابن سنان فلما مرّ في مظلم ساباط قام إليه فأخذ بلجام بغلته وبيده معول فقال: (الله أكبر يا حسن أشركت كما أشرك أبوك من قبل) ثم طعنه فوقعت الطعنة في فخذه فشقته، حتى بلغت أربيته، فسقط الحسن إلى الأرض، بعد أن ضرب بالسيف الذي طعنه، بسيف كان بيده، فوثب عبد الله بن الخطل، فنزع المعول من يد جراح بن سنان فخضخضه به وأكبّ ظبيان بن عمارة عليه... حتى قتلوه)[4].

هذه صورة واحدة من حالة التمرد التي انتهى إليها أمر جيش الإمام. ونحن لا نشك أن الخوارج هم الذين ألهبوا نار التمرّد وعملوا على توسيع

---

١ ـ مقاتل الطالبيين: ٤١.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٠٣.

٤ ـ مقاتل الطالبيين: ٤١. وراجع المسعودي ٢: ٤٣١ واليعقوبي ٢: ٢٠٣ والفتوح ٤: ١٥٥. والبلاذري في الأنساب ٣: ٣٥ وغير ذلك من المصادر.

دائرته بكل ما أوتوا من حول وقوة.

ونحن لا نشك أن الخوارج هم الذين ألهبوا نار التمرّد وعملوا على توسيع دائرته بكل ما أوتوا من حول وقوة.

ولا نشك أن طبيعة جيش الإمام، والعناصر المكوّنة له، والمعنويات الهابطة لهذا الجيش، والوقت الذي خرج فيه هذا الجيش بالمقابلة مع جيوش الشام والخيانة القبيحة التي ارتكبها عبيد الله بن عباس كانت تؤدي لا محالة إلى هذه النتيجة.

وقد يساورنا بعض الشك في أن ينتهي جيش الإمام إلى هذه النتيجة المأساوية لولا خيانة عبيد الله بن عباس. أما بعد أن التحق عبيد الله بن عباس بجيش معاوية فقد أصبح واضحاً لكل من يُسلّم بظروف المعركة، أن هذه المعركة سوف تنتهي إلى مثل هذه النتيجة.

وهكذا كانت نهاية جيش الإمام في هذه الحرب نهاية حتمية لا يمكن التخلص منها بحال من الأحوال.

وأيّما يكون القائد، ومهما تكن كفاءاته القيادية والعسكرية، فلا شك أن نهاية هذه الحرب سوف لا تكون إلا لصالح جيش ابن أبي سفيان، ولا يمكن تغيير نتائج المعركة حسب التقديرات العسكرية المألوفة إلا بمعجزة خارقة للطبيعة... أما على المقاييس العسكرية المألوفة فمهما يشك الإنسان في شيء فلا يشك في أن هذه المعركة سوف تنتهي إلى فوز ساحق لمعاوية وللجيش الأموي.

والتشخيص الذي نقرأه لشيخنا المفيد في الإرشاد لتركيبة الجيش، وتخاذل وجوه الجيش وقياداته والنتائج المترتبة على ذلك تشخيص دقيق

وواقعي. يقول الشيخ رحمه الله:

(وازدادت بصيرة الإمام الحسن عليه السلام بخذلان القوم له وفساد نيّات المحكّمة (الخوارج)، بما أظهروه من السبّ والتكفير له، ونهب أمواله، ولم يبق معه من يأمن غوائله إلا خاصة من شيعته وهم جماعة لا تقوم لأجناد الشام)[1].

كل العوامل التي أشرنا إليها في ضمن النقاط السابقة في ظروف الإمام السياسية والعسكرية، والتي أدت إلى ظهور التمرّد والانحلال في جيش الإمام كانت خارجة عن قدرة الإمام وقبضته كقائد سياسي وعسكري... وكانت الأحداث والأقدار التي تحيط بالإمام تسير سيراً قهرياً لصالح معاوية، ولم تكن ظروف الإمام تسمح بتغيير شيء من هذا الواقع السيئ الذي كان يحيط بجيشه.

---

١ ـ الإرشاد للمفيد: ١٧٠. وينقل النص المجلسي في البحار ٤٤: ٤٨.

الخيارات الثلاثة التي واجهها الإمام الحسن عليه السلام

وتجاه هذه الحتمية التي واجهها الإمام عليه السلام وجهاً لوجه... وجد نفسه أمام ثلاثة خيارات، لا رابع لها وكان عليه أن يختار واحداً منها:

١ـ الصلح مع معاوية قبل القتال.

٢ـ الصلح مع معاوية بعد القتال.

٣ـ الاستمرار في القتال ورفض الصلح حتى الشهادة.

والخيار الأول هو الذي اختاره الإمام الحسن عليه السلام والخيار الثالث هو الذي اختاره الإمام الحسين عليه السلام من بعده.

وأما الخيار الثاني فليس من سبيل لاختياره.

فإذا كان لابدّ للإمام أن يقبل بالصلح ويتخلّى عن حرب معاوية... فليصنع ذلك في البدء، وقبل إراقة الدماء، وليفرض هو شروط الصلح على معاوية، دون أن يجبره معاوية على ذلك إجباراً وليستجيب لطلب معاوية بعزّة ـ ما أمكن ـ قبل أن تدفعه أمواج الفتنة العارمة المشتعلة في جيشه إلى طرف معاوية.

وليُملي على معاوية شروطه للصلح من موقع المقاتل، وإن كان معاوية سوف يغدر ويتحلل عن كل التزاماته وتعهداته والإمام يعرف ذلك جيداً... ولكنّه مع ذلك فإن الإمام إذا كان مضطراً للصلح فمن الخير له ولجنده

وللمسلمين أن يقبل بالصلح قبل القتال، وقبل أن ينحلّ جيشه بالكامل، وتتّسع دائرة التمرد في جيشه فيسلّمه الرعاع من جنده إلى معاوية تسليماً، كما يقول الإمام الحسن عليه السلام أو كما كاتب رؤساء الجيش بذلك في السر، أو يضطر هو أن يصالح معاوية من موقع الهزيمة فيُملي معاوية على الإمام كلما يريد ويتعامل مع الإمام من موقع المنتصر في المعركة.. ثم بعد أن يراق دم كثير من الطرفين من دون أن يحقق هذا الدم أي نتيجة إيجابية في ساحة المعركة لصالح الإسلام والإمام.

والإمام عليه السلام يشخّص هذه الحقيقة ويذكرها بألم وشجى عميقين لزيد بن وهب الجهني لمّا طعن عليه السلام بالمدائن، يقول زيد: أتيته بالمدائن وهو متوجّع، فقلت له: يا ابن رسول الله إن الناس متحيّرون فقال عليه السلام: **«والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً، فوالله لأن أسالمه وأنا عزيز خير من أن يقتلني وأنا أسيره، أو يمنّ عليّ فتكون سُبّة على بني هاشم إلى آخر الدهر، ومعاوية لا يزال يمُن بها وعقبه على الحيّ منّا والميّت»**[1].

إذن فلم يكن للإمام سبيل إلى هذا الاختيار.

ولم يكن من الحكمة إطلاقاً أن يختار الإمام الصلح بعد القتال ومن موقع المقاتل المهزوم بل من موقع المقاتل الذي يملي ما يمكنه من الشروط على خصمه وهو محتفظ بموقعه في ساحة المعركة، فإن الخسارة والضرر إن كان لابدّ أن تلحق بالإمام وجيشه وشيعته وخاصته فليعمل على

١ ـ الاحتجاج للطبرسي ٢: ١٠ ط. النجف ١٣٨٦ هـ وبحار الأنوار ٤٤: ٢٠.

تقليل هذه الخسارة مهما أمكن.

فإذا كان الخيار الثاني اختياراً غير عقلاني في الخيارات الثلاثة التي واجهها الإمام عليه السلام أمامه... فلينظر في الخيار الثالث وهو الاستمرار في القتال بنفسه وبشيعته وخاصته حتى الشهادة والإصرار على قتال معاوية مهما كانت نتائج المعركة إلى أن يأتي جند الشام على الإمام وما تبقّى له من جنده من شيعته وأصحابه وأهل بيته بالتمام ويقتلوهم جميعاً وهو الخيار الذي اختاره الحسين عليه السلام في خروجه على يزيد.

فإذا كانت الظروف السياسية والعسكرية القاهرة حالت دون الإمام ودون الانتصار على بني أمية. وإذا كان الصلح مع معاوية بعد القتال وبعد فوز معاوية في الحرب أمراً مُذلاً للإمام ولشيعته وجيشه، فلماذا لم يقدم الإمام الحسن عليه السلام على ما أقدم عليه أخوه الحسين عليه السلام من الإصرار على القتال حتى الشهادة فيكون قد حقّق بذلك إحدى الحسنيين؟

ومن الناس من لا يناقش في الخيار الثاني من الخيارات الثلاثة التي واجهها الإمام، ولكن يرى أن الخيار الثالث كان أفضل للإمام وأعزّ له ولجنده ولشيعته وأدنى إلى الله من الخيار الأول، وأنه كان بوسع الإمام، وهو يعلم بما يؤول إليه أمر جنده ودولته أن يستبسل للقتال، هو ومن تبقّى له من شيعته وخاصته ويصبر على القتال حتى الشهادة... وأكثر اعتراض أصحاب الإمام القريبين منه والموالين له كان ينصبّ على هذه النقطة بالذات، فلم يكن أحد من أصحاب الإمام يشك أن جيش الإمام غير قادر على المقاومة في وجه معاوية، ولكنّهم كانوا يعاتبون الإمام على عدم المضيّ في القتال حتى الفوز بالشهادة.

إن نظرة سريعة إلى التركيبة التي شرحناها لجيش الإمام تكفي للإجابة على هذا السؤال.. فلم يبق في جانب الإمام الحسن عليه السلام بتأثير الفتن الهوجاء التي غزت العالم الإسلامي على يد بني أمية، إلا قلّة من المؤمنين من أصحاب المواقف السياسية الواضحة، والمقيمين على الخط الفكري والسياسي الإسلامي السليم، الذي خلّف رسول الله صلى الله عليه وآله أهل بيته من بعده في حديث الثقلين المعروف[١].

وكانت سياسة أهل البيت في هذه المرحلة بعد الردّة الجاهلية التي تمت على يد بني أمية، والتي شرحنا بعض أبعادها في هذه الدراسة، هي المحافظة على هذه الأقليّة الثابتة وتنميتها، واعتمادها في مكافحة الردّة الجاهلية ومعارضة سلطان بني أمية وتجديد حياة الإسلام، وإزالة ما علق بالإسلام من أفكار ومفاهيم وأحكام وأخلاق جاهلية، لا تمت للإسلام بصلة وتحريك وتوعية الأمة بهذا الاتجاه.

وهذه المهمة الثقيلة في التوعية والتحريك والجهاد والمحافظة على الإسلام كانت ملقاة على عاتق هذه الأقليّة التي ظلّت محتفظة بخط وقيادة أهل البيت عليهم السلام في وسط الأزمات الحادة وأمواج الفتن الهوجاء، التي غزت العالم الإسلامي في هذه الفترة.

وكان معاوية يتتبّع هذه الأقلية المعارضة من شيعة الإمام في كل مكان ويأمر عماله بالتضييق عليهم، ومنع أرزاقهم، والتنكيل بهم، وسجنهم، وتعذيبهم، بأقل شبهة أو ظنّة، لغرض إبادتهم والقضاء عليهم.

وقد مرّ علينا حديث الإمام الباقر عليه السلام الذي يستعرض فيه محنة أهل

---

١ ـ يرويه عدد غفير من الصحابة والتابعين.

البيت وشيعتهم أيّام بني أمية عامة، ومعاوية خاصّة:

(ثم لم نزل أهل البيت نستذل ونقصى ونمتهن ونحرم ونقتل ونخاف، ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا.. وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن فقتلت شيعتنا بكل بلدة وقطعت الأيدي والأرجل على الظنّة)[١].

والآن نعود إلى حديثنا الذي قطعناه.

افتراض مواصلة القتال:

لو أن الإمام الحسن عليه السلام كان يختار الخيار الثالث من هذه الخيارات، وهو الخيار الذي اختاره أخوه الإمام الحسين عليه السلام، وكان يصر على الاستمرار في القتال بنفسه وشيعته وأهل بيته حتى الشهادة؟

لم يكن يبقى معه بالتأكيد في ساحة المعركة غير هذه الجماعة من شيعته، التي كان الإمام عليه السلام يدّخرهم لمقاومة سلطان بني أمية وتحريك الأمة وتوعيتها في المستقبل، ولأبادهم معاوية إبادة كاملة في ساحة المعركة وتتبّع ـ في زهو الانتصار ـ من تبقى منهم ومن عوائلهم خلف ساحة المعركة وأبادهم بشكل كامل، وبهذه الصورة كانت تخلو الساحة السياسية في العالم الإسلامي لبني أمية بشكل كامل ومقفل، ولا يبقى هناك من صوت للمعارضة ودعوة للعودة إلى الإسلام، وعمل لتحريك الساحة الإسلامية وتوعيتها، من دون أي نتيجة إيجابية تكتسبها الساحة الإسلامية بهذه المجزرة التي كانت تتم على يد معاوية في شيعة الإمام وأوليائهم.

---

١ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ١١: ٤٤. ورواه المجلسي عن ابن أبي الحديد في البحار ٤٤: ٦٨ـ٦٩.

ولـم يكـن يـبقى فـي جـو المعارضـة غـير الخوارج والخوارج لا يؤلفون دعـوة للعـودة علـى الخـط الإسلامي الصحيح أولاً، وطريقتهم المتشنّجة في مواجهة أعدائهم كانت كفيلة بإنهائهم ثانياً.

إذن فقـد كان الإصرار على القتال من جانب الإمام، حتى الشهادة، يؤدي إلـى الإبادة الكاملة لشيعته، وإلى كارثة واسعة على الإسلام، وتفريغ الساحة لمعاويـة، وسـائر حكـام بنـي أمية، مـن بعـده، ليعبـثوا بمقـدّرات هذه الأمة، وبأصـول الإسـلام، وأحكامـه، وفـروعه، من دون أن تواجههم أية معارضة، وفـي ضـوء الظروف والإرهاب والإعلام الأموي نشك شكاً قوياً في إمكانية ولادة معارضـة جديدة على خط الإسلام الصحيح لو أنّ معاوية كانت تتهيأ لـه فرصـة إبـادة شيعة الإمام، ثم نشك أن تكون هذه المعارضة على فرض ولادتهـا قـادرة علـى الـنمو والحـركة والـتحريك في ظل الظروف الإرهابية التي أوجدها حكّام بني أمية.

وعلـيه فـإن مواصـلة القـتال حـتى الشـهادة وهـو الخيار الثالث كان يترك أسـوأ الآثـار في تاريخ الإسلام، يعلم الله تعالى وحده أبعاد الخسائر والضياع والانحراف التي كانت تتركه هذه المجازفة التأريخية بمصير الأمة والإسلام.

ونحـن لا نقـدم هـذا التحلـيل السياسي، من عندنا، ومن استنباط الظروف السياسـية التي كانت تحيط بالإمام في تلك الفترة، فقط، وإنما نأخذه بصورة مباشـرة أيضـاً مـن كلمـات الإمـام الحسـن عليه السلام نفسـه فـي توجـيه صـلحه مع معاويـة ومتاركـته للقـتال.. وقد كان الأمر واضحاً لا لبس فيه لدى الإمام في تـرك هـذا الخـيار، وكان ثقيلاً عليه وعلى شيعته ثقل الجبال، وتحمّل الإمام

الزكي الحسن عليه السلام الكثير من النقد والعتاب، المرّ القاسي، من أصحابه، وأوليائه، وشيعته، الذي كانوا لا يدركون أبعاد هذه المجازفة،وكان يثقل عليهم أن يضع ابن رسول الله صلى الله عليه وآله يده في يد ابن هند آكلة الأكباد.. وكان بعض هذا العتاب يبلغ حدوداً قاسية من إساءة الأدب إلى الإمام ولكن الإمام يتحمّل كل ذلك بصدر واسع وصبر كبير للمحافظة على الأمانة التي ائتمنه الله تعالى عليها.

وأمامنا مجموعة من النصوص تشير بوضوح إلى هذا الفهم والتحليل الذي ذكرناه في متاركة الإمام للقتال مع معاوية نذكر جملة منها:

روى الشيخ الصدوق في علل الشرائع عن أبي سعيد عقيصا قال: قلت للحسن بن علي بن أبي طالب: (يا بن رسول الله لم داهنت معاوية وصالحته وقد علمت أن الحق لك دونه، وأن معاوية ضالٌ باغ؟

فقال: يا أبا سعيد ألستُ حجة الله تعالى ذكره على خلقه وإماماً عليهم؟ قلت: بلى... علة مصالحتي لمعاوية، علة مصالحة رسول الله صلى الله عليه وآله لبني ضمرة وبني أشجع ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية، أولئك كفّار بالتنزيل، ومعاوية وأصحابه كفار بالتأويل.. سخطتم عليّ بجهلكم بوجه الحكمة فيه، ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل)[1].

ترى كيف ينظر الإمام إلى نتائج الاستمرار في القتال لو كان يصر على مواصلة القتال، وكيف كانت هذه المجازفة تعطي فرصة لمعاوية في إبادة

١ ـ علل الشرائع ٢١١ ط. النجف ١٣٨٥ ورواه المجلسي في البحار ٤٤: ١٢. أخذنا من النص موضوع الحاجة.

الشيعة، فلا يترك شيعياً ـ على وجه الأرض كلها ـ إلا قتله.

ويروي البلاذري في الأنساب: أنّ الإمام الحسن عليه السلام قال لحجر بن عدي وهو من خيار أصحابه، عندما عاتبه على مصالحة معاوية عتاباً فيه قسوة وسوء أدب، رحمه الله وتجاوز عنه... قال له الإمام: (وإنما فعلت ما فعلت إبقاءً عليكم)[1].

ترى لو أن حجراً، ولا يشك أحد في إخلاصه وسلامة نيته، وهو من خيار أصحاب الإمام، دعته فورة الغضب والانفعال إلى هذه المجازفة الرهيبة، هل يصح للإمام أن يستجيب لها وهو يرى ما تؤدي إليه هذه المجازفة من كوارث في مستقبل الإسلام والمسلمين؟

وفي رواية يرويها الصدوق عن أبي جعفر، وقد سأله سدير عن أمر الإمام الحسن عليه السلام، لِمَ أسلم الأمر إلى معاوية، فقال له الإمام أبو جعفر عليه السلام: أسكت فإنه أعلم بما صنع، لو لا ما صنع لكان أمر عظيم[2].

الإمام الحسن أمام الخيار الصعب:

فلم يكن أمام الإمام إذن من سبيل إلا الخيار الأول وهو قبول دعوة الصلح من معاوية قبل بدء القتال.. وكان اختياراً شاقاً عسيراً على الإمام وأصحاب الإمام وأهل بيته. وكان لابدّ للإمام من أن يأخذ القرار، ومن أن يتحمل العتاب واللوم من أقرب الناس إليه، الذين كانوا يصرون على الإمام بالمضي في حرب معاوية حتى الشهادة والذين كانوا لا يرون الأبعاد البعيدة

---

١ ـ أنساب الأشراف ٣: ٤٥ ط. بيروت تحقيق المحمودي، وبحار الأنوار ٤٤: ٥٧.

٢ ـ علل الشرائع: ٢١١ والمجلسي في البحار ٤٤: ١.

لهذه المجازفة كما يراها الإمام...

فقد كان يرى ما لا يراه أصحابه وأهل بيته إلا أن الكثيرين منهم لم يستطيعوا أن يستسيغوا ما صنعه الإمام، وكانوا يؤثرون أن يشهروا سيوفهم ويقتلوا عن آخرهم، ولا يقدم الإمام على ما أقدم عليه من الصلح مع معاوية.

وكان حجر رضي الله عنه يقول للإمام: (أما والله لوددت إنك متّ في ذلك اليوم ومتنا معك ولم نر هذه اليوم)[1].

ولكن الإمام كان يرى ما لا يراه أصحابه، وكان يؤثر أن يتحمل هذا الضيم في نفسه وشيعته على أن يجازف بمستقبل الإسلام والأمة في حركة انفعالية نعلم أولها ولا نعلم آخرها.

إنه ثقل المسؤولية والتكليف الشرعي الذي يبتلي الله تعالى به عباده، وقليل من الناس من يستطيع أن ينهض بالمسؤولية الشرعية في مثل هذه الساعات الحرجة والعسيرة.

وسلام الله على أبي محمد الحسن في موقفه هذا وتضحيته الكبيرة وتحمّله وصبره.

وليت شيعة الإمام وأصحابه الأدنين منه كانوا يرون ما يراه الإمام.. إذن كانوا يعينون إمامهم في تحمل أعباء هذه المسؤولية الثقيلة، ولم يكونوا يضيفون آلاماً إلى آلامه، ومعاناةً إلى معاناته. ولقد كان أيسر على الإمام أن يتحمّل من معاوية وأزلامه السبّ والشتم، من أن يتحمل من شيعته وأصحابه اللوم والعذل.

---

١ ـ بحار الأنوار ٤٤: ٥٧.

وقد عمد الإمام قبل كل شيء إلى إعطاء صفة الهدنة ومتاركة القتال للصلح، فطلب من معاوية شروطاً فأرسل معاوية إلى الإمام ورقة بيضاء مختومة[١] ليشرط عليه فيها ما شاء من الشروط. فاشترط عليه الإمام أن لا يسميه (أمير المؤمنين، ولا يقيم عنده شهادة، وأن لا يتعقب على شيعته شيئاً)[٢].

وهذه المعاهدة بهذه الصورة لا تزيد على أن تكون اتفاقية هدنة وإيقاف للقتال.

وليس فيه إيماءة أو تصريح بتسليم الإمرة والولاية الشرعية إلى معاوية.

بل اشترط عليه الإمام ألاّ يسمّيه أمير المؤمنين وألاّ يقيم عنده شهادة، وهو بمعنى عدم الاعتراف بولاية معاوية الشرعية على المسلمين، وعدم تنازل الإمام عن حقه الشرعي في الولاية.

وكان الإمام الحسن عليه السلام يعلن رأيه هذا إعلاناً، فخطب الإمام في أول الصلح بحضور من المسلمين ومعاوية جالس فقال: (إنما الخليفة من سار بكتاب الله وسنة نبيه، وليس الخليفة من سار بالجور ذلك رجل ملك ملكاً تمتّع به قليلاً ثم تنخّمه، تنقطع لذته وتبقى تبعته ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾)[٣].

وقد أعلن معاوية بذلك بالنخيلة على الملأ من الناس غدره بالإمام وبكل ما اشترط عليه الإمام فقال: (ألا إن كل شيء أعطيته الحسن بن علي تحت

---

١ ـ تاريخ الطبري ٧: ٥ وابن الأثير ٣: ٤٠٥.

٢ ـ علل الشرائع للصدوق: ٢١٢، وبحار الأنوار ٤٤: ٢.

٣ ـ شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦: ٤٩.

قدميّ هاتين لا أفي به)[1]، وقد كان أبو إسحاق يقول عن معاوية: (كان والله غدّاراً)[2].

إلا أن معاوية لم يسجّل على الإمام اعترافاً بولايته عند اتّفاقية الصلح ولا بعد ذلك، ولم يزد مضمون الصلح في أصح الروايات على الاتفاق على إيقاف القتال والهدنة.

تعليمات الإمام لشيعته في ظروف الفتنة:

ورسم الإمام لشيعته الموقف السياسي من حكومة بني أمية في تلك الفترة... وهذه السياسة تنطلق وتنسجم مع قرار الإمام في الصلح.

وأهم نقاط هذا الموقف ثلاث:

١ـ أن معاوية يريد استئصال الشيعة (الخط الموالي لأهل البيت) وأن موجة من الإرهاب والتصفية والقتل سوف تواجه شيعة أهل البيت على يد معاوية وأزلامه وعماله، وليست لهم القدرة على مواجهة هذه الموجة العاتية.

فإن معاوية ينطلق من موقع قوي بجند الشام وأموال الشام، ويخطّط للقضاء التام على شيعة أهل البيت، ويعلم أن الأمر لا يستقيم له ولأسرته من بعده، إلا باستئصال أهل البيت وشيعتهم، ولا تملك الأمة القدرة والوعي الكافيين لمواجهة هذه الفتنة العارمة.

٢ـ ومن غير الصحيح في مثل هذه المرحلة التأريخية الحساسة أن تتحرك هذه الفئة الموالية لأهل البيت عليهم السلام من منطلق الانفعال ورد الفعل،

١ـ مقاتل الطالبيين: ٤٥، وأنساب الأشراف ٢: ٥٥.

٢ـ مقاتل الطالبيين: ٤٥.

ومن الخطأ أن تواجه هذه الأقلية موجة الفتن المقبلة من الشام بأنفسهم، فهو الانتحار الجماعي الذي يستتبع الكثير من الكوارث على الإسلام والمسلمين في المستقبل، ومعاوية سوف لا يتردد في ضرب كل تحرك سياسي معارض أو خروج أو تمرّد على سلطانه بضربات موجعة وقاتلة.

وإذا وجد معاوية مبرراً للمواجهة والقتال فسوف لا يقف عند حد حتى يستأصل هذه المجموعة بالكامل، وليس من ورائهم من يخلفهم على المسيرة، فيصفو الجو لمعاوية، ومن بعده لبنيه وذريته، فلا بد من تجنّب الاصطدام بهذه الموجة وعدم التعرّض لها. وتفويت هذه الفرصة على معاوية للإبقاء على هذه المسيرة الإسلامية الصحيحة التي لم تتأثر بالردّة الأموية والعاملين عليها.

٣ـ فإذا هلك معاوية فالظرف والحكم يتغيّران تغيراً كبيراً.. ومن الممكن ـ وعلى درجة قوية من الاحتمال ـ أن تكون الظروف مناسبة ومهيّأة للخروج على سلطان بني أمية.

فإن معاوية لابدّ أن يسفر عن وجهه الحقيقي وأهدافه الحقيقية[١] بما يساعد على تحريك وتوعية الأمة.

وإنّ بني أمية وعمّالهم سوف يمارسون من الظلم والتعسّف في حياة الناس في هذه الفترة ما يهيئ الأمة للتحرك والمواجهة ولا سيما في العراق والحجاز.

وإن خليفة معاوية ـ وفي أغلب الظن كان الإمام يقدّر أن يكون ابنه يزيد

---

١ ـ خطب معاوية في النخيلة فقال: (إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا. إنكم تفعلون ذلك وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم. وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون) مقاتل الطالبيين: ٤٥، وشرح النهج لابن أبي الحديد ١٦: ٤٦.

بن معاوية ـ سوف لا يملك قدرة أبيه، وسلطانه، ونفوذه، ولا يملك دهاءه وعقله السياسي، ولا تظاهره بالدين. فيكون الأمر في مواجهة خليفته من بعده أيسر وآمن، وأكثر ضماناً في استجابة الأمة وحركتها.

ولهذه العوامل وغيرها كان يرى الإمام إرجاء أيّ تحرّك سياسي، وأي محاولة للخروج على سلطان بني أمية إلى هلاك معاوية، وكان هذا هو رأي الإمام الحسين عليه السلام أيضاً من بعد وفاة أخيه الإمام الحسن[1].

وفي النصوص التي وصلت إلينا من الإمام عليه السلام بعد قصة الصلح نلتقي في النص التالي، حول موقف الإمام الحسن عليه السلام ورأيه في التحرك السياسي والجهادي في المرحلة وما بعدها بصورة واضحة.

نروي النص عن البلاذري وابن قتيبة: وكلاهما من أعلام القرن الثالث الهجري:

روى ابن قتيبة الدينوري (واللفظ له) والبلاذري في أنساب الأشراف:

أنّ جمعاً من وجهاء وزعماء الشيعة اجتمعوا بالإمام وفيهم سليمان بن صرد، وكان غائباً عن المعركة، وسيد أهل العراق، فحدّثوا الإمام بما يجيش في صدورهم من العتاب واللوم الذي لا يخلو من قسوة.. فلمّا تكلّموا جميعاً أخذ الإمام بالكلام، فقال بعد الحمد والصلاة:

١ ـ لما استشهد الإمام الحسن اجتمع شيعة أهل البيت في الكوفة في دار سليمان بن صرد فكتبوا إلى الحسين بالتعزية ورأي أهل الكوفة وحبهم لقدومه ورأيهم في معاوية وعدائهم له وولائهم لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله فكتب إليهم الحسين عليه السلام: (الصقوا بالأرض، واخفوا الشخص، واكتموا الهوى، واحترسوا من الأخطاء ما دام ابن هند حياً. فإن يحدث به حدث وأنا حي يأتكم رأيي إن شاء الله) أنساب الأشراف ٣: ١٥١ـ٥٢، تحقيق المحمودي وترون أن هذا هو رأي الإمام الحسن بالذات كما سوف يأتي في رواية البلاذري وابن قتيبة الدينوري.

إنكم شيعتنا وأهل مودتنا، ومن نعرفه بالنصيحة والصحبة والاستقامة لنا، وقد فهمت ما ذكرتم، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا وللدنيا أعمل وأنصب، ما كان معاوية بأبأس مني وأشدّ شكيمة، ولكان رأيي غير ما رأيتم، ولكني أشهد الله وإياكم أني لم أرد بما رأيتم إلا حقن دمائكم وإصلاح ذات بينكم.

فاتّقوا الله وارضوا بقضاء الله، وسلّموا الأمر لله، والزموا بيوتكم وكفوا أيديكم، حتى يَستريح برّ أو يُستراح من فاجر، مع أن أبي كان يحدّثني أن معاوية سيلي الأمر، فوالله لو سرنا إليه بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر، إن الله لا معقّب لحكمه، ولا راد لقضائه.

وأما قولك يا مذلّ المؤمنين، فوالله لئن تذلّوا وتعافوا أحب إلي من أن تعزوا وتقتلوا... فليكن كل رجل منكم حِلْساً من أحلاس بيته ما دام معاوية حياً، فإن يهلك ونحن وأنتم أحياء سألنا الله العزيمة على رشدنا، والمعونة على أمرنا، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا فإن الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون)[1].

والنص الذي رويناه يضع مجموعة نقاط تساهم في رسم الموقف الذي شرحناه من قبل بشكل واضح:

١ـ إن معاوية يستعمل في إحراز الفوز أساليب ملتوية وغير شرعية (دنيوية)، كان بإمكان الإمام أن يستعملها، ويحقق بها الفوز والنصر كما يريد أصحابه، ولكن لا يرى مسوّغاً لاستعمال الأساليب التي يستعملها معاوية ويترفع عنها، ولو كان يطلب الدنيا لحارب معاوية بسلاحه الذي

---

١ ـ الإمامة والسياسة: ١٦٤، وروى جزء من هذا النص البلاذري في أنساب الأشراف ٣: ٤٩.

يستعمله هو ولانتصر عليه.

٢ـ إن معاوية يفوز في هذه المعركة حتماً ولو سار إليه الإمام بالأشجار والجبال.

٣ـ وإنه لو قاتل معاوية لأعطى لمعاوية فرصة لإبادة شيعته إبادة كاملة وقد حقن الإمام دمائهم بهذا الصلح.

٤ـ وفي هذه المرحلة يجب تجنّب الاصطدام بأمواج الفتن المقبلة من الشام للمحافظة على هذه القاعدة الإسلامية من شيعة أهل البيت ولئن يذلوا ويعافوا خير من أن يعزوا ويقتلوا، ولا يخلفهم أحد من بعدهم في حراسة وحماية وتقويم الخط الإسلامي الصحيح.

٥ـ وإذا هلك معاوية فلكل حادث حُكْم.

فإذا كانت الفرصة مؤاتية، وكان الإمام حياً فسوف يأمر بالخروج على خلفاء معاوية.

استشهاد الإمام الحسنعليه السلام والبيعة ليزيد:

بعد هذه الجولة في أسباب وخلفيات صلح الإمام الحسنعليه السلام والظروف القاهرة التي دعته إلى متاركة القتال مع معاوية... نعود إلى الحديث عن الحسينعليه السلام وموقفه ورأيه بعد موت معاوية.

لقد كان رأي الحسينعليه السلام في الخروج على معاوية هو رأي أخيه الإمام الحسن.

إذ يروي البلاذري: أنّ زعماء الشيعة احتجّوا بعد وفاة أخيهعليه السلام في دار سليمان بن صرد وكتبوا إليه برأي أهل الكوفة فيه وولائهم له وبراءتهم من

معاوية وأفعاله، يطلبون قدومه إلى الكوفة فكتب إليهم الحسين عليه السلام: (إلصقوا بالأرض، واخفوا الشخص، واكتموا الهوى، واحترسوا من الأخطاء ما دام ابن هند حياً، فإن يحدث به حدث وأنا حيّ يأتكم رأيي إن شاء الله)[١].

وعليه فقد كان رأي الحسنين عليهما السلام رأياً واحداً في مسألة الخروج على بني أمية وتوقيته بموت معاوية وما يستجد من الظروف حينذاك، فإن كانت الظروف مؤاتية وصالحة أقدما على الخروج على سلطان بني أمية.

وكان معاوية يعرف هذا الأمر جيداً، ويعلم أنّ الذي يلي الأمر من بعده سوف يلاقي الكثير من المتاعب والمشاكل، وأنّ هذه المتاعب والمشاكل يمكن أن ترقى إلى تهديد سلطان بني أمية. وقد كان معاوية عازماً على أن يعهد بالخلافة إلى ابنه يزيد من بعده، كان يتخوّف كثيراً من إعلان رأيه هذا، لما يعهد في ابنه من تهتّك وخروج سافر على الأعراف والأخلاق والالتزامات الإسلامية.

وكان أكثر ما يشغل بال معاوية في هذا الأمر، هو الإمام الحسن عليه السلام. فقد اشترط عليه الإمام من شروط الصلح أن لا يخلف أحداً في مكانه.

ولم يكن معاوية يعبأ كثيراً بعهوده، فقد نقضها علانية، وبملأ من المسلمين، ولكنّه كان يخشى أن يتمسك الإمام الحسن عليه السلام وشيعته بشرطه عليه، ويخرجوا على يزيد من بعده، فلا يستطيع أن يقاوم الحسن عليه السلام: فلا هو يملك دهاء أبيه وقوته، ولا هو يملك قدرة أبيه على ضبط النفس والتظاهر بالالتزام والتخلّي عن تهتّكه، ولا هو يملك رصيد أبيه من الصحبة

---

١ ـ أنساب الأشراف ٣: ١٥١ـ١٥٢ تحقيق المحمودي

وخؤولة المؤمنين وما انتحله له المرتزقة الذين من حوله من مناقب وفضائل.

فكان أكثر ما يخشاه على سلطان بني أمية من بعده من الحسن عليه السلام، ولذلك فقد خطّط معاوية للتخلص من الإمام بطريقته المعروفة التي استعملها في التخلّص من مالك الأشتر عامل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وهو في طريقه إلى مصر من قبل، فدسّ إليه سمّاً على يد زوجته جعدة، وتولّت جعدة تنفيذ هذه المهمة بالشكل الذي يريد معاوية.

يقول أبو الفرج: (وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد فلم يكن شيء أثقل من أمر الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص، فدسّ إليهما السمّ فماتا)[1].

وبعد أن خلت الساحة من وجود الإمام بدأ معاوية يفكّر بصورة جدّية في إعلان ولاية العهد لابنه يزيد، ولكنّه كان يتهيّب كثيراً من الإقدام على هذا الأمر الخطير، كما ذكرنا، لما يعرف في يزيد من التهتّك والتجاهر بالفسق، مما كان لا يخفى أمره على أحد من المسلمين.

فكان متردداً في هذا الأمر يقدّم خطوة ويؤخّر أخرى، حتى قدم عليه المغيرة بن شعبة (عامله على الكوفة) من الكوفة، يحمل إليه اقتراحاً بترشيح يزيد من بعده خليفة على المسلمين، ويخبره أنه قد سعى في ذلك في الكوفة، ويقدّم إليه استعداده للسعي في هذه المهمة.

والقصة معروفة في التأريخ، نرويها عن تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي:

(كان المغيرة عامل معاوية على الكوفة، فكتب إليه معاوية: إذا قرأت كتابي فأقبل معزولاً، فأبطأ عنه فلما ورد عليه قال: ما أبطأ بك؟ قال: أمرٌ

---

١ ـ مقاتل الطالبيين: ٤٧ ـ ٤٨، وراجع أنساب الأشراف للبلاذري ٢: ٥٥ تحقيق المحمودي.

كنت أوطئه وأهينه. قال: وما هو؟ قال: البيعة ليزيد من بعدك.

قال: أو قد فعلت؟ قال: نعم. قال: ارجع إلى عملك. فلما خرج قال له أصحابه: ما وراءك؟ قال: وضعت رجل معاوية في غرز غيّ لا يزال فيه إلى يوم القيامة)[١].

وأجزل معاوية العطاء للشعراء ولوجوه الناس ليكسب أصواتهم لاستخلاف يزيد فأرسل إلى عبد الله بن عمر مائة ألف درهم فقبلها فلما ذكر البيعة ليزيد: قال ابن عمر: هذا أراد؟ إن ديني عندي إذن لرخيص[٢].

وأرسل معاوية مائة ألف درهم إلى عبد الرحمن بن أبي بكر، فامتنع من أخذها، وقال: لا أبيع ديني[٣].

وكتب معاوية إلى عمّاله في البلاد يطلب منهم الإعداد لمبايعة يزيد بولاية العهد، ولم يكن الأمر هيّناً على عمال معاوية. فقد كان فيهم من يطمح هو في ولاية العهد، مثل زياد ابن أبيه الذي ثبّت دعائم حكم معاوية في العراقين.

ومثل مروان الذي كان يرى نفسه أولى بهذا الأمر من يزيد، ويرى أنه شيخ العشيرة وكبيرها.

فدعا زياد برجل من أصحابه يثق بفضله وفهمه، فقال: إني أريد أن أأتمنك على ما لم أأتمن عليه بطون الصحائف، إئت معاوية، وقل له: يا أمير المؤمنين إنّ كتابك ورد عليّ بكذا، فما يقول الناس إذا دعوناهم إلى

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٩١ـ١٩٢ ط. دار الفكر.

٢ ـ الكامل ٣: ٥٠٦ دار صادر بيروت.

٣ ـ البداية والنهاية لابن كثير ٨: ٨٩.

بيعة يزيد، وهو يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصبَّغ ويدمن شرب الخمر، ويمسي على الدفوف، وبحضرتهم الحسين بن علي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، ولكن تأمره يتخلّق بأخلاق هؤلاء حولاً أو حولين فعسانا أن نموّه على الناس[١].

إلا أن معاوية كان أوفر دهاءً، وكان زياد أذل عنده من أن تمر عليه مكيدته أو يعبأ بكلام ابن أبيه فقال: (ويلي على ابن عبيدة، لقد بلغني أن الحادي حدا له: أن الأمير بعدي زياد، والله لأردنّه إلى أمّه سميّة وإلى أبيه عبيد)[٢].

ولقد جهد معاوية كثيراً في إعداد يزيد لهذه المهمة الصعبة وفي تأهيله لها على طريقته الخاصة.

وقد حاول معاوية أكثر من مرة أن يأخذ البيعة ليزيد من الحسين عليه السلام[٣] ونفر من وجوه الصحابة وأبناء الصحابة، منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، ولكن ولاته جميعاً باءوا بالفشل، وواجهه الحسين عليه السلام وأولئك النفر بالصدود والرفض القاطع.. نذكر من هذه المحاولات كتاباً واحداً بعثه الإمام الحسين عليه السلام إلى معاوية جواباً لكتابه إليه، عندما اشتدت مطالبة معاوية له عليه السلام[٤] بالبيعة، برواية ابن قتيبة الدينوري في الإمامة والسياسة.

١ ـ تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٠٨ ط.٤ المطبعة الحيدرية في النجف.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري ١: ١٨٠ـ٨١ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر: ١٣٨٨ هـ.

٤ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ١٨٦ مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

كتب الإمام الحسين عليه السلام إلى معاوية:

«أمّا بعد فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عني أمور لم تكن تظنني بها، رغبة بي عنها، وإن الحسنات لا يهدي لها، ولا يسدّد إليها إلا الله تعالى، وأما ما ذكرت أنه رقى إليك عني، فإنما رقاه الملاّقون، المشاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الجمع، وكذب الغاوون المارقون، ما أردت حرباً ولا خلافاً، وإني لأخشى الله في ترك ذلك منك ومن حزبك، القاسطين المحلّين، حزب الظالم، وأعوان الشيطان الرجيم.

ألست قاتل حجر، وأصحابه العابدين المخبتين، الذين كانوا يستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؟ فقتلتهم ظلماً وعدواناً، من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة، والعهود المؤكدة، جرأةً على الله واستخفافاً بعهده، أولست بقاتل عمرو بن الحمق، الذي أخلقت وأبلت وجهه العبادة؟ فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو فهمته العصم لنزلت من شغف الجبال، أولست المدعي زياد في الإسلام؟ فزعمت أنه ابن أبي سفيان، وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وآله أن الولد للفراش، وللعاهر الحجر، ثم سلطته على أهل الإسلام، يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم على جذوع النخل، سبحان الله يا معاوية لكأنك لست في هذه الأمة وليسوا منك؟

أولست قاتل الحضرمي الذي كتب إليك فيه زياد أنه على دين علي عليه السلام؟ ودين علي هو دين ابن عمه صلى الله عليه وآله، [الدين] الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه؟ ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشّم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، فوضعها الله عنكم بنا منّة عليكم،

وقلت فيما قلت: لا تردَ هذه الأمة في فتنة، وإنّي لا أعلم لها فتنة أعظم من إمارتك عليها.

وقلت فيما قلت: أنظر لنفسك ودينك، ولأمة محمد ﷺ، وإني والله ما أعرف أفضل من جهادك، فإن أفعل فإنه قربة إلى ربي، وإن لم أفعل فاستغفر الله لديني، وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى، وقلت فيما قلت: متى تكدني أكدكَ، فكدني يا معاوية فيما بدا لك، فلعمري لقديماً يكاد الصالحون، وإني لأرجو أن لا تضر إلا نفسك، ولا تمحق إلا عملك، فكدني ما بدا لك، واتّق الله يا معاوية، واعلم أن لله كتاباً لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، واعلم أن الله ليس بناسٍ لك قتلك بالظنة، وأخذك بالتُهمة، وإمارتك صبيّاً يشرب الشراب، ويلعبُ بالكلاب، ما أراك إلا وقد أوبقت نفسك وأهلكت دينك وأضعت الرعية والسلام»[١].

والتقى معاوية بالحسين عليه السلام وعبد الله بن عباس في المدينة في سفره الذي حاول فيه أن يمهّد الأمر ليزيد ابنه. وقد جرى بين الإمام الحسين عليه السلام ومعاوية حوار حول خلافة يزيد ننقل هنا بعض الفقرات من كلام أبي عبد الله الحسين عليه السلام لمعاوية من كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري:

قال الحسين عليه السلام لمعاوية:

«هيهات هيهات يا معاوية، فضح الصبحُ فَحمةَ الدُجى، وبهرت الشمس أنوار السرج، ولقد فضّلت حتى أفرطت، واستأثرت حتى أجْحفت، ومنعت حتى محلت، وجزت حتى جاوزت. ما بذلت لذي حق من اسم حقه بنصيب حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر ونصيبه الأكمل.

---

١ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري ١: ١٨٠ـ٨١ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر: ١٣٨٨ هـ.

وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد ﷺ تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص. وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه.

فخذ ليزيد فيما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش والحمام السبق لاترابهن، والقيان ذوات المعازف، وضرب الملاهي، تجده باصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه، فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور وحنقاً في ظلم، حتى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود ولات حين مناص»[1].

١ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١: ١٨٦ مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

الفصل الثاني عشر

الأهداف السياسية والحركية
في ثورة الإمام الحسين عليه السلام

أهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام

إذن كان الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام قد عقدا العزم على إعلان الخروج على سلطان بني أمية عندما تسمح الظروف بعد موت معاوية.

وقد أظهرا ذلك لشيعتهم أكثر من مرة. وكانت خطة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام في ذلك واحدة ـ كما رأينا فيما روينا من أحاديث وتعليمات الإمامين عليهما السلام لشيعتهما ـ ولا واقع إطلاقاً لما ينتحله البعض من خلاف في الرأي بين الإمامين في الموقف من حكومة بني أمية.

وقد رأينا أن مجاميع من شيعة العراق كتبوا إلى الحسين عليه السلام بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام يدعونه للخروج على معاوية وإعلان الثورة، رافضين موقف الإمام الحسن عليه السلام من الصلح، فكتب إليهم الحسين عليه السلام:

«صدق أبو محمد، فليكن كل رجل منكم حِلساً من أحلاس بيته، ما دام هذا الإنسان (معاوية) حياً»[1].

وشاء الله تعالى أن ينفذ غدر معاوية في الإمام ويستشهد الإمام عليه السلام قبل هلاك معاوية، وتولى الحسين عليه السلام الإمامة وقيادة المعارضة ومسؤولية الثورة والحركة من بعد أخيه.

فكان موقف الحسين عليه السلام بعد وفاة المجتبى هو استمرار موقف أخيه

---

١ ـ الأخبار الطوال: ٢٢١.

الحسن من قبل تجاه معاوية.

فكتب إليه أهل العراق أن يخرج بهم على معاوية فلم يستجب الإمام الحسين عليه السلام لرأيهم وكتب إليهم:

«أما أخي فأرجو أن يكون الله قد وفّقه وسدده فيما يأتي، وأما أنا فليس رأيي اليوم ذلك، فالصقوا رحمكم الله بالأرض واكمنوا في البيوت، واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حياً»[1].

إلاّ أن تحرّكاً سياسياً كان يجري في الحجاز في الكتمان في جو المعارضة يقوده الإمام الحسين عليه السلام ويوجّهه لتأليب المسلمين ضد سلطان بني أمية وتمهيد الأجواء للخروج عليهم بعد موت معاوية.

فقد كان الإمام على اتّصال بوجوه المسلمين من العراق والحجاز، يزورونه ويأخذون برأيه، ورغم أن هذه الاجتماعات كان يغلب عليها طابع السرية إلا أنها كانت لا تغيب عن عيون بني أمية وجواسيسهم فكتب مروان عامل معاوية على المدينة إلى معاوية:

(أنّ عمر بن عثمان ذكر أنّ رجالاً من أهل العراق ووجوه أهل الحجاز يختلفون إلى الحسين بن علي، وأنه لا يؤمن وثوبه، وقد بحثت عن هذا فبلغني أنه يريد الخلاف يومه هذا، فاكتب إليّ برأيك)[2].

فكتب إليه معاوية أن يتجنّب مواجهة الحسين ما أمكنه ذلك.

ومهما يكن من أمر فقد كان الحسين عليه السلام قد عزم على الخروج على سلطان بني أمية إذا مات معاوية وكانت الظروف مؤاتية، وكان قد أعد

---

١ ـ الأخبار الطوال: ٢٢٢.

٢ ـ الأخبار الطوال: ٢٢٤.

شيعته لذلك.

ونحن لا نشك في أن الإمام لم يكن يطلب في ثورته الشهيرة وخروجه على يزيد بن معاوية إسقاط النظام الأموي عسكرياً، والاستيلاء على السلطة. فلم يكن للإمام أعوان يعتمد عليهم في حركته وخروجه في غير العراق. فقد كانت مصر والحجاز بعيدتين كل البعد عن ظروف الثورة والحركة وكانت الشام القاعدة المتينة التي ينطلق منها يزيد بن معاوية ويحتمي بها في حماية ملكه وسلطانه.

ولم يكن هوى أهل العراق معه من غير شيعته.. فقد كان الإمام يعلم جيداً أن من غير الممكن الاعتماد على الكثرة من أهل العراق، فهم مع الطرف المنتصر، ومن الخير له ولثورته ألا يلتحقوا به فإنهم سوف ينفرطون عن جيشه كما انفرطوا عن جيش أخيه الحسن عليه السلام من قبل، أو أسرع وأيسر من ذلك، ويفتّون في عضده وعضد أصحابه وشيعته، ويتخلّون عنه في أحرج ساعات المعركة، ولا يبقى له في ساحة المعركة غير شيعته، الذين ثبتوا من قبل في جيش أخيه الحسن عليه السلام وهم قلة لا يكوّنون قوة عسكرية تصمد أمام جيوش الشام.

ولقد صدقت نبوءة الفرزدق للإمام حين التقى به في الشقوق[١] وأقبل على الإمام وقبّل يده، فسأله الإمام كيف خلفت أهل الكوفة؟ فقال: خلّفت الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية. فقال الحسين عليه السلام: «صدقت وبررت، إنّ الأمر لله يفعل ما يشاء»[٢].

---

١ ـ منزل بطريق مكة بعد واقصة من الكوفة. معجم البلدان ٣: ٣٥٦ دار صادر.

٢ ـ أنظر الفتوح لابن الأعثم ٥: ١٢٤، ومقتل الخوارزمي ١: ٢٢٢، تحقيق الشيخ محمد السماوي.

ولم تكن تجربة الإمام الحسنعليه السلام بعيدة عن الحسين، ولم يكن الإمام الحسينعليه السلام بأقدر من أخيه في تجميع قوة عسكرية لضرب سلطان بني أمية وإسقاط النظام.. إن لم تكن ظروف الحسينعليه السلام أسوأ من ظروف أخيه الحسن. فقد استقر لبني أمية السلطان، وامتدّ نفوذهم، وعمل معاوية بدهائه المعروف في تحكيم أصول حكم بني أمية، وامتداد نفوذهم وشراء الضمائر ونشر الرعب والإرهاب في أجواء المعارضة، واكتساح الأكثرية، التي يتحكّم فيها الإرهاب والإغراء، ويميلون دائماً إلى الجهة المنتصرة القوية في الساحة.

فلم يكن حدثَ حدثٌ جديد في الساحة السياسية والعسكرية بعد الهدنة التي عقدها الإمام الحسنعليه السلام غير أمرين اثنين:

أحدهما: استحكام قواعد سلطان الأمويين وامتداد نفوذهم في البلاد.

والثاني: انتشار الفساد في جهاز بني أمية إلى حد الاستهتار والابتذال في حياة يزيد وحكومته.

والأمر الأول: لم يكن لصالح الإمام في التفكير في تحرك عسكري لإسقاط النظام.. فقد كانت تجربة الإمام الحسنعليه السلام بعد حيّةً في نفوس الشيعة، حيث لم يستطع جيش العراق أن يقاوم سلطان بني أمية، بعد وفاة الإمام أمير المؤمنينعليه السلام.

فما ظنك بهذه القوة العسكرية، بعد أن استحكم لبني أمية الحكم والسلطان، وامتدّ لهم النفوذ في البلاد واستتبَّ لهم الأمر.

وأما الأمر الثاني: وإن كان ينفع في تحريك الأقلية المعارضة الواعية من

الشيعة، إلا أنه لم يكن ينفع ـ بالتأكيد ـ في تحريك الأكثرية التي ألفت هذا الفساد واستسلمت له، بل وأعانت عليه.

فلم يكن يصفو ـ إذن ـ للإمام الحسين من القوة العسكرية غير ما صفا لأخيه الحسن عليه السلام من قبل، وهم الثابتون من شيعته ومواليه.. ولا يمكن أن يفكّر الإمام ـ بكل تأكيد ـ أن يجازف بهذه القوة المحدودة لإسقاط النظام الأموي الرهيب، بعد أن أخفقت محاولة أخيه الإمام الحسن عليه السلام، في ظروف أحسن من ظروفه، وبقوة عسكرية أقوى من الجيش الذي كان يعدّه له العراق بعد موت معاوية.

وهذا التشخيص ليس مما نضيفه نحن من عندنا إلى الظروف التي رافقت خروج الحسين عليه السلام وثورته، وإنما نجده عند كل الذين نصحوا الإمام بالإعراض عن الخروج إلى العراق، ممن كان يعز عليهم أن يواجه الإمام تجربة أخيه الإمام الحسن عليه السلام مرةً أخرى في العراق كعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وغيرهم.

ونجد هذا التشخيص بالذات في كلمات الإمام الحسين عليه السلام بصورة مؤكدة ومتكررة قبل الخروج إلى العراق وبعده.

إخبار الإمام عليه السلام بمصرعه في العراق

ونذكر هنا نموذجين فقط من خطب الإمام التي توحي بصورة قوية أن الإمام كان مُقْدماً على الشهادة والتضحية، ولم يكن يفكّر في عمل عسكري لإسقاط النظام عسكرياً.

أحدهما: في الحجاز قبل أن يفارق مكة إلى العراق. والثاني: في كربلاء.

الخطبة الاولى:

الخطبة الأولى: يرويها ابن طاووس في اللهوف.

قال رحمه الله: روي أنه عليه السلام، لمّا عزم على الخروج إلى العراق، قام خطيباً فقال: **الحمد لله، وما شاء الله، ولا قوة إلا بالله، وصلّى الله على رسوله. خُطّ الموت على ولد آدم، مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف. وخُيّر لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني أكراشاً جوفاً، وأجربةً سغباً، لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لُحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس، تقرّ بها عينه، وينجز بهم وعده، فمن كان باذلاً فينا مهجته وموطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً إن شاء الله**[1].

ولسنا نحتاج إلى التعليق على هذه الخطبة فهي واضحة في أن الإمام عليه السلام كان يعدّ أصحابه لنهضة كبيرة قوامها التضحية والدم، والشهادة، ولا يطمح فيها إلى أي نصر عاجل.

فها هو يبدأ خطابه مع أصحابه بالموت الذي يطوّق ابن آدم كما تطوق القلادة جيد الفتاة.

ثم يخبر عن مستقبل هذه الحركة المأساوية، فيقول: كأني بأوصالي تقطّعان عسلان (ذئاب) الفلوات.

---

١ ـ اللهوف للسيد ابن طاوس: ٥٣ أصفهان ١٣٦٦. ولواعج الأشجان للسيد الأمين ونَفس المهموم للمحدّث القمي: ١٦٣، مكتبة بصيرتي قم ١٤٠٥ هـ ق، وص ٧٠ مطبعة العرفان صيدا ١٣٣١ هـ ق.

ثـم يطلـب النصرة من المسلمين، ولكن بهذه الطريقة الفريدة: (فمن كان باذلاً فينا مهجته، موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا).

إن الإمـام لا يشـير فـي هـذه الخطـبة إلـى أي هـدف عسـكري بالمعـنى المعـروف في الأعمال العسكرية، وإنما يعد أصحابه لتضحية مأساوية دامية، ويطلـب مـن الذين يرافقوه في هذا الرحلة أن يعدّوا أنفسهم للقاء الله ولبذل المهج في سبيل الله.

الخطبة الثانية:

والخطبة الثانية خطبها الحسين عليه السلام بذي حسم من منازل العراق، فقال:

(ألا تـرون إلـى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمـن فـي لقـاء الله محقـاً، فإني لا أرى الموت إلى سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً)[١].

ولمـا سـار الإمـام بأصـحابه من قصر بني مقاتل خفق خفقة ثم انتبه، وهو يقـول: (إنا لله وإنا إليه راجعون) فأقـبل عليه ابنه علي بن الحسين على فرس لـه فقـال: يـا أبـتِ، جعلت فداك، ممّ حمدت الله واسترجعت؟ قال: يا بنيّ، إنـي خفقت برأسي خفقة فعنّ لي فارس على فرس، فقال: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم، فعلمت أنها أنفسنا نُعيت إلينا.

قال له: يا أبت لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحق؟

قال: بلى والذي إليه مرجع العباد.

قال: يا أبت، إذن لا نبالي، نموت محقين.

---

١ ـ الطبري ٧: ٣٠١ الطبعة الأوربية.

فقال: جزاك الله من ولد خير ما جزى ولداً عن والده[١].

ولا يقتصر الأمر على هذه المنامات والخطب التي يرويها أصحاب السير كالطبري (وابن الأعثم) (والسيد ابن طاوس) (والمفيد) وغيرهم بصورة متواترة، لا تقبل الشك. فإن كل شيء في حركة الحسين عليه السلام إلى العراق يدل على أن الإمام لم يكن بصدد حركة عسكرية بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة لإسقاط النظام الأموي.

إذن فإن الإمام لم يكن يفكّر، ولا يمكن أن يفكّر في حركة عسكرية.. وإنما كان الإمام يُقْدِمُ عن علم ووعي على تضحية مأساوية نادرة، بنفسه، وأهل بيته، وأصحابه، ليهزّ ضمير الأمة الخامل، ويبعث في نفوسهم الحركة وروح التضحية والإقدام.

ولعل في حديث الإمام مع أخيه محمد بن الحنفية رحمه الله عندما أراد الخروج من مكة إلى العراق ما يشير إلى هذه الغاية. والرواية يرويها السيد ابن طاوس في اللهوف.

يقول السيد رحمه الله: إن محمد بن الحنفية عندما عرف بخروج الحسين من مكة أتاه فأخذ زمام ناقته التي ركبها، فقال: يا أخي ألم تعدني النظر فيما سألتك؟

وكان قد سأل الإمام أن يسير إلى اليمن، وينصرف عن العراق. قال: بلى، قال: فما حداك على الخروج عاجلاً؟ فقال: أتاني رسول الله (في المنام) بعد ما فارقتك، فقال: يا حسين أخرج فإن الله شاء أن يراك قتيلاً.

---

١ ـ الطبري ٧: ٣٠٦ الطبعة الأوربية. نقلنا من النص بمقدار الحاجة. وينقل الطبري مناماً آخر للإمام بمضمون قريب من هذا المضمون في ٧: ٣١٨.

فقال له ابن الحنفية: (إنّا لله وإنّا له راجعون)، فما معنى حملك هؤلاء النساء، وأنت تخرج على مثل هذه الحال؟ فقال له: إن الله قد شاء أن يراهن سبايا. وسلّم عليه ومضى[١].

عندما تفشل الحروب العسكرية، تنجح المقاومة المسلحة

إذن فالنتيجة التي ننتهي إليها في هذه الجولة السريعة: أن الإمام الحسين عليه السلام كان يفكّر في الإقدام على خروج مُسَلّح وتضحية مأساوية دامية، ولم يكن يفكّر في عمل عسكري على الإطلاق لمواجهة سلطان بني أمية، وهذان نحوان من الخروج كل منهما يحقّق هدفاً محدوداً، والخلط فيما بينهما يؤدي إلى الوقوع في أخطاء تأريخية كبيرة تشوّش علينا فهم الثورة الحسينية وغايتها ونتائجها.

والآن نتسائل عما كان يمكن أن يقصده الإمام من أهداف وغايات من وراء هذه التضحية المأساوية التي أقدم عليها الإمام عن علم ووعي.

---

١ ـ اللهوف للسيد ابن طاوس ٥٥ ط. أصفهان، ونفس المهموم: ١٦٤ ـ١٦٥ ط. قم ١٤٠٥ هـ ق وروى الفقرة الأخيرة المتعلقة بالنساء المسعودي في إثبات الوصية: ١٤١ ط. المطبعة الحيدرية في النجف.

عرض لأهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام

١. تحرير إرادة الأمة:

يستخدم الطغاة عادة سلاحين مؤثرين في وجه تحرّك الأمة وتمردها ورفضها للظلم.

وهما سلاح (الإرهاب) و(الإفساد) ومن خصائص هذين السلاحين أنهما يسلبان الناس الإرادة والقدرة على التحرّك والوعي والإدراك.

ومن أولى مستلزمات كل حركة (الوعي) و(الإرادة).

وعندما يفقد الإنسان بصيرته وإرادته، يفقد كل قدرة للتحرّك، ويستسلم للواقع الفاسد، ويتكيّف معه، وعند ذلك يستولي الطاغية وفئته على إرادة الأمة ووعيها ومصيرها وحتى على ذوقها وأخلاقها وأعرافها، ويتم مسخ شخصية الأمة بصورة كاملة في كل أبعادها ويتحكّم الطاغية في كل شيء من حياة الأمة، ولا تملك الأمة تجاه الطاغية غير الطاعة والانقياد والاستسلام.

وإلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم في علاقة فرعون بقومه وعلاقتهم بفرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾[1].

إن فرعون تمكن من أن يستخف قومه وأن يسلبهم وعيهم وإرادتهم

---

١ ـ الزخرف: ٥٤.

وقيمهم بالإرهاب والإفساد، وبذلك تمكّن من أن يمسخ شخصيتهم مسخاً كاملاً، ويستأصل من نفوسهم كل قدرة على الوعي والتفكير، فضلاً عن الإرادة والمقاومة والرفض. وبهذه الصورة إستطاع فرعون أن يكسب طاعتهم: (فأطاعوه).

وهذه الطريقة هي الطريقة المفضّلة لأئمة الضلال في اكتساب طاعة الناس وولائهم فإنّ هذا الولاء والطاعة يقوم عادة على حطام شخصية الأمة.

عند ذلك يعيش الحكّام من أئمة الضلال في راحة تامة من ناحية الرعيّة لا يقلقهم شيء من جانبهم، ويتحول الناس إلى قطيع من المتملقين والمتزلفين والراضخين والصابرين.

وينقلب في نفوسهم الوعي والإرادة إلى تحقيق ما يطلبه الحكّام، فيحبّون ما أحبّوا ويريدون ما أرادوا، وبهذه الصورة تتكوّن في الأمة طبقتان:

١ـ طبقة المستكبرين: وهم الحكّام من أئمة الضلال ومن يرتبط بهم ومن ينتفع منهم من «الملأ» الذين يستعلون على الناس، ويستكبرون في الأرض، ويتحكّمون في حياة الناس، وإرادتهم، ومصيرهم، وحتى أذواقهم وأخلاقهم، ويضعون أنفسهم في مركز السيادة والحاكمية من حياة الإنسان من دون الله، ويستعلون على الناس ويفسدون في الأرض.. وهؤلاء هم الطاغوت[1] الذين يتجاوزون حدود العبودية والطاعة لله تعالى إلى الاستكبار والسيادة والحاكمية من دون الله والإفساد في حياة الناس.

١ ـ يقول الراغب في المفردات: الطاغوت عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله ويستعمل في الواحد والجمع: قال: ﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾ ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت﴾ ﴿أولياؤهم الطاغوت﴾ ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ مفردات الراغب: ٣٠٤ـ٣٠٥.

٢ـ وطبقة المستضعفين: الذين يستخفهم الطاغوت (يسلبهم ثقلهم في موازين الإنسانية والحياة الإجتماعية) ويستضعفهم (يسلبهم القدرات والإمكانات والكفاءات التي منحهم الله تعالى)، وتتحول هذه الطبقة الواسعة إلى طبقة تابعة، ومنقادة، ومستسلمة للأمر الواقع، تفقد خصائصها وقيمها الإنسانية كافة، وتتحول إلى أداة طيّعة لتنفيذ كل ما يمليه عليها الطاغوت.

وأول ما تفقد هذه الطبقة وعيها وإرادتها، ومن ثم تفقد كل شيء في حياتها مما منحها الله تعالى من القيم والكفاءات، وآخر ما تفقد ضميرها ووجدانها فإذا بلغت هذا الحد صدق فيها قوله تعالى.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[1].

إن الطاغوت يسلبهم (الوعي) و(الإرادة) و(الضمير) عن طريق (الإرهاب) و(الإفساد)، ولإنقاذهم من قبضة الطاغوت وأسره لابدّ من إعادة (الوعي) و(الإرادة) والضمير إليهم قبل كل شيء حتى ينظروا إلى الأمور والأشخاص بوعيهم الذي أعطاهم الله، لا من خلال ما يحبّه الطاغوت ويكرهه، وحتى يتمكّنوا من أن يأخذوا القرار لأنفسهم بأنفسهم، لا أن يتخذ الطاغوت القرار بالنيابة عنهم ولهم.

ولقد واجه الحسين عليه السلام واقعاً اجتماعياً وسياسياً سيئاً من مثل هذا الواقع، تمكن فيه بنو أمية من مسخ شخصية الأمة وسلب قيمها وضميرها وقدراتها ووعيها وإرادتها. وأسوأ ما كان في هذه الانتكاسة أن القدرة والقوة التي أكسبهم الإسلام تحوّلت إلى قدرة عسكرية وسياسية في الاتجاه المعاكس للإسلام وتحوّل السيف الذي سلّحهم به رسول الله لقتال أعداء الإسلام،

---

١ ـ البقرة: ٧.

إلى أداة لمحاربة أبناء رسول الله وأوليائهم دون أعدائهم.

وكان هذا هو جوهر الانتكاسة الكبيرة التي تمت على يد بني أمية في تاريخ هذه الأمة.

وإلى هذا المعنى يشير الإمام الحسين عليه السلام في خطبته الثانية يوم عاشوراء أمام جمهور جيش ابن سعد:

(سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها[1] على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم)[2].

فكيف جرت - يا ترى - هذه الانتكاسة الخطيرة في نفوس هؤلاء الناس، حتى تحولت سيوفهم التي مكّنهم الإسلام منها لمحاربة البغاة الظالمين... تحولت إلى وجه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله الزكي الطاهر الأمين، ولصالح سلطان ابن معاوية الفاسق، الذي كان لا يشك في فجوره وفسقه وشربه وفحشه أحد من المسلمين؟

وكيف جرت - يا ترى - هذه الانتكاسة الخطيرة في حياة الناس، حتى تخالفت قلوب هؤلاء الناس وسيوفهم؟ كما قال الفرزدق الشاعر رحمه الله للحسين عليه السلام: (إن قلوبهم معك وسيوفهم عليك).. ثم توافقت قلوبهم وسيوفهم على ابن رسول الله وأهل بيته وأصحابه المقيمين للصلاة والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر؟

وكيف تحوّلت هذه القوة التي منحهم الإسلام إيّاها، والمركزية

---

١ - أي: أوقدتم علينا ناراً كنا قد اقتدحناها واستخرجناها نحن على عدوّنا وعدوّكم.

٢ - مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرّم ٢٦٢ ط. النجف ١٣٧٦.

والسيادة والموقع الممتاز الذي اكتسبوه بالإسلام إلى قوة ضاربة لصالح أعدائهم ضد أوليائهم؟

لست أدري ماذا حلّ بهذه الأمة من سوء حتى تحوّلت هذه القوة والمركزية، كلها لصالح أعدائهم على أوليائهم، وعاد من جديد أولئك الذين كانوا يحاربون هذا الدين إلى مراكزهم القيادية في المجتمع، مستفيدين من كل هذه القوة، والمركزية والنفوذ، والسلطان، الذي جاء به الإسلام، وأصبح دعاة هذا الدين وقادته، الذين حملوا هذا الدين في موضع الاتّهام والمحاربة من قبل الأمة، تقاتلهم بالسيف الذي وضعه الإسلام في أيديهم.

وما أروع تعبير الإمام وأصدقه بهذا الصدد (سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم).

وذلك كله من غير أن ينقلب هؤلاء الذين كانوا يحاربون الإسلام في الأمس القريب، عن مواقعهم العدائية من الإسلام ومن هذه الأمة. فلا زالوا يحملون بين جنبيهم روح الجاهلية، ويمارسون أخلاقها وعاداتها، ويعملون على استئصال القيم الإسلامية في هذه الأمة الناشئة، ونشر الظلم والرعب والفساد (بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم).

وكانت هذه الأمة في جاهليتها ضعيفة، مستضعفة، خاملة الذكر، منسيّة، لا تكاد تجد في حياتها حركة أو عزماً أو قوة على المواجهة، فاستثار الإسلام كوامن الحركة والقوة والعزم والانطلاق والبناء في نفوس هؤلاء الناس، واستخرج الإسلام كنوز القدرة والحركة والثورة في نفوسهم.

وتحوّلت بسبب ذلك إلى حركة حضارية واسعة على وجه الأرض وفي التاريخ، تحرق عروش الجبابرة والطغاة، ولكن ما أسرع ما انتكست هذه

الأمـة، فتحوّلـت هـذه الحركة، والقـوة، والانطلاقـة التـي اسـتثارها الإسلام باتّجاه عكسي تماماً، للقضاء على حَمَلة هذا الدين ودعاته وأوليائه، ولصالح الطبقة المترفة التي كانت تحارب هذا الدين بالأمس القريب، وتحمل حتى اليوم، معها إلى الإسلام رواسب الجاهلية، وأفكارها وعاداتها وسلوكها.

(وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوكم).

ولا نعرف فيما يصيب الأمم من المآسي، مأساة آلم وأفجع من أن ينقلب الإنسان على نفسه، فيؤثر ضرّه على نفعه، وفساده على صلاحه، ويحارب أولياءه ويتحبّب إلى أعدائه.

ولقد أصاب المسلمين في هذه الفترة مأساة من مثل هذه المأساة.

والإمام يعبر عن ألمه العميق بهذه الكلمة المشجية:

(ويحكم أهؤلاء تعضدون، وعنّا تتخاذلون)؟

إننا لا نشك أن الأمة قد تعرّضت في هذه الفترة لردة حضارية عجيبة، يعبّر عنها القرآن بهذا التعبير العجيب: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[1].

وآية هذه الردّة الحضارية التي تنتكس فيها الأمة هو أن يتحوّل الأولياء في حياة الأمة إلى موضع الأعداء، ويتحوّل الأعداء إلى موضع الأولياء.

وعندما يتبادل هذان القطبان: (الولاية والبراءة) في حياة الناس مواضعهما، ويأخذ كل منهما موضع الآخر، فإن هذه الأمة تواجه أمراً يختلف عن أي أمر آخر، وهذا الأمر هو الانقلاب الحضاري العكسي (أو الردّة الحضارية).

---

١ ـ آل عمران: ١٤٤.

والأمة في هذه الردة تتنكّر لنفسها، وتنقلب عمّا هي عليه إلى شيء آخر. فإن هوية الأمة وشخصيتها بالولاء والبراءة، وعندما يتحول الولاء إلى موضع البراءة والبراءة إلى موضع الولاء، فإن هذه الأمة تواجه حالة انتكاسة خطيرة.

وهذا هو ما يشير إليه الإمام في خطابه لجيش بني أمية يوم عاشوراء: (فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم).

وهذه هي الحالة التي يتنكّر فيها الإنسان لنفسه ويعادي نفسه. فإن الإنسان عندما يتودّد إلى عدوّه، ويساعده ويعينه فإنما يعينه على نفسه.

والتعبير القرآني بهذا الصدد دقيق ومعبّر:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[1].

إنّ الذي ينسى الله يُنسيه الله نفسه، والذي يتنكّر لله ينكّر الله نفسه عليه.

والإنسان في هذه الحالة، من السقوط والتردّي، إنما يخسر نفسه، وشر أنواع الخسارة أن يخسر الإنسان نفسه. فإذا خسر الإنسان نفسه يفقد كل رأس ماله، ولا يبقى له شيء بعد ذلك، يرجو منه خيراً.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[2].

ويقول عز شأنه: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[3].

---

١ ـ الحشر: ١٩.

٢ ـ الأعراف: ٩.

٣ ـ الزمر: ١٥.

وخسارة النفس تختلف عن أيّة خسارة أخرى، فإن الربح والخسارة هو الزيادة والنقصان فيما يملك الإنسان مع بقاء المحور: (الذات). فكلما يكتسب الإنسان من فائدة مادية أو معنوية يدخل في حساب (الربح)، وكلما يفقد الإنسان من المواهب المادية والمعنوية التي آتاه الله تعالى يدخل في حساب (الخسارة).

ولكن الإنسان في هذه الأحوال جميعاً يحتفظ بـ(نفسه) التي هي المحور التي تدور حوله الأرباح والخسائر.

فإذا خسر الإنسان هذا المحور أي: خسر نفسه، لا ما يملك من مواهب مادية ومعنوية، وسقط هذا المحور كان هو الخسران الأكبر، الذي لا تشبهه خسارة أخرى.

وإلى هذا المعنى من الخسارة يشير القرآن الكريم بكلمة ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ في أكثر من آية[١] ونلتقي في القرآن تعبيراً آخر عن هؤلاء الناس الذين يخسرون أنفسهم في الحياة الدنيا وهو (ظلم النفس).

يقول تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٢].

والذين يعاقبهم الله بظلمهم، لم يظلمهم الله، وإنما كانوا هم الذين أقدموا على ظلم أنفسهم: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٣].

وأخيراً إن مآل الخير والشر هو النفس وإنّ الذي يهتدي فإنما يهتدي لنفسه، والذي يضل فإنما يضل على نفسه.

---

١ ـ لاحظ سورة الأنعام: ١٢، والأعراف: ٩ و ٥٣، وهود: ٢١، والمؤمنون: ١٠٣، والزمر: ١٥، وآيات أخرى من مثل هذه الآيات.

٢ ـ البقرة: ٥٧.

٣ ـ النحل: ١١٨.

﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[١].

أي يستقر الضلال والغيّ على نفسه، هؤلاء يضلّون على أنفسهم، ويضلّ سعيهم وعملهم وتحركهم، ويكسبون الضلال والهلاك لأنفسهم.

والخسارة والضياع الكبير: أن يضل الإنسان على نفسه، ويضل سعيه وعمله: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٢].

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[٣].

فإن الإنسان إذا تنكّر لنفسه وظلمها وعاداها، خسرها.

وعندما يخسر الإنسان نفسه يضل سعيه وعمله، ويذهب هباءً كل جهده وعمله.

وإلى هذه الخسارة يشير الإمام الحسين عليه السلام في خطابه الذي وجّهه إلى أصحاب الحُر في منزل البيضة:

«فأنا الحسين بن علي، وأمي فاطمة بنت رسول الله، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، ولكم فيَّ أسوة.. وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فحظّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه[٤]، وسيغني الله عنكم[٥]».

إن هذه الظاهرة من أغرب ما يلتقيه الإنسان من ظواهر غريبة في حياته على ظهر الأرض.

---

١ ـ يونس: ١٠٨، والإسراء: ١٥.

٢ ـ الكهف: ١٠٤.

٣ ـ محمد: ٨.

٤ ـ يشير الإمام إلى سنّة الله تعالى في المحق.

٥ ـ وفي هذه الفقرة يشير إلى سنّة «الاستبدال» بعد «المحق»، والنص في تاريخ الطبري ٦: ٢٢٩.

إن الإنسان بهذا التحوّل الذي يشرح خطواته ومراحله القرآن الكريم يظلم نفسه، ويتنكّر لها، فيخسرها، ويعود شيئاً آخر يختلف اختلافاً كلياً عما كان عليه.. يمشي ويتحرّك بين الناس، ولكن من دون إرادة ووعي، بل ما يُملى عليه ويراد منه.

يتحرك، لا بإرادته، وإنما بإرادة الطاغوت الذي يستعبده ويحرّكه، لا بالاتجاه الذي ينفعه ويخدمه، وإنما بالاتجاه الذي يخدم عدوّه.

هؤلاء هم الذين تنتكس قلوبهم ويختم الله عليها، وصدق الله تعالى:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾[1].

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[2].

ولن تعود لهم إرادة، ووعي، وفهم، ونور يتحركون به في الناس إلا أن يشاء الله.

وعندما يفقد الإنسان الوعي، والنور، والإرادة، والعزم، والضمير في حياته ينقلب إلى أداة طيّعة وسهلة بيد الطاغوت يستخدمه في تحقيق أطماعه بالشكل الذي يريد، ويوجّهه إلى ضرب أوليائه بأعدائه، وهذا التحول العجيب في حياة الناس هو الذي حدث في هذه الفترة من التاريخ على يد حكّام بني أمية في هذه الأمة وواجهه الحسين عليه السلام ويتحدث عنه بمرارة وألم.

لقد جرى ـ بالتأكيد ـ تحوّل خطير في نفوس هؤلاء الناس، حتى عاد أسفلهم أعلاهم، وأعلاهم أسفلهم، في انتكاسة رهيبة، يقل نظيرها في التاريخ، حتى يخرج ثلاثون ألفاً منهم أو أكثر من الكوفة عاصمة أمير

---

١ ـ الأنعام: ١١٠.

٢ ـ البقرة: ٧.

المؤمنين لمحاربة سيد شباب أهل الجنة وابن رسول الله ﷺ ونجل أمير المؤمنين عليه السلام، ولا يخرج مع الحسين عليه السلام لمقاومة يزيد بن معاوية غير بضع وسبعين نفر من أصحابه وأهل بيته.

والتفسير الوحيد الذي يستطيع أن يفسر لنا سر هذه الانتكاسة في شخصية الأمة ـ أو طائفة كبيرة من الأمة على أقل التقادير ـ يكمن في الجهد الواسع الذي بذله بنو أمية في إرهاب الناس وإفسادهم لغرض الاستيلاء على المسلمين، ومسخ الهوية الإسلامية، حتى عادت ضمائرهم وإدراكاتهم وإراداتهم في قبضة بني أمية، يتحكّمون فيها بالطريقة التي تعجبهم، وتخدم أهدافهم.

وكان لابدّ من هزة قوية عنيفة لضمير الأمة تعيد إليها وعيها، وإرادتها، وقيمها، وتشعرها بعمق الكارثة التي حلّت بها، وتبعث الندم في نفوسهم، حتى لو لم تكن هذه الهزّة تنفع هذا الجيل، فقد كانت تعتبر ضرورة من ضرورات المرحلة لإنقاذ الجيل الذي يأتي من بعد هذا الجيل، لئلا يسري إليه هذا الانحطاط الحضاري الذي لزم هذا الجيل.

وقد أحدثت المقاومة المسلحة التي قادها الإمام عليه السلام وتضحيته المأساوية هزة عميقة في وجدان الأُمّة، وكانت بحكم الصعقة التي تتطلبها ضرورات الساحة السياسية والحالة الاجتماعية للناس يومئذ.

لقد نبّهت شهادة الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، بالطريقة المفجعة التي تمّت بها، ضمائر المسلمين، ومكّنتهم من أن يستعيدوا وعيهم وإرادتهم من جديد، فيكفّروا ويتوبوا عن تخليهم عن نصرة ابن بنت رسول الله ﷺ.

لقد شعروا (يومئذ) بالكابوس الرهيب الذي كان يلقي بثقله على

صدورهم، وقلوبهم، وعقولهم.

فقد هزّت تضحية الإمام الحسين ضمائر المسلمين، هزة عنيفة، وأشعرتهم بفداحة الإثم، وضخامة الجريمة، وعمق الردّة والانتكاسة في نفوسهم، وحياتهم... فكانت هذه التضحية المأساوية مبدأ ومنطلقاً لحركات كثيرة في التاريخ الإسلامي، ومصدراً كبيراً للتحريك في التاريخ الإسلامي... وهذه هي الغاية في ثورة الإمام الحسين عليه السلام.

٢. سلب الشرعية من النظام:

رغم فداحة الخسائر التي لحقت بالمسلمين، والانحراف والانحطاط الذي لزم المسلمين في هذه الفترة من حكم بني أمية.. فقد كان هناك خطر أكبر بكثير من كل ذلك يلحق الإسلام مباشرة وليس المسلمين فقط، وهو أن ينسحب هذا الانحراف على الإسلام نفسه، ويتعرض الإسلام لما تعرض له المسلمون من تحريف.

وذلك أن هذا الانحراف كان ينحدر من موقع الخلافة الإسلامية التي كانت تمتلك في نفوس المسلمين رصيداً كبيراً من الشرعية والقدسية، وقد كان بنو أمية يعتمدون كثيراً عنصر الشرعية في موقعهم السياسي والاجتماعي، وكانوا يوحون إلى الناس بطريق أو آخر أنّ موقع الخلافة أقوى من موقع الرسالة فيقول قائلهم: (إن خليفة أحدكم أفضل من رسوله).

وكانوا يرون في هذا الموقع أداةً لتنفيذ طموحاتهم ورغباتهم، بأيسر الطرق، وأسهلها.. فلذلك دأب معاوية على إحكام هذا الموقع الشرعي لنفسه ولابنه يزيد من بعده.

وكان هذا الموقع الشرعي الذي حرص عليه حكّام بني أمية من أكبر الأخطار التي تلحق الإسلام من جانب حكومة بني أمية. فقد كان الانحراف ينحدر إلى الناس من قصور الخلفاء في إطار من الشرعية.

وكان هناك في قصور الخلفاء من يبرّر ويوجّه هذا الانحراف، ويعطيه الصبغة الشرعية، من علماء البلاط... وبالتالي كان هذا الانحراف ينعكس وينسحب على الإسلام، ويفقد الإسلام أصالته ونقاءه على أوسع صعيد وهو وسط الأمة العريض.

وقد حرص الإمام عليه السلام في حركته على كسر هذا الإطار الشرعي الذي كان يحتمي به حكام بني أمية، وسلب صفة الشرعية من حكومة بني أمية، وتجريدها عن القدسية والشرعية التي كان يحرص عليها بنو أمية كل الحرص.. وبالتالي تفويت الفرصة على الحكم الأموي في تحريف الإسلام.

وكان الإمام يجهر بهذه الحقيقة إجهاراً ويعلن برأيه في يزيد، وعدم أهليّته للخلافة، وينال منه كلّما واتته فرصة.

وقد أعلن رأيه هذا في يزيد عندما دعاه الوليد بن عتبة للبيعة، ومروان حاضر، قال عليه السلام له بعد كلام طويل، وهو يريد أن يسمع مروان رأيه في يزيد وموقفه من البيعة:

(أيها الأمير إنّا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، ومهبط الرحمة، بنا فتح الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب خمر، قاتل النفس، معلن بالفسق. فمثلي لا يبايع مثله)[١].

وقد كان لخروج الإمام على يزيد، ومحاربته لجيش ابن زياد بعد رفض

---

١ ـ مقتل الحسين للخوارزمي (المتوفى ٥٦٨ هـ) تحقيق الشيخ محمد السماوي ١: ١٨٤.

البيعة ليزيد، واستشهاده هو وأهل بيته وأصحابه بتلك الصورة المفجعة على يد جيش الخلافة.. كان لذلك كله أثر كبير في إسقاط شرعية الخلافة، وتجريدها عنها.

لقد أثار استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، بالصورة المفجعة التي حدثت في كربلاء مشاعر المسلمين جميعاً في جيل القتلة، وفي الأجيال التي تعقّبهم، على صعيد واسع، واستشعروا جسامة الجريمة وبشاعتها في وجدانهم، وضمائرهم، ونقموا على يزيد ومن لحقه من خلفاء بني أمية الذين خلفوا يزيد على السلطان والحكم. وسقطت القيمة الشرعية للخلافة، ولم تعد الخلافة موقعاً شرعياً يمتلك رصيداً من الشرعية والقدسية في نفوس المسلمين، كما كان من قبل.

ولا يمكن أن يشك أحد في أنّ هذه الجريمة التي اقترفها جهاز الخلافة الأموية في عهد يزيد في العراق تركت أثراً عميقاً في ضمائر المسلمين جميعاً (إن لم يكن في نفس الجيل ففي الجيل الذي تعقّب هذا الجيل مباشرة)، وأسقطت مكانة الخلافة الأموية في نفوس المسلمين، وعادت الخلافة الأموية موقعاً سلطوياً يمتلكه الأقوى، كما في سائر المواقع التي يمتلكها أصحاب السلطة في دنيا الناس.

وعلاقة الناس بهذا الموقع لم تعد، كما كانت علاقة دينية خالصة نابعة من إيمان الناس بشرعيّة هذا الموقع.

ولذلك فلم يعد للانحرافات التي يرتكبها جهاز الخلافة الأموية تأثير تحريفي كبير على الإسلام.

وسلم الإسلام من تحريفات الحكّام بنسبة كبيرة، وأصبح المسلمون بعد هذا التاريخ يرجعون في أمور دينهم إلى طبقة أخرى غير طبقة الحكّام الذين يرجع إليهم الناس في أمور دنياهم بحكم الضرورة والاضطرار.

ومن هذا التاريخ بدأ يتكوّن في المجتمع خط آخر غير خط الخلافة وهو خط الفقهاء والعلماء الذين يضع المسلمون ثقتهم الدينية فيهم... وبقدر ما كان يبتعد هؤلاء الفقهاء والعلماء عن الحكّام والسلاطين كانت تزداد ثقة المسلمين بهم.

والذي يواكب قراءة التاريخ الإسلامي يجد فارقاً نوعياً واضحاً في موقع الخلافة قبل موقعة الطف وبعدها... وجوهر هذا الفرق هو افتقاد الخلافة بعد معركة كربلاء للصبغة الشرعية والإطار الديني الذي كانت تمتلكه من قبل.

وعلى هذا النهج نستطيع أن نفهم الفارق النوعي بين مسؤولية الإمام الحسن عليه السلام في الفترة التي تولى فيها الإمام الحسن الإمام عن مسؤولية أخيه الإمام الحسين عليه السلام في الفترة التي تولى فيها الإمامة في قتال بني أمية.

فلو كان الإمام الحسن يواصل قتال معاوية، بعد أن خذله جيشه، وكانت الحرب تنتهي إلى النتيجة التي لم يكن يشك الإمام فيها من هزيمة جيشه وانتصار معاوية... لوجد معاوية الفرصة الذهبية التي كان يطلبها في القيام بتصفية واسعة في صفوف الشيعة وإنهاء البقية الباقية من هذا الخط الإسلامي النقي الذي استعصى على عوامل الانحراف والخضوع لسلطان بني أمية.

أمّا قيام الحسين عليه السلام فقد كان له أثر معكوس تماماً وقد أثار سخط المسلمين ضد سلطان بني أمية ودفع الناس للخروج على سلطان بني أمية

ووسع دائرة المعارضة.

وذلك لاختلاف طبيعة ظروف الإمام الحسن عن الإمام الحسين عليهما السلام، واختلاف نوع وطبيعة قتال الإمام الحسن عن قتال الإمام الحسين.

فقد كان الإمام الحسن عليه السلام في مواجهة عسكرية مع معاوية، وقد تخلّى عنه أكثر جيشه، ولم يبق معه إلا شيعته الذين كانوا يعدون جزءاً ضئيلاً من جيش العراق وكانت نتيجة هذا القتال هزيمة عسكرية، تتيح الفرصة لمعاوية للقضاء على البقية الباقية من شيعة الإمام.

بينما كانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام وقيامه (خروجاً) على يزيد و(مقاومة مسلحة) تتبعها تضحية مأساوية فجيعة نادرة في تاريخ الإسلام، ولم تكن (حربا نظامية عسكرية) تستهدف إسقاط النظام.

ووعي هذه الحقيقة ضروري في فهم ثورة الحسين عليه السلام. فلم يكن يرى الحسين عليه السلام أن بإمكان أنصاره من العراق والحجاز أن يقاوموا جيش بني أمية، ولا أن يصفو له العراق، ولا أن يقاوم أهل العراق إرهاب بني أمية وإغراءهم، فما كان ليصفو في أحسن الأحوال للإمام من العراق غير قلّة قليلة من شيعته يخرج بهم على يزيد، وكان الإمام عليه السلام يعلم بهذه الحقيقة ويفهمها جيدا.

إذن، لم يكن الإمام يطلب فتحاً عسكرياً، وإنما كان يطلب في خروجه تحريك ضمائر المسلمين وإثارة الضمائر والنفوس والعواطف والعقول بفعل المأساة المفجعة التي واجهها الحسين عليه السلام على يد جيش بني أمية في كربلاء. وكانت غاية الإمام الحسين عليه السلام في هذه المأساة الدامية والمفجعة هي تحريك المسلمين ضد سلطان بني أمية وإسقاط شرعية جهاز الخلافة

الأموية وعزلهم سياسياً واجتماعياً في أوساط العالم الإسلامي، سِيّما في الحجاز والعراق اللذين كانا يعتبران حينذاك قلب العالم الإسلامي، وتجريدهم من الشرعية التي كانوا يحرصون عليها كثيراً.

كل ذلك تمّ نتيجة اختلاف موقع الإمامين وظروفهما واختلاف ظرف معاوية من يزيد.

فلم يكن معاوية قد أسقط الأقنعة كلها عن وجهه كما ألقى يزيد، ولم يكن معاوية قد كشف عن سرّه ونيته، وأسفر عن وجهه كما فعل يزيد.

وبالتالي فقد كان تحريك المسلمين ضد سلطان بني أمية ومحاولة النيل من شرعية الخلافة الأموية في عهد يزيد أمراً ممكناً وبالطريقة التي أقدم عليها الحسين عليه السلام، بينما لم تكن هذه الظروف متوفّرة للإمام الحسن عليه السلام في الصورة التي توفّرت في عهد يزيد.

وكان توفيق الإمام الحسين عليه السلام في تحقيق هذه الغايات جميعاً توفيقاً عظيماً من غير ريب.

ولو انعكس الأمر، وكان الحسن عليه السلام في موضع الحسين عليه السلام لاختلف الأمر، وأقدم الحسن عليه السلام على ما أقدم عليه الحسين عليه السلام تماماً، ولكن الله تعالى شاء أن يجعل السبط الأكبر عليه السلام في موقع يختلف عن الموقع الذي وقع فيه أخوه الحسين عليه السلام، وقد كانت مأساة كربلاء فتحاً كبيراً، حققه الله تعالى للسبط الشهيد في أحرج فترة من فترات تاريخ الإسلام.

وهذا هو الفتح والغلبة الذي يشير إليه الإمام زين العابدين عليه السلام في جواب السائل المفجوع بمصرع الحسين عليه السلام في كربلاء، الذي سأل علي بن الحسين عليه السلام في الشام.

من الغالب، يا علي بن الحسين؟

فقال له عليه السلام: «**إذا دخل وقت الصلاة وأذن المؤذن عرفت من الغالب**»[١].

وهذه هي النتيجة (السياسية) لقيام الإمام عليه السلام ومن خلال هاتين النتيجتين اللتين تمخّضتا عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام، وهما: المكاسب (الحركية) و(السياسية)، نستطيع أن نعي الدور التاريخي الكبير لثورة الإمام عليه السلام في التاريخ الإسلامي.

وأخيراً نتوقف عند هذا الحد من الحديث عن قضية الوارث العظيم لخط الأنبياء، على أن نواصل البحث في الأجزاء اللاحقة إن شاء الله تعالى.

* * *

١ ـ أمالي الطوسي: ٢٩٠ ط. النجف.

المصادر

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ الاحتجاج للطبرسي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف: ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.

٣ـ الأخبار الطوال للدينوري.

٤ـ الاختصاص للمفيد، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف: ١٣٩٠هـ، ١٩٧١ م.

٥ـ إرشاد الساري للقسطلاني، دار إحياء التراث العربي، لبنان.

٦ـ الإرشاد للمفيد، منشورات بصيرتي، قم المقدسة.

٧ـ الاستيعاب، لابن عبد البر القرطبي المالكي، بهامش الإصابة في تمييز الصحابة، مطبعة السعادة، مصر ـ ١٣٢٨ هـ ـ الطبعة الأولى.

٨ـ أُسد الغابة لابن الأثير.

٩ـ الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة لملا علي القاري دار الأمانة، مؤسسة الرسالة.

١٠ـ الإصابة في تمييز الصحابة. لابن حجر العسقلاني مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٨ هـ ـ الطبعة الأولى.

١١ـ إعلام الورى بأعلام الهدى، للطبرسي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، ١٢٢٨هـ مطبعة الحيدري.

١٢ـ الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي، لبنان.

١٣ـ الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر،

١٣٨٨ هـ، ١٩٦٩ م، الطبعة الأخيرة.

١٤ـ أنساب الأشراف، للبلاذري، دار التعارف، لبنان، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م ـ الطبعة الأولى.

١٥ـ بحار الأنوار، للمجلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م ـ الطبعة الثالثة.

١٦ـ البداية والنهاية، لابن كثير، دار الفكر بيروت.

١٧ـ التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ.

١٨ـ تاريخ ابن عساكر، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م.

١٩ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠ـ تاريخ الخلفاء، للسيوطي، دار الفكر بيروت.

٢١ـ تاريخ الرسل والملوك، للطبري، انتشارات جهان إيران، طبعة ليدن.

٢٢ـ تاريخ اليعقوبي، لأبي يعقوب الأخباري، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف ـ ١٣٩٤هـ ١٩٧٤ م ـ الطبعة الرابعة.

٢٣ـ تذكرة الخواص، لسبط بن الجوزي، المطبعة العلمية النجف الأشرف ـ ١٣٦٩ هـ أو طبعة مؤسسة أهل البيت عليهم السلام بيروت ـ ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٢٤ـ الترغيب والترهيب، للقرطبي، دار إحياء التراث العربي، ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٨مـ الطبعة الثالثة.

٢٥ـ تفسير الصافي، للملا محسن فيض الكاشاني، انتشارات كتاب فروشي محمودي.

٢٦ـ تفسير القمي، لعلي بن ابراهيم القمي، بيروت ـ ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٨ـ الطبعة الثانية.

٢٧ـ تفسير الكشاف، للزمخشري، نشرادب حوزة ـ إيران.

٢٨ـ تفسير الميزان، للطباطبائي.

٢٩ـ تفسير نور الثقلين، للحويزي، دار الكتب العلمية، طهران.

٣٠ـ التهذيب، لابن عساكر.

٣١ـ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، دار صادر، بيروت، دائرة المعارف النظامية في الهند ١٣٢٥ هـ.

٣٢ـ ثورة الإمام الحسين عليه السلام، لمحمد مهدي شمس الدين، مطبعة نمونة، قم المقدسة.

٣٣ـ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٧ هـ، ١٩٦٧م ـ الطبعة الثالثة.

٣٤ـ الجامع الصحيح: للترمذي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧م، الطبعة الأولى.

٣٥ـ الجرح والتعديل، للحافظ الرازي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٢٧١ هـ، ١٩٥٢م.

٣٦ـ حلية الأولياء، للحافظ أبو نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧ هـ، ١٩٦٧م، الطبعة الثانية.

٣٧ـ حياة الإمام الحسين عليه السلام، لباقر شريف القرشي، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٣٩٤ هـ، ١٩٧٤م ـ الطبعة الأولى.

٣٨ـ حياة الإمام موسى بن جعفر، لباقر شريف القرشي.

٣٩ـ حياة الحيوان الكبرى، لكمال الدين الدميري، المكتبة الإسلامية.

٤٠ـ سمو المعنى في سمو الذات، لعبد الله العلائلي.

٤١ـ سنن ابن ماجه، لابن ماجه، دار إحياء الكتب العربية، مصر ١٣٧٢هـ ١٩٥٢م.

٤٢ـ سنن النسائي، للنسائي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٣ـ السيرة النبوية، لابن هشام، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٥٥ هـ ، ١٩٣٦م.

٤٤ـ السيرة الحلبية، للعلي الحلبي الشافعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الناشر المكتبة الإسلامية.

٤٥ـ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، دار إحياء الكتب العربية، مصر ١٣٧٨ هـ ، ١٩٥٩م ـ الطبعة الأولى.

٤٦ـ الشعر والشعراء. لابن قتيبة، دار الثقافة، بيروت.

٤٧ـ صحيح البخاري، للبخاري، ١٢٨٦هـ

٤٨ـ صحيح مسلم. لمسلم النيسابوري، دار الفكر بيروت.

٤٩ـ صلح الإمام الحسن عليه السلام، لراضي آل ياسين مطابع علاء الدين، بيروت ـ ١٣٩٨هـ ، ١٩٧٨م. الطبعة الثالثة.

٥٠ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد الواقدي، طبعة ليدن بمطبعة بريل ـ ١٤٣٣ هـ ، منشورات مؤسسة النصر، بيروت.

٥١ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام. لسيد قطب.

٥٢ـ العقد الفريد، لمحمد بن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٣م، الطبعة الأولى.

٥٣ـ علل الشرايع، للشيخ الصدوق المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ـ ١٣٨٥هـ ، ١٩٦٦م.

٥٤ـ علي ومناوئوه. للدكتور نوري جعفر مطبوعات النجاح، القاهرة، دار المعلم للطباعة، ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦مـ الطبعة الرابعة.

٥٥ـ الغارات، لأبي إسحاق الكوفي مطبعة بهمن، طهران.

٥٦ـ الغدير، لعبد الحسين أحمد الأميني النجفي، مؤسسة الكتب الإسلامية، مطبعة الحيدري، طهران ـ ١٣٧٢ هـ ـ الطبعة الثانية.

٥٧ـ فتح الباري، للعسقلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية.

٥٨ـ الفتنة الكبرى، للدكتور طه حسين.

٥٩ـ الفهرست لابن النديم.

٦٠ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار صادر بيروت، ١٣٨٥ هـ، ١٩٦٥م.

٦١ـ كشف الغمة في معرفة الأئمة. لأبي الفتح الأربلي، دار الكتاب الإسلامي، بيروت.

٦٢ـ كنز العمال، للمتقي الهندي، مكتبة التراث الإسلامي، حلب.

٦٣ـ اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة. للسيوطي، دار المعرفة بيروت، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م، الطبعة الثانية.

٦٤ـ اللهوف في قتلى الطفوف، للسيد ابن طاووس، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٦٩ هـ، ١٩٥٠م.

٦٥ـ مجمع البيان، للطبرسي، مطبعة العرفان صيدا، ١٣٣٣ هـ

٦٦ـ مجمع الزوائد، ومنبع الفوائد، للحافظ الهيثمي، دار الكتاب بيروت، ١٩٦٧م، الطبعة الثانية.

٦٧ـ مرآة الجنان، لأبي محمد اليافعي اليمني المكي مؤسسة الأعلمي،

بيروت، ١٣٩٠ هـ، ١٩٧٠م، الطبعة الثانية.

٦٨ـ مروج الذهب، للمسعودي، فهارس يوسف داغر، منشورات دار الهجرة، قم المقدسة، ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤م الطبعة الثانية.

٦٩ـ المستدرك، للحاكم النيسابوري دار الفكر بيروت.

٧٠ـ مسند أحمد بن حنبل، لأحمد بن حنبل.

٧١ـ مع الحسين في نهضته، لأسد حيدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٣٩٩ الطبعة الثالثة.

٧٢ـ المغازي، للواقدي.

٧٣ـ مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.

٧٤ـ مقتل الإمام الحسين عليه السلام لأخطب خوارزم، تحقيق الشيخ محمد السماوي.

٧٥ـ مقتل الإمام الحسين عليه السلام لعبد الرزاق المقرم، دار الكتب الإسلامية، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٦م.

٧٦ـ لواعج الأشجان في مقتل الإمام الحسين عليه السلام ، للسيد محسن الأمين، مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٣١هـ، منشورات بصيرتي، قم المقدسة.

٧٧ـ معالم المدرستين، للسيد مرتضى العسكري، مؤسسة البعثة طهران، ١٤٠٦هـ الطبعة الثانية.

٧٨ـ الملاحم والفتن، لرضي الدين ابن طاووس، مطبعة أمير، قم المقدسة، ١٣٧٠ هـ، ١٩١٢م الطبعة الأولى.

٧٩ـ مناقب الإمام علي بن أبي طالب، لابن المغازلي، المكتبة الإسلامية،

طهران، المطبعة الإسلامية، ١٣٩٤ هـ

٨٠ـ منتخب كنز العمال، لعلي المتقي الهندي، منشورات مكتبة التراث الإسلامي ١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨م.

٨١ـ الموفقيات، للزبير بن بكار.

٨٢ـ النصائح الكافية، لسيد محمد بن عقيل اليماني الصنعائي.

٨٣ـ نهج السعادة، لمحمد باقر المحمودي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٣٨٥ هـ، ١٩٦٥م الطبعة الأولى.

٨٤ـ الوثائق الرسمية لثورة الإمام الحسين عليه السلام. للسيد عبد الكريم القزويني، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية.

الفهرس

الفصل الرابع: الخلاعة والاستهتار والمجون في قصور بني أمية

الفصل الخامس: السياسة الأموية

الفصل السادس: انتحال الحديث على رسول الله ﷺ

الفصل السابع: سياسة بني أمية تجاه أهل البيت عليهم السلام

الفصل الثامن: سياسة بني أمية تجاه الحرمين الشريفين

الفصل التاسع: نموذج للسياسة الأُموية تجاه الحرمين الشريفين (مجزرة الحرّة)

الفصل العاشر: خلاصة عن نتائج خلافة بني أمية

الفصل الحادي عشر: الإمام الحسن عليه السلام والخيار الصعب

الفصل الثاني عشر: الأهداف السياسية والحركية في ثورة الإمام الحسين عليه السلام